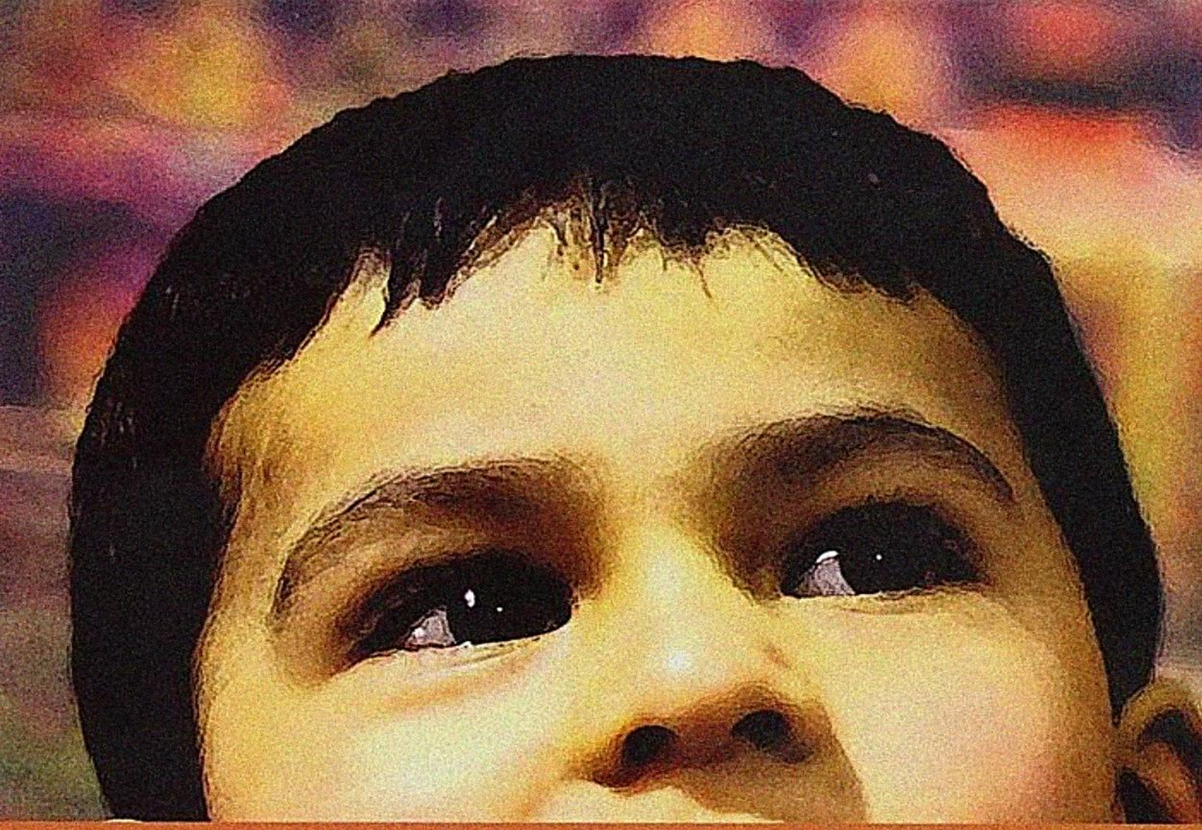


روبيرت شْنايدَر

شقيق النوم

ترجمة: د. نبيل الحفار

رواية

شقيق النوم

روبيرت شْنايدَر

ترجمة: د. نبيل الحفار

مراجعة: مصطفى السليمان

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م

شقيق النوم

روبرت شْنايدَر

PT2680.N376 S3515 2010

Schneider, Robert, 1961-

شقيق النوم : رواية / تأليف روبيرت شْنايدَر : ترجمة نبيل الحفار : مراجعة مصطفى السليمان.-أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة و التراث، كلمة، 2010.

ص 237 : 21X14 سم.

ترجمة كتاب: Schlafes Bruder : Roman

تدمك: 7-600-01-9948-978

1 - القصص الألمانية - المترجمات إلى العربية.

أ-حفار، نبيل. ب- سليمان، مصطفى.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النص الألماني:

Robert Schneider

Schlafes Bruder

www.kalima.ae

كلمة
KALIMA

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

http://www.fask.uni-mainz.de

JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ

Johannes Gutenberg-Universität Mainz
Fachbereich Translations-, Sprach- und Kulturwissenschaft
An der Hochschule 2, 76726 Germersheim
Postfach 11 50, 76711 Germersheim
Telefon: 07274-508-0, Fax: 07274-50835-429

شقيق النوم

المحتويات

دقات قلب باسكال

من يحب لا ينام

هذه حكاية الموسيقي يوهانِّس إلياس آلْدَر الذي أنهى حياته بالموت وهو في الثانية والعشرين من عمره، بعد أن قرر التوقف عن النوم.

فقد اشتعل حباً بابنة عمه إلْزِبت بصورة لا توصف، ولهذا السبب كان حبه تعيساً. وقد قرر منذ ذلك الوقت ألا يركن إلى الراحة ولو للحظة، قبل أن يكشف سر استحالة هذا الحب، فصمد حتى نهايته التي لا تصدق، محتفظاً لنفسه بفكرة أن النوم زمن مهدور، أي أنه خطيئة تودي بصاحبها إلى نار جهنم، فالإنسان النائم يكون ميتاً، أو لنقل إنه لا يعيش فعلاً. وليس عبثاً أن شبَّه الناس قديماً النوم والموت بالشقيقين. وقد فكر، كيف يمكن لإنسان صافي القلب أن يزعم إنه يحب امرأته طوال الحياة، في حين أنه لا يفعل ذلك حقيقة إلا أثناء النهار، وربما بطول فكرة عابرة لا أكثر؟ لا يمكن لهذا أن يكون برهاناً على الحقيقة، فمن ينام لا يحب.

هكذا فكر يوهانس إلياس آلدر، وكان موته المذهل آخر قربان لهذا الحب. ونحن نرغب في وصف عالم هذا الإنسان ومسيرة حياته البائسة.

الفصل الأخير

تقع القرية الجبلية إشْبِرغ في أواسط منطقة فورْآرْلْبِرغ. وفي عام 1912 عندما قضى آخر سكانها، كوسماس آلدر، جوعاً في مزرعته المهملة – حتى عجائز غوتْسبرغ القريبة لم يعرفوا أنه ما زال فيها شخص حي – قررت الطبيعة أيضاً أن تمحو أي أثر لهذه القرية. ولكن بدا الأمر وكأن الطبيعة قد انتظرت بشيء من الاحترام هذا الموت المزري لآخر مُخضعيها لكي تهجم بكل قوتها وبصورة نهائية على مزارع القرية المتفرقة، فما أخذه منها الإنسان قبل مئات السنين استعادته الآن، وما كان طريق القرية والمسالك المؤدية إلى الدور المختلفة ملأتها منذ مدة طويلة بالنباتات الشوكية، ونشرت العفن فوق الحظائر والدور المحترقة حتى التفحم وغطت أساساتها بالطحالب. وبعد موت العجوز العنيد هبطت بمزاج غني بالألوان على المراعي الجبلية المنحدرة، حيث كانت الفؤوس في الماضي تجتث أي شجيرة. وشجر الدردار، أحب الأشجار إلى الطبيعة، عاد لينمو هناك بقوة وكثافة.

بعد الحريق الثالث في غضون قرن واحد – والذي بلغت انعكاساته الليلية حتى أبِنْتسِل حيث شاهدها السكان بدهشة صاخبة – قرر آل لامبارتر وآل آلدر «وهما السلالتان الوحيدتان في إشبرغ» أن الرب لم يرغب قط في وجود الإنسان هناك. في ليلة الحريق الثالث،

في الخامس من أيلول/1892 احترق اثنا عشر إنساناً في مضاجعهم، وثمان وأربعون دابة في الحظائر. كانت رياح الألپ الدافئة تصب كنار جهنم طوال النهار على دعامات وعوارض الدور الخشبية وتعول وتصخب في الغابات، لدرجة أن زُعم لاحقاً أن ثمة من كان على معرفة مؤكدة بالكارثة القادمة فأطلق وقتها قهقهة بألف صوت. في ليلة الحريق الثالث لم يجرؤ أحد في إشبرغ على إشعال النار في موقده، ولا حتى شمعة للصلاة. فالكل كان يعرف ماذا بوسع رياح الألپ الدافئة أن تفعل إن مرت على نار مكشوفة.. الطفل يعرف من الحكايات المرعبة، أو فجأة من عيون العجائز الشبحية. ثمة شيخ من آل لامبارتر عايش الحريق الثاني ويتذكر الأول بصعوبة واضحة، ذهب في الليلة نفسها من دار إلى دار كي يمنع أياً كان عن إشعال نار، وبالعنف إن احتاج الأمر لذلك. تسلل وراقب الحظائر والحجرات والغرف ولم يعثر على أي شعاع مهما كان ضئيلاً. رفع أنفه وتشمم المداخن، فلم يصل إلى منخريه ولا حتى رائحة دخان بارد. ونحو الساعة الثانية استلقى على فراشه المحشو بأوراق الشجر وتابع نومه بهدوء أكبر.

نحو الساعة الثالثة احترقت القرية كلها والغابة المحيطة بها في أقل من ساعة. كانت ريح الألپ الدافئة تهب معولة من جهة كنيسة القديس ڤولفغانغ مندفعة نحو المنحدرات عبر ظهر الغابة وحتى حواف الجبل حاملة معها النيران الزاعقة.

في ليلة الحريق الثالث هرب الناجون المتجمعون عند مجرى نهر الإمّر باتجاه وادي نهر الراين جنوباً وهم يصيحون ويندبون غضباً ويأساً، فمنهم من مات فقراً ومنهم من أمضى ما تبقى من أيام حياته في عمل السخرة لقاء خبز يومه. كان كوسماس آلدر واحداً من الاثني عشر الذين قضوا حرقاً، حسبما ظن الناس في غوتسبرغ القريبة فشملوا روحه أيضاً في تراتيلهم الجنائزية. لكنه كان الوحيد الذي بقي حياً في داره المحترقة، لأنه كان نائماً بين جدران قبوه الرطبة، حيث اعتاد أن يتبادل الحديث ليلاً مع ابنته المدفونة في أرض القبو. كانت ابنة كوسماس تقتل ثمار رحمها، فلم يتحمل خوري كنيسة غوتسبرغ مسؤولية دفنها كنسياً. وعندما شاهد كوسماس آلدر ما فعله الرب بالقرية قرر البقاء في داره، عاطلاً عن أي عمل، بانتظار يوم القيامة، فأمضى عشرين سنة في أطلال داره من دون بذل أدنى جهد لإعادة بنائها، ولم يغادرها إلا عندما كان يقرصه الجوع ويدفعه إلى الغابات الفتية والفرحة، إلى أن مات جوعاً حقاً، لا بسبب نقص الغذاء – فابن إشبرغ قادر على طبخ أي شيء – بل ببساطة نكاية بالسأم من الحياة.

وهكذا أظهر آخر الآدلريين والإشبرغيين مجدداً ذلك العناد المشؤوم الذي كان من صفات القرية لمئات السنين والذي أدى أخيراً إلى زوالها.

الذين لم يولدوا بعد

إن مهمة تدوين حياة وعادات آل لامبارتر وآل آلدر في كتاب، أي تزاوج السلالتين ومتابعة مئات الخيوط المتداخلة بدقة، وتسجيل التشوهات الجسدية الناتجة عن زواج الأقارب، كالرأس المتطاول والشفة السفلى المنتفخة والمستقرة في الذقن المرخية، والدفاع عن ذلك كله باعتباره علامة أصالة صحية، قد يكون ذلك من مهمات هاوٍ لتاريخ الوطن يبذل جهده للوصول إلى مغاليق معرفة أسلافه. وإنها على الرغم من ذلك كله مضيعة للوقت أن يقوم أحدهم بمهمة وصف تاريخ فلاحي إشبرغ: الرتابة البدائية لمعيشتهم عبر فصول السنة، نزاعاتهم الشريرة، إيمانهم المتزمت الفريد، وتحجرهم الذي لا مثيل له تجاه التجديدات الخارجية، لولا أن سلالة آلدر في مطلع القرن التاسع عشر قد أنجبت طفلاً بموهبة موسيقية فريدة بكل معنى الكلمة، لن تتكرر كما يبدو في منطقة فورآرلبرغ؛ طفلاً اسمه يوهانِّس إلياس آلدر.

ووصف مسيرة حياته لا يتعدى تعداداً محزناً لإهمالاتِ وإغفالاتِ كل أولئك الذين أحسوا بالموهبة العظيمة التي يمتلكها هذا الإنسان، لكنهم تركوها لتندثر، إما بسبب جمود أحاسيسهم، أو بلاهتهم، أو نتيجة الغيرة فحسب، كحال ذاك الموسيقي عازف أرغن كاتدرائية فِلدْبرغ، برونو غولَّر (فلتدفن أطرافه في اتجاهات الريح جميعها كيلا

تقوم لجسمه قائمة يوم يُنفخ في الصور.).

وسيكون الوصف بمنزلة شكوى ضد الرب الذي جاد في مزاجه المسرف فأنزل هذه الموهبة الموسيقية الفريدة على ابن فلاح في إشبرغ تحديداً، في حين كان عليه مراعاة أن هذا الاستعداد لن يتفتح ولن يكون مفيداً في هذه البيئة التي تفتقر إلى أبسط مقومات الموسيقى. يضاف إلى ذلك أن جود الرب قد جعل يوهانس إلياس يتحلى بعاطفة حبٍ متدلِّهٍ أحرق حياته قبل الأوان.

لقد خلق الرب موسيقياً لم يتمكن من رسم علامة موسيقية واحدة على الورق، لأن الظروف لم تسمح له بتعلم الكتابة والقراءة الموسيقية، على الرغم من توقه الشديد إلى ذلك. لكن البشر بسذاجتهم الإلهية - ولن نسميها بغير ذلك - أوصلوا هذه الخطة الشيطانية إلى ذروة كمالها.

عندما سمعنا بمصير يوهانس إلياس آلدر الذي يثير الدهشة والفزع غلبنا الصمت وفكرنا: كم خسر العالم من أناس رائعين: فلاسفة، مفكرين، نحاتين وموسيقيين، لمجرد أنه لم تُهيَّأ لهم إمكانية تعلم حرفة عبقريتهم. ونسترسل فنقول بأن سقراط ليس أكبر المفكرين والمسيح ليس أعظم المحبين وليوناردو ليس أروع النحاتين وموتسارت ليس أكمل الموسيقيين، فيما لو قُدِّر لأسماء أخرى تحديد مسار هذا العالم. فحزِنّا على أولئك المجهولين الذين ولدوا ولم يولدوا طوال حياتهم. وقد كان يوهانس إلياس آلدر واحداً منهم.

الولادة

للمرة الثالثة بعد ظهر يوم القديس يوهانِّس من عام 1803 فتح زِفْ آلدر باب الحجرة حيث استلقت زوجته وهي تصرخ متسولةً ولادتها الثانية، إذ بدا الأمر وكأن هذا الثاني لا يسمح بابتزازه، وكأنه قد صدَّ نفسه عن هذا العالم ولا يريد أن يخرج إليه بمطلق إرادته. فمهما بذلت المسكينة من جهد لتضعه، وحتى بعد أن ضغطت بطنها بكلتا يديها وهي تعاني آلاماً مروعة، لم ينزل الطفل إلى الدنيا.

حبس زِف أنفاسه. كان الهواء مشبعاً بعرق ودم زوجته زِفين (نسبة إلى زوجها). التفت إلى النافذة وفتح درفتها بعنف بحيث تخلخل نصف هواء الحجرة، وامتدت الذبذبات من حافة النافذة إلى أسفل الجدار وعبر ألواح الأرضية حتى مرقد الولّادة وصعوداً إلى رأس زفين المحموم. بدا فتح النافذة وكأنه العزاء الوحيد الذي بوسعه تقديمه لزوجته. لم يكن زف يجيد التعبير عن نفسه بالكلام. عكس الهواء أشعة الشمس وكانت الحرارة شديدة في هذا اليوم من يونيو، ولم يخفف التيار شيئاً منها. مد زف بصره عبر النافذة حتى المنعطف الأخير لدرب القرية، من حيث كان يجب أن تصل تلك القابلة. لقد مرت ساعتان وأكثر منذ أن أرسل الصبي إليها في غوتسبرغ. ولم يصدق عينيه عندما رآها تظهر فعلاً من المنعطف متقدمة نحوه حاملة حقيبتها الجلدية الحمراء ذات الحزام الذي تنكبته على كتفها،

وكان ابنه يمشي في إثرها. أغلق زف النافذة وذهب إلى زوجته، نظر في إبريق الماء الموضوع على الصندوق الصغير، صب الماء في الكأس حتى حافته، فتح الباب.

وكان بوده أن يخبرها بأن القابلة إلِّنزون قد أتت، لكنه لم يكن رجل كلمات. انتظر في الأسفل عند الباب المفتوح على آخره، وعندما دخلت القابلة متعرقة لاهثة قدم لها كأسا من نبيذ الفاكهة الطازج وعشرين قطعة من ذات الصليب، أجر يومها، وأشار إلى الدرج المؤدي إلى حجرة الوالدين. ثم ذهب مع ابنه إلى الشونة المجاورة كي يقلِّب القش للمرة الأخيرة.

كانت زوجته في الحجرة العليا تصرخ من الألم صراخاً مدوياً.

بدأت إلِّنزون عملها من دون لهفة ومن دون العجلة المتوقعة. وعندما تعثرت للمرة الثالثة على الدرجات الضيقة المؤدية إلى الحجرة، كانت الخطة التي ناقشت جوانبها المتعددة في رأسها المتقلب على طريق قدومها، قد باتت نهائية ودخلت حيز التنفيذ.

ستكون هذه حتماً آخر عملية توليد تقوم بها، فهي ما زالت صبية، رغم بلوغها الحادية والعشرين من عمرها، علت جبينها تغضنات تدل على نفاد صبرها. ثم إنها تمتلك يدين ناعمتين، حسبما قال لها أحدهم: (يداك أنعم من أن تضيعا في عمليات التوليد.) قطبت جبينها بمزيد من عدم الرضا، وأخذت ترتب أدواتها على طاولة الغسيل وفق الإرشادات التي تلقتها في «معهد القبالة» في إنْسْبروك: الحقنة

الشرجية، ثم حقنة ماء العماد، ثم أنبوب الأم، ثم خطاف الفتل، ثم القثطرة، وأخيراً مقص حبل السرة. ثم أخذت ترتب الأحزمة حسب الطول والوظيفة.

وزفين تصرخ من الألم صراخاً مدوياً.

لكن إلّنزون كانت تفكر بضرورة قبول عرض فرانْتس هيرْش من هوتّينغ وبأن تلتحق بخدمة أحد الوجهاء، فهذا سيضمن لها وجبات مجانية وأجراً يومياً أعلى، ثلاثين قطعة من ذات الصليب كحد أدنى. وهذا سيخلصها إلى الأبد من النزاعات المزعجة مع موظف البلدية؛ من الشجار الدائم حول نقود رعاية عيد الميلاد التي أكد لها السيد القاضي في المحكمة المدنية والجنائية في فِلْدبرغ شخصياً أنها من حقها. لكن موظف البلدية العنيد يريد عجنها وعلكها لا شك. ليكن. ولتقم القابلات غير المتعاقدات بهذا العمل في المستقبل. وعندها ستتوق إلى معرفة ما إذا كانت النتيجة ستكون فعلاً أرخص بالنسبة لموظف البلدية. لا، لا بد أن تنتهي من هذه الحالة حتماً، ولا يحق لموظف البلدية أن يحتال عليها. أيكون سبب تحامله عليها أنها رفضت مراقصته قبل سنوات في إحدى الحفلات! وما ذنبها إن كان فمه كخطم الدابة وقدماه مثل قوائم العنزة.

وزفين تصرخ من الألم صراخاً مدوياً.

ثم إنه ليس صحيحاً أنها لن تلقى رجلاً مستعداً لخطبتها بعد الآن، فهذا فرانتس هيرش من هوتينغ قد تقدم إليها قبل أسبوعين، وخطياً

في رسالة، أجل في رسالة. وفرانتس هيرش من هوتينغ أكثر ثقافة في أمور كثيرة من خطم الدابة، موظف البلدية القصير المنفاخ. وأفضل ما في الأمر أن فرانتس هيرش من هوتينغ رجل ضخم مهيب، إنْ غض الإنسان الطرف عن حدبته. وإلنزون تهتم بالشخصية قبل كل شيء، بالشخصية تحديداً. ثم إن إنسْبروك مكان عظيم جداً. فما الذي سيقدمه لها موظف بلدية لم يصل في حياته إلى أبعد من دورْنْبرغ، على بعد ثلاث ساعات من هنا! لكنها قد لا تقبل عرض فرانتس هيرش أبداً، فإذا فكر الإنسان بترو قد يجد أن حدبته أمر مزعج جداً، في حين أنها إنسانة طيبة وذات يدين ناعمتين (يداك أنعم من أن تضيعا في عمليات التوليد.) هذا هو ما قاله لها الرقيب تْسِنْكر، وأقسم على ذلك بشرفه العسكري الملكي والقيصري، أجل. وظهرت عند زاوية فمها بادرة ابتسامة، سرعان ما تلاشت عندما عادت إلى التفكير بذلك المشوه من هوتينغ، الذي لم تعِده بالموافقة، لكنها أجّجت آماله ببعض التنويهات الصريحة.

وزفين تصرخ من الألم صراخاً مدوياً.

فهو على مستوى كلامه وأفعاله رجل محترم ملائم، لولا حدبته المزعجة تلك. كما لم يفتها طبعاً أنه عليل الرئتين. ما هذه الأمور التي تخطر ببالها الآن، أليس محط اهتمامها هو الشخصية في المقام الأول، أجل الشخصية؟ لكن نفسيته مريضة بعض الشيء أيضاً، وهذا مالا ينطبق على الرقيب تسنكر أبداً. بيد أن الرقيب تسنكر لا يمتلك أرضاً

تحتاج إلى ثورين ويومين لفلاحتها، في حين أن فرانتس هيرش من هوتينغ ثري. وهناك إمكانية أن تعمل خدامة لدى عائلة برجوازية من الوجهاء، فتتجنب عندها الإصابة بالأمراض الكثيرة المنتشرة في المنازل التي تزورها. على كل حال، إن لم تحسم أمرها حتى المساء فستشارك في رحلة الحج إلى أخوية قلب ماريا في أودِلبرغ وستتوسل النصح من كل قلبها من العذراء المقدسة. إنها ترغب بالانتقال إلى إنسبروك في كل الأحوال، لكنها تريد قبل ذهابها أن تجاهر خطم الدابة بفضيحته بحيث تسقط لحيته من الرعب.

وزفين مستلقية تبكي بصمت.

خير الأمور أن يتمسك الإنسان بنصيحة أمه: ألاّ يحكم المرء على الناس من مظهرهم، بل عليه أن يتنّبه إلى الشخصية. وهذا تماماً هو ما تفعله إلّنزون. صحيح أن الرقيب تسنكر يسخر من الناس كثيراً ويقلد حركاتهم بصورة مضحكة، ولدرجة أنه تلفظ ببعض العبارات ضد القيصر نفسه، لكن فرانتس هيرش من هوتينغ لا ترتسم على شفتيه حتى ابتسامة..عندما رفعت القماش الملطخ بالدم كان الطفل مستلقياً على ركبة زفين وحبل السرة ممزقاً. رفعت القابلة الطفل مرعوبة وحملته إلى طاولة الغسيل وقصت حبل السرة بيدين مرتجفتين. حملقت في الطفل وأنصتت إليه مذعورة، هزته، وأخيراً ضربته.

لم يصرخ.

رفعت الرضيع بيديها اللتين تقطران دماً، ضربته ثانية وأنصتت.

حبست أنفاسها كي تتمكن من سماع نبض القلب الصغير. ونتيجة ليأسها أخذت ترتل بتوسل وتضرع ثم ارتفع صوتها وهو ينضح خوفاً صريحاً. وفجأة أحست بكتلة اللحم ترتعش مرة وثانية. توقفت عن الغناء وأصغت، وعرفت الآن أن الكتلة حية. لقد أنقذت الترتيلة الطفل.

لم تستطع إلّزون لاحقاً أن تتذكر حقيقة جنس الطفل الوليد. لكنها صرّحت عند موظف البلدية أن يوزِف وأغاتِه آلدر قد رزقا بابن ذكر، فجاء تخمينها للأمر صائباً.

عند هذه النقطة سنترك إلّزون وثرثرتها، ولن نقابلها لاحقاً. ولهذا لا بد من إضافة أن ولادة يوهانس إلياس كانت آخر خدماتها بصفتها قابلة، وأنها انتقلت إلى إنسبروك وتزوجت هناك – بود المرء أن يعتقد أنه الرقيب تسنكر، ولكن لا – فرانتس هيرش من هوتينغ. فتكون بهذا قد حسمت أمرها لمصلحة الشخصية. لم ينتج عن هذا الرباط أي أطفال، وقد توفي فرانتس هيرش من هوتينغ في عام 1809 مصاباً بالسل. ومن بعده تزوجت الأرملة مرة ثانية، بل وثالثة أيضاً. والجدير بالذكر أن آخر أزواجها – وهو أمر لا يصدق – كان خطم الدابة وقوائم العنزة، موظف البلدية من غوتسبرغ. وتختفي آثارها منذ عام 1850. وقبل ذلك بعام واحد ورد اسمها في السجلات بشأن قضية تسوية إرث. لكننا لا نمتلك أية معلومات عن كيفية قضائها آخر أيام حياتها. لكنها على كل حال كانت حاضرة

عند ولادة موسيقي عبقري.

ومَن الذي لن يفخر في سيرة حياته المتواضعة بالإشارة إلى مثل هذا الحدث؟ ولنفترض أن أحدهم قد سمح لنفسه حينذاك أن يصيح في وجه إلّنزون قائلاً إنها بعد ظهر يوم القديس يوهانس من عام 1803 قد شهدت بأم عينيها معجزة مزدوجة: ولادة إنسان وعبقري في الوقت نفسه، لما كانت قد فهمت شيئاً. وحتى الآخرون، زفين في مرقد الولادة وزف وابنه ما كانوا ليستوعبوا أكثر منها. غير أن أسوأ ما في الأمر، هو أنه حتى بعد أن تجلّت موهبة هذا الإنسان وعُرفت، لم يرد أحد أن يفهم.

أب لأبنائه

كان الخوري المحترم إلياس بنْتْسَر رجلاً ذا مواهب خطابية كبيرة، ومغرماً بمُتع الحياة، ولما كان منسجماً مع فطرته الطبيعية، فقد كان مولعاً بكل ما هو أنثوي. وهذا الولع أودى به أخيراً إلى الهاوية، كما سيتبين لاحقاً.

يتحدر الخوري بنتسر من هوْونْبرغ في وادي الراين التي كانت منذ القدم حصناً للاعتقاد بالخرافات والقوى الشيطانية. ولهذا كان بوسعه الحديث عن آخر عملية إحراق ساحرة في منطقة فور آرلبرغ والتي شاهدها بأم عينيه عندما كان طفلاً. وقد صارت هذه التجربة الهائلة الموجه الرئيسي لمعتقده الديني، فوعظ فلاحي إشبرغ مرات كثيرة عن عملية الإحراق تلك، وبأسلوب ناري كان يؤدي إلى جفاف الأفواه وإلى احتقان الرؤوس والآذان بالدم لدرجة كادت معها أن تشتعل، بل ظن البعض أنهم قد اشتعلوا فعلاً أو أن لهيب النيران قد وصل إلى أجسامهم. وفي كل مرة كانت تتاح للخوري بنتسر الفرصة، أثناء قراءاته الإنجيلية أيام الآحاد، لمد جسر إلى تجربة طفولته العميقة التأثير، كان يعبره. وبفضل خياله المتألق كان ينجح أخيراً في الانتقال من حكاية موسى وشجيرة العليق إلى مشهد المرأة المحترقة في هوونبرغ. واستناداً إلى مثل هذه التأويلات كاد أن يقع في إشبرغ حادث إجرامي، إذ أدت عظات الخوري النيرانية إلى شحن

ثلاثة من آل لامبارتر ودفعهم يوم أحد الشرارة من عام 1785 إلى إلقاء زيلي لامبارتر، الملقبة بزيلي الأرواح، في النار المتأججة، بدلاً من الساحرة المصنوعة من القش.

وزيلي الأرواح هذه، أرملة عجوز، تعيش وحيدة في أعلى دار في القرية بانتظار ساعتها. وقد أحيطت بسمعة عجيبة، أنها قادرة على مخاطبة أرواح موتى إشبرغ. وفَسرت قدرتها الرؤيوية بأنها الأقرب إلى الرب مكانياً من جميع السكان، ولذلك فإنها تتلقى شكاوى السادة من العالم الآخر بوضوح، بشرط أن تكون سماء الليل صافية، فحجاب السحب يشّوش السمع. وقد استوعب الجميع ذلك. وعندما زعمت زيلي فيما بعد أن عدة زنوج من المشرق قد ظهروا لها، رجالاً ونساءً ذوي بشرة سوداء كذلك ووجوه سوداء كالفحم وأسنانهم سوداء كالفحم، لم يعد أحد يشك بالقدرات الرهيبة لهذه المرأة.

وهذا الوضع أوصل العجوز إلى فكرة ابتكار نظام يشبه سجلاً للأرواح يوفر لها في آخر عمرها تقاعداً منتظماً غير مباشر. كانت تعرف أن كل ميت يجب أن يحترق في نار جهنم قبل أن يدخل الجنة، فقررت بناء على ذلك أن تسجل لائحة بأسماء جميع الموتى الذين يتوجب على أقاربهم الأحياء إنقاذهم من دون تأخير. وفي إشبرغ كانت علاقات القربى متداخلة بين الجميع، وبغية تخفيف الفوضى الناشئة عن ذلك صار الرجال يُدعون بأسمائهم وصارت

أسماء الزوجات تنسب إلى أسماء أزواجهن.

وذات يوم نزلت زيلي الأرواح من دارها بصعوبة إلى دار رجل من آل لامبارتر وفاتحته بأن والده قد ظهر لها وهو ينوح ويولول، وأنه لن يجد السلام طالما أنه ما زال مديناً لها بسبعة أكداس من الحطب الناعم والمقطَّع بالفأس. تلا ذلك أن زيلي الأرواح قد توصلت عبر عدد لا يحصى من الجلسات الروحانية مع موتى إشبرغ إلى أن الجميع سواء من آل لامبارتر أو من آل آلدر مدين لها بشيء ما. وقد جاء تعبيرها عن ذلك على لسانها في صيغة تهديدية متشابهة: «ثماني بيضات، عشر مرات أبانا الذي... كيلو ونصف شمع، خمسون مرة عليك السلام يا مريم. قنطار قش، سبعة قداسات. عشرة أذرع كتان، ثمانية مزامير.» ولم يستفد أحد شيئاً، لا من اللوم والتقريع ولا من الشكاوى لدى الخوري. إذ لم يسبق قط أن تبرع الناس بمثل هذه الكميات من الشمع والفتائل والقداسات. ولم يسبق أن صلى الناس بمثل هذا الصدق في كنيسة إشبرغ الصغيرة. وهكذا كما تبيّن عرفت زيلي الأرواح كيف تربط بكل ذكاء بين الضروري والمجدي. وفي الواقع كانت زيلي أول من حصل على تقاعد في إشبرغ، بل يمكن الزعم في فورآرلبرغ بأسرها. وهكذا بلغ الأمر حداً بدأ معه الناس يكرهون هذه المرأة. ولسوء الحظ تفشى في ذلك الوقت وباء عجيب أصاب البطاطا في حقول إشبرغ الجبلية، ولم يظهر على حد علمنا إلا هناك. فبين ليلة وضحاها صارت حبات البطاطا مفرغة من لبها، أو

أنها تقلصت لتصبح بحجم الجوز، أياً كان الأمر.

بين الضحكات والصيحات على إيقاعات مسابح النساء جُرجرت زيلي الأرواح إلى مزبلة في الحقل المجاور الذي يصفونه بالعتيق، حيث نُصبت المحرقة. كانت زيلي الأرواح تعول خوفاً من الموت، وأقسمت أن تعيد لكل ذي حق حقه. لكن أحد رجال آل آلدر زمجر بعينين متقدتين مشيراً إلى عظات الخوري، فشحن مجدداً أولئك الذين أرادوا الانسحاب من تنفيذ العملية. وعندما قيدوا العجوز في المزبلة إلى المحرقة بدت وكأنها ما زالت تعول، لكن وجهها المحطم الذي شوهته الشقوق لم ينبس بأي صوت. كان الملح ملتصقاً بخديها المتغضنين وقد سال من زاويتي فمها لعاب أحمر أخذت تلعقه بلسانها الطويل وكأنها ستموت عطشاً. شطرت النار الليل. وشد كثير من المتجمعين القبعات فوق وجوههم كي يخفوها وكيلا يُعرفوا عندما ينهالون بقبضاتهم ورؤوس أحذيتهم على جسم المرأة المهلهل. حتى الأطفال أخذوا يقرصونها ويبصقون عليها من دون توقف. وعندما صفعها أحد المجهولين فأطار عن جمجمتها غطاء رأسها سرى في حشد الفلاحين المتعطش للموت همس غامض. لأول مرة يرى الجميع أن زيلي الأرواح صلعاء تماماً، فظن حتى أقلهم إيماناً أن الساحرة ماثلة أمام عينيه. لكمها المجهول مرة على بطنها وأخرى على صدرها الممسوح، مزق ثيابها لتتخذ العملية مسارها تماماً كما وصفها الخوري المحترم في عظاته. ولكن المجهول صرخ

فجأة صرخة مريعة حتى ظن من حوله أنه قد فقد عقله، وأخذ يصيح من دون توقف «وباء الطاعون، وباء الطاعون!» وهرع فوق الثلج القاسي ليبتلعه الليل. وكالشرار المتطاير من عمود المحرقة الذي هوى أرضاً، تطاير الجميع متفرقين في جميع الاتجاهات. ووباء الطاعون المزعوم أنقذ المرأة لتعيش الأسابيع القليلة المتبقية من حياتها.

عندما وصل خبر هذا الحدث إلى سمع خورينا، عن طريق ثرثارٍ آلدري، قطع على نفسه عهداً في اليوم نفسه بألا يلقي بعد الآن أي عظة تتعلق بالنار، وأتبع ذلك بقوله: «بحق الثالوث المقدس، لا يجوز للناس أن يأخذوا كلام واعظ على المنبر بحذافيره!» وصرف الثرثار الذي اهتز إيمانه حتى الصميم، والذي كان يعتقد أن ما يقوله الواعظ حقيقة لا يطالها الشك.

بيد أن هذا القرار الرزين لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما تبيّن للخوري أن الحمّية الدينية لسكان إشبرغ قد أخذت بالتراجع، فلامَهم على أن جلسات التسبيح أيام السبت لم يعد يشارك فيها سوى النساء، وأن عادة مضغ التنباك الكريهة قد درجت مجدداً في أثناء قداس القربان المقدس، وأن بعض الرجال في شرفة الأرغن كانوا يزعجون جو الصلاة بنخيرهم الوقح، أضف إلى ذلك أنه لم يدخل صندوق التبرعات خلال الأسبوعين المنصرمين سوى ثماني قطع من ذات الصليب لكن العار الأسوأ.

هو إقامة حفلات رقص سرية في دور القرية مؤخراً وتقديم

المشروبات الروحية خلالها. وفي الفترة التالية، عندما لم يحدث أي تغيير بشأن الأوضاع التي لامَهم عليها، ولم يدخل صندوق التبرعات طوال آحاد ثلاثة أكثر من بضعة أزرار مصنوعة من ظهر سلحفاة، خرق الخوري العهد، وفكر بعظة ستطرد الصَغار المتأصل من نفوس الإشبرغيين مرة وإلى الأبد.

وفكرة العظة المرعبة هذه هبطت على الخوري في عيد العنصرة عام 1800 عندما كان في حظيرة دارته، حيث اعتاد أن يذهب كلما أراد التفكير بمسألة من الوزن الثقيل، ففي هواء الحظيرة الدافئ بين البقر والماعز والخنازير والدجاج ثمة ما يساعده على التفكير. كان جالساً هناك على برميله الخشبي الصغير بجانب حظيرة الخنازير واضعاً يديه على جبهته، وقد طالت جلسته من دون أي خاطر. كان يعرف فقط أنه يريد استعارة الصورة الإنجيلية – ألسنة نيران معجزة العنصرة – ليشكل منها ناراً بحجم مختلف تماماً. جلس طويلاً على برميله الصغير وعصر دماغه لكنه لم يجد أي جسر مناسب للعبور. وعندما تخدرت مؤخرته نهض مستاءً، مشى بضع خطوات،فداس على روث بقرة ما زال البخار يتصاعد منه، فتزحلق وهوى إلى الوراء، بحق الثالوث المقدس، فانخبط قفا رأسه بحافة البرميل الصغير. إنه البرميل! هذا هو! البارود الأسود الذي أضاعه في الغابة جنود نابليون في أثناء عمليات النهب والسلب. وكان الخوري قد احتفظ به حتى لا يسبب أي أذى. مد يده بحذر إلى الورم الذي صار بحجم الإبهام

وتساءل متذمراً: أكان ضرورياً أن ينزل عليه الوحي بهذا الشكل؟ لكن عظة النار كانت قد صيغت في التو واللحظة. وعند هبوط الليل صعد الخوري إلى دار هاينْتس لامبارتر، شمّاس كنيسة إشبرغ، حيث بقيت الشموع ليلتها مشتعلة حتى الكعب، فقد أطال الخوري البقاء هناك.

وفي يوم العنصرة اتخذت الأمور مسارها المشؤوم. صحيح أن كثيراً من زوار الكنيسة قد تساءلوا عن الخيط الغريب الممدود، لكن المنظر لم يثر اهتمام أحد منهم. أحد الذين احترق شعرهم يومئذ، تحدث لاحقاً عن برميل صغير أثار استغرابه لدرجة أنه لكز جاره قائلاً «انظر! إنه يسكر حتى في بيت الرب!» وقال آخر إن صوت الخوري المحترم أثناء إنشاد ترتيلة الاسترحام كان غريباً متهيجاً، وأكد شاب من مساعدي الخوري أن الشماس قد غادر الكنيسة وبيده ساعة رملية، قُلبت للتو، حالما صعد الخوري إلى المنبر.

«الآن، بإمكان نار العنصرة المُطهِّرة أن تنقلب إلى نار جهنمية تحرق الأخضر واليابس»، هدر الخوري من منبره، «فإبليس جبار، وفجوره لن يتوقف حتى عند بوابات الكنيسة، بل وبمقدوره أيضاً تحطيم بواباتها، بما أنه قد امتلك النفوس لنفسه. وهذا هو الحال في إشبرغ، للأسف، ولهذا لم يتبق سوى بعض الوقت حتى ينهار كل شيء وسط الدخان والكبريت». هكذا صاح الخوري من المنبر. وإحدى نساء آل آلدر التي كانت يقظة في حينها، أفادت لاحقاً في

الإدارة الكنسية العامة في فِلدبِرغ بأن السيد الخوري المحترم كرر بصوت مرتفع غريب أفكار الحرق والانهيار والدخان والكبريت عدة مرات.

مزق صوت الانفجار غشاء الطبلة في آذان ثلاثة فلاحين جالسين على المقاعد الخلفية، كما أخرس نخير الرجال الوقح على شرفة الأرغن، أما الذين كانوا مستندين إلى بوابة الكنيسة فقد كانت إصاباتهم أسوأ، إذ كسرت درفتا البوابة المحطمة ساقي أحدهم، وحوض ثانٍ، وانفجر الدم من أذني ثالث ملطِّخاً الجدار المطلي بالأبيض حتى لوحة الصلب في الأعلى. وحتى الشماس كانت إصابته مريعة، فقد أراد أن ينجز مهمته بصورة جيدة، فلحق بالفتيل المشتعل عن كثب، على الرغم من أن الخوري قد منعه من فعل ذلك بكل وضوح، ففقد هاينتس لامبارتر نور عينيه وكاد أن يحترق كلياً، لو لم يطفئ النار المشتعلة في ثيابه وهو يتمرغ في الحشائش المحملة بندى الصباح. أما زوار الكنيسة المذعورون حتى الموت فقد تراكضوا صارخين لمغادرة الكنيسة. وهنا لا بد من إضافة أنه لم ينتظروا تلقي البركات من الخوري.

رفع سكان إشبرغ القضية أمام المحكمة المدنية والجنائية في فِلدبرغ، غير أن الإدارة الكنسية العامة زعمت أن المسألة كنسية داخلية، وأن الأخ الخاطئ سيحاكم أمام محكمة كنسية ويُدان، وهذا هو ما جرى. كان الحكم تخفيض راتب الخوري من ثلاثمئة وخمسين غولدن

سنوياً إلى النصف، إضافة إلى جعله مع جميع خوارنة إشبرغ مستقبلاً تابعين إلى قسيس غوتسبرغ في كافة القرارات المتعلقة بالرعاية الروحية. وقد دافع الخوري عن نفسه بموهبته الخطابية المؤثرة – بحق الثالوث المقدس، لا يجوز للناس أن يأخذوا كلام واعظ على المنبر بحذافيره – ولكن سبق السيف العذل.

بعد مرور ثلاثة أسابيع على ذلك الأحد الذي سمي في ذاكرة السكان بأحد الكبريت، غادر الخوري إشبرغ. ثمة سطران كُتبا على باب دارته أشارا إلى أنه قد ارتحل إلى هووِنْبرغ، إذ إنه يستحق التمتع بالمصيف منذ زمن بعيد. وطوال ثمانية شهور افتقد الإشبرغيون أي رعاية روحية، إلى أن عاد الخوري بصورة غير متوقعة، مطالباً بأن يكون مستقبلاً بمنزلة الراعي الحكيم على رأس قطيعه من الخرفان، لكن الأمر بقي في حدود المطلب، للأسف.

جرى هذا كله قبل ولادة يوهانس إلياس بثلاث سنوات. والقارئ الذي تابعنا خلال ذلك حتى هذه النقطة قد يطرح على نفسه السؤال التالي: لماذا نتوسع في التفاصيل عن الخوري ذي الطباع الحادة ونؤخر الدخول في قصة الطفل العجيب؟

فليحتفظ القارئ بسؤاله إلى حين.

بعد ولادة الطفلين بأسبوعين أقيمت مراسم عماد مزدوج في كنيسة إشبرغ الصغيرة والمثيرة للإعجاب بسبب بوابتها ذات الدرفتين الموشاة بالمعادن مرتين وذات الاثنتي عشرة زاوية الملبسة بالحديد. تم

تعميد صبيين من سلالة آلدر المتخاصمة في ما بينها منذ عدة عقود. كان الأول – طفلنا – وقد عُمِّد باسم يوهانِّس إلياس، والثاني الذي ولد بعده بخمسة أيام، عُمِّد باسم پيتر إلياس، وكانت قابلةٌ من ألتْبرغ تدعى ڤيغر قد أشرفت على نزوله إلى الدنيا. والملاحظ أن اسم إلياس يتردد على نحو لافت.

والسبب في ذلك هو أن: الخوري إلياس بنتسر منذ تجربة دمشق، التي خاضها في عيد العنصرة ذاك، لم يعد يعتبر نفسه راعياً فحسب بل أباً أيضاً لأطفال إشبرغ المسيحيين. ولا شك بأن الأمر قد اختلط لديه بين المعنى الروحاني لكلمة أب ومعناها الجسدي الشهواني، فبعد مدة من الزمن شوهد في إشبرغ كثير من الأطفال ذوي الشعر البني والذين قد خرجوا، حسبما قيل، من القالب نفسه الذي خرج منه الخوري المحترم. زد على ذلك أن السيد الخوري كان متعلقاً بفكرة الخلود بصورة مبالغ بها. ويبدو أنه كان يعرف أن الكلمات، وحتى أشدها توقداً، سرعان ما تذروها الريح، في حين أن الاسم يدوم مدة أطول. وهكذا خرج ببدعة فريدة في نوعها، وهي أن يكون الاسم الثاني لجميع الذكور في العماد إلياس.

اقتصرت مراسم العماد على المحيط العائلي الضيق، فجلس جماعة يوهانس إلياس في الجانب الأيمن من المذبح، وجماعة پيتر إلياس في الجانب الأيسر. ألقى الخوري كلمة شبَّه فيها قدرة الماء بقدرة النار، غير أن كلمته قد طالت، وبدا أثناءها وكأنه يشعر بالخجل

من قيامه بالمعمودية ذاتها. وأخيراً عندما وصل إلى مسح جبهتي الصبيين بالزيت، وكانتا حمراوين كسلطعان مسلوق، أخذت يده ترتعش بقوة، مما اضطره إلى التوقف كي لا يلحق الأذى بالدودتين الصغيرتين. عندها، ومن دون أن يريد ذلك، تسمرت نظرة الخوري على وجه زفين، فاحمرّا كلاهما في اللحظة نفسها وبصورة بالغة الإحراج. ولحسن الحظ بدأ الأرغن بموسيقى كورال العماد، وأخذ يوهانس إلياس بالصراخ، إذ كان يهلل لسماعه نغمات الأرغن لأول مرة في حياته. كان يحتفل باكتشاف الموسيقى.

أما والده، زف، فقد كان غارقاً في مقعد الكنيسة وعيناه مسمّرتين على ركبتيه. فعندما أخذ الرضيع بالصراخ عاود زف ذلك الصقيع المقبِض الذي اجتاحه من رقبته عبر ظهره إلى بطنه، نزولاً إلى خصيتيه، وفكر: «اللعنة، هناك غلط ما في هذا الولد! الصوت!» وضغط أذنيه بيديه بحيث كاد الدم أن ينفجر من شرايينهما.

لكن بيتر، ابن نولف آلدر، لم يصرخ، وما نقصده بذلك هو الانتباه منذ الآن إلى سمة جوهرية في شخصيته لاحقاً، إذ إن بيتر إلياس لم يصرخ ولم يعول قط، سوى مرة واحدة، سنتحدث عنها بالتفصيل في حينها.

بعد ذلك بثلاثة أيام مات الخوري إلياس بنتسر بطريقة فظيعة. تسلق غابات إشبرغ حتى وصل إلى سهل مرتفع توجد فيه صخرة يسمونها صخرة بطرس. وقد ظن الناس أنه أراد قطف أزهار البيلسان المبكرة،

إذ وجدت بقربه سلة صغيرة فقدت لونها. ويبدو على كل حال أنه قد سقط على الصخرة سقطة قاتلة، فقد وُجد جسمه بين الحصى مشوهاً تماماً، إذ دخل عظم الفخذ حتى الركبة في جذعه، أما عظم الفخذ الثاني، الأبيض العاري فقد انتصب عالياً بارتفاع ذراع.

بقيت إشاعة انتحاره منتشرة مدة طويلة بإصرار. وفي شهادة عماد صبي زف يظهر خط الخوري مرتجفاً يكاد يكون غير مقروء، في حين أنه في شهادة عماد الصبي الآخر سلس ومنساب كالعادة، ونحن لا نقصد من ذلك أي شيء آخر.

معجزة سمعه

كان الضباب طوال بعد الظهر يغطي المنطقة حيث توجد دار زف آلدر، وهي منطقة تجمع سكاني أصغر من قرية وأكبر من عزبة. صُقِعَ الضباب في الغابات فشكل خيوطاً متطاولة من الأغصان وغطى لحاء أشجار التنوب من الجهة الجنوبية، وبعد الظهر كانت الشمس والقمر في الأفق متقابلين، القمر مثل خبز القربان المكسور والشمس مثل وجنة الأم. كان الصبي معتلياً كرسياً منخفضاً ينظر من نافذة حجرة الأطفال التي أقفلتها زفين الآن بصورة مزدوجة، بأن أضافت قطعة حطب بين قبضة الباب وعارضته. كان إلياس واقفاً يحدق نحو الأسفل باتجاه طرف الغابة التي يجري نهر إمَّر وراءها. أحس بتعاسة في نفسه، وكان لا بد من أن ينزل.

استيقظ الصبي في الليل على وقع هطول ندف الثلج. اجتاحه الفرح فقفز إلى النافذة، فتحها وبقي ينصت هناك حتى انبلاج الفجر. في ذلك الوقت لم يعد أخوه فريتس ينام معه في الحجرة نفسها، فقد أخذه الوالدان إلى حجرتهما لحمايته من الطفل الملعون. وفي الصباح عندما اكتشفت زفين وضع إلياس، كانت جبهته محمومة تنز عرقاً، وكانت نتيجة ذلك عشرة أيام في المرقد بحمى عالية مصحوبة بمرح لا تفسير له، إذ كان يمضي نصف نهاره وهو يغني جميع الأناشيد المتداولة في الكنيسة على مدار السنة.

في ذلك الوقت كان فهم الطفل محدوداً، فهو لم يفهم لماذا عليه أن يسكت عندما يدخل غريبٌ الدار، في حين يُسمح لأخيه بالحضور دائماً، ولم يفهم لماذا رفضت الأم أن تسهر معه حتى عودة الوقع الرائع لندف الثلج. كما لم يستوعب لماذا لا تسمح له بإمساك شحمة أذنها عندما يريد النوم. ولكن عندما أرادت أن تمنعه عن الغناء أخذ يعول بصورة ينفطر لها القلب، حتى رضخت أخيراً وسمحت له بالغناء، ليلاً على الأقل.

لا بد لنا عند هذه النقطة من كشف سر الطفل، وإلا فإن سلوك زفين الغريب سيبقى غير قابل للتفسير. كان لإلياس صوت زجاجي، وهذه الكلمة صدرت عن عمه أوسكار آلدر عازف الأرغن ومعلم مدرسة إشبرغ، وطبياً ليس هناك تفسير لظاهرة هذا الصوت الغريب الفريد، فهي ناتجة عن الولادة؛ فعندما كان يحاول الكلام لم يصدر من فمه سوى صفير عالٍ. ولم يتمتع صوته بلحن خاص عند النطق، ولم يتبدل بل استمر في الصفير كصوت لا ينقطع. وهذا هو ما أصاب زف بالصقيع أثناء مراسم العماد، إذ ظن أن هذا الغلط سيبقى إلى الأبد. لكنه لم ينبس ببنت شفة حول الموضوع، ولا سيما أن فمه كان قليل الكلام بطبيعته.

وفي عصر ذاك اليوم، عندما تقابلت الشمس مع القمر، هرب إلياس ذو السنوات الخمس من حجرة الأطفال. كان هناك ثمه ما يناديه، وكان لا بد من أن ينزل.

لم يكن هناك من يرعى إلياس. وفي إشبرغ عموماً لم يكن هناك من يرعى الأطفال قط. وذات يوم أثناء عاصفة رهيبة، عندما غرق طفل آلدري في مياه نهر إمَّر البنية المندفعة بغزارة برأت أمه نفسها من المسؤولية بقولها إن كل طفل من الأطفال حتى الآن كان يجد طريقه بنفسه إلى الدار، ثم إن الرب قد حدد ساعة طفلها الصغير المسكين.

بعد أيام على مرور تلك العاصفة بدأ زف بجمع الأخشاب التي جرفها نهر إمَّر، وكان هذا من حق الفلاحين منذ مئات السنين، فما يستطيع الفلاح جمعه يعتبر ملكه، لأنه خشب حر. غير أن جمع الخشب كان سبباً دائماً للخلافات وللنزاعات الدموية، إذ قد يحطم عبث الطبيعة شجرة تنوب ثخينة من أرض غابة الجار، فيصر الآخر على اعتبارها من مجروفات النهر.

وبمناسبة تفريغ النهر من مجروفات الغابات كان يُسمح لإلياس بمرافقة أبيه. وهناك اكتشف الطفل ذلك المكان، وبالتحديد تلك الصخرة التي نحتتها وجلختها المياه والتي جذبته إليها بصورة ملغزة غريبة. وتنبّه زف حينها إلى أن الطفل عند رفعِ الرمال والأوحال كان يمسك أنفاسه ويهز رأسه يمنة ويسرة بعصبية، وكأنه يبذل جهداً كبيراً كي يسمع، ثم كان يصعد ويتسلق عبر الأحراش وكأن ثمة من يطارده، أو كأن قوة مجهولة ما تناديه. وبعد أن يكون قد مرَّر كل ما تطاله يداه على فمه وأذنيه كالوحل والحصى والجعران والسمادل والحشائش وأوراق الشجر المتعفنة، يناديه زف باسمه ليشعره بأنه

ليس وحيداً في هذه الأحراش، فيمتلئ الطفل رعباً ويبدأ بالبكاء بحدّة ولفترة طويلة لا يجد خلالها ما يمكن أن يهدئه، ولا يتحرك قيد أنملة من اللسان الحجري، مما كان يضطر زف لرفعه بالقوة وحشره تحت إبطه. اعتماداً على هذه الملاحظات بوسعنا الزعم بأن المعجزة لم تصب إلياس كصاعقة من السماء، وإنما ببطء، بل قد أعلنت عن نفسها بصورة إنسانية.

الصخرة نادت، وكان لا بد لإلياس من أن يلبي. تسلل نازلاً الدرج عابراً الفسحة أمام الدار إلى حظيرة البقر المشبعة بالبخار. ومن هناك سار على الدرب الذي لا يُرى من أية نافذة في الدار، ومع ذلك ركض المسافة الأولى إلى أن لم تعد الدار مرئية، فأطلق صفرة تعبيراً عن فرحه وتدحرج هابطاً الحقل حتى مجرى نهر الإمَّر. غير أن زف الموجود في الحقل المجاور لنشر الروث، رآه، رأى الإنسان كنقطة طائشة فوق بياض الحقل الشاسع، رآها كيف غابت في خط متعرج وراء حافة الغابة. ثبَّت زف مذراة الروث في الأرض المتجمدة، شكل يديه كقمع أمام فمه وأراد أن يطلق صيحة نداء لابنه، لكنه تخلى عن ذلك، إذ إنه لم يبغ إزعاج ابنه في وحدته السعيدة.

ألقى زف نظرة جامدة على ظل الغابة الذي غاب ابنه وراءه، ثم تناول المذراة ثانية ودفعها بقوة، بل بغضب في كومة الروث التي تصاعد منها الدخان، وهو يفكر: «اللعنة! هناك غلط ما في

هذا الصبي.» وتطاير الروث باتجاه المنحدر أبعد من كل الرميات السابقة.

وهكذا مشى الطفل العجيب خائضاً عبر أرض تجمد الضباب خلالها. تجول نحو نصف ساعة أو أكثر، التف متسلقاً بمهارة حول الشلال الأول ثم الثاني. وكان كثيراً ما يتوقف أثناء تجواله، لأنه لم يكن يشبع من الإنصات إلى ندف الثلج التي تتساقط عن الأغصان في كل مكان حوله. وبمرح مسترخ دفع إلياس مقدمة حذائه الجلدي الضخم في الثلج المتجمد الخشن الذي تناثر متشظياً إلى ألف نثرة مصدرة وسوسة وصرصرة بأصوات متنوعة لم يسمع إلياس مثيلاً لها في حياته. حتى صوت إيقاع ندف الثلج الرائع في تلك الليلة لم يعد شيئاً بالمقارنة مع هذا الحفل الموسيقي الهائل.

تابع إلياس الضرب بحذائه من دون توقف. شمّر بنطاله، رفع أنفه عالياً وشد قبعة اللباد الخاصة بأبيه عميقاً فوق وجهه، وكان قد استولى عليها ذات يوم ولم يعد يبتغي إعادتها. وفي الليالي الثقيلة كان يخرجها من فراشه المحشوّ بالأوراق والقش ويبقى يتشمم رائحتها حتى يهدأ ويرتاح. كان يتشمم فيها العرق البارد وشعر فروة الرأس ورائحة الدواب، فقد كان زف يلبس هذه القبعة أثناء عمله في الحظيرة.

كلما اقترب إلياس من الصخرة التي جلخها الماء ازداد اضطراب نبضات قلبه. كان ينتابه شعور بالتدريج وكأن خطواته، أنفاسه، وسوسة الثلج الخشن، أنين خشب الغابة، وهمسات المياه تحت جليد

الإمَّر، بل كل شيء من حوله يتضخم ويصدر إيقاعات أعلى صوتاً. وأخيراً عندما وصل إلياس إلى الصخرة وتسلق لسانها سمع هدير رعد ينطلق من قلبه. لا بد وأنه قد حدس بشيء مما هو قادم، إذ بدأ فجأة بالغناء. ثم حدثت المعجزة. في ذلك الوقت من بعد الظهر سمع ذو الخمس سنوات إيقاعات الكون.

عاوده الشعور بالبرد في رأسه فمد يديه إلى القبعة ليشدها أعمق على وجهه، فنشأ عن ذلك في أذنيه صوت كانفجار ضخم فارتد من الذعر إلى الخلف متدحرجاً من لسان الصخرة إلى الثلج وكان آخر ما رآه من الواقع هو خصلة شعر أشقر مدماة، وفي أثناء سقوطه تضاعف سمعه.

بدأ جسده الصغير بالتغير، جحظت عيناه من محجريهما، تدلتا فوق رموشه حتى ما تحت الحاجبين والتصق زغب حاجبيه بالشبكية الدامعة، وسال محتوى الحدقتين في جميع الاتجاهات مغطياً بياض القزحيتين كله. اختفى لونهما الطبيعي، الرمادي المخضر الكئيب، وحل مكانه اصفرار متوهج مقرف. تصلبت رقبة الطفل وانطمرت مؤخرة رأسه في الثلج القاسي بصورة مؤلمة، ثم انتصب عموده الفقري وانتفخ بطنه وأصبحت سرته قاسية مثل قرن، وأخذ الدم يقطر من جلد سرته الملتحم. أما منظر وجه الطفل فقد كان مرعباً، وكأن صرخات ألم البشر والكائنات كافة محفورة في ملامحه، فقد برز فكاه وانكمشت شفتاه إلى خطين نحيلين بلا لون، وأخذت أسنانه

تتساقط الواحد تلو الآخر؛ إذ تلاشت اللثة. والغريب أنه لم يختنق نتيجة ذلك. وعلى نحو خارق انتصب عضوه الصغير وانساب منه المني المبكر مع البول ودم السرة في خيط نحيل ودافئ على انحناءات حذائه. وفي أثناء ذلك كله طرد الطفل من جسده جميع الفضلات، من عرق وغائط، وبكميات كبيرة غير معتادة.

ما سمعه بعد ذلك كان الرعد الأسود الصادر من قلبه. رعدٌ اليوم، رعدٌ غداً، أي إن إحساسه بالزمن قد فُقد. لذلك لا يسعنا تحديد الزمن الفعلي الذي قضاه إلياس مستلقياً في الثلج. ربما بضع دقائق بمقياس البشر، كما سيتوضح لاحقاً من ظرف غريب.

تفتحت أمام سمعه جلبات وأصوات وإيقاعات وألحان لم يسمعها بمثل هذا الوضوح سابقاً. لم يكن إلياس يسمع فحسب، بل كان يرى عملية التصويت، رأى تكثف الهواء وتمدده المستمر.

رأى وديان الإيقاعات ورأى ذراها الشاهقة. رأى هديل دمه في عروقه وخشخشة خصلات الشعر في قبضتيه الصغيرتين. وكان عبور أنفاسه من فتحتي منخريه يشكل صفيراً معولاً لدرجة بدت معه ريح العاصفة أقرب إلى الحفيف. وكانت سوائل معدته تقرقر وتصطفق ببعضها بحدة. ومن أمعائه صدرت بقبقة بتنوع فريد، فكانت الغازات تتمدد فتئزّ أو تفرقع، وأخذت مادة عظامه ترتج متذبذبة، وحتى ماء عينيه ارتجف من قرع ضربات قلبه الداكنة.

وللمرة الثانية تضاعفت دائرة سمعه، انفجرت وتدلت في الوقت

نفسه كأذن هائلة على البقعة التي استلقى عليها، وأخذت تتلقى أصواتاً من عمق مئات الأميال ومن أماكن تبعد مئات الأميال، فانسحبت فوق كواليس أصوات جسده وبسرعة متزايدة سيناريوهات إيقاعات هائلة. سيناريوهات لا مثيل لروعتها ولإثارتها للرعب. إيقاعات أنواء، إيقاعات عواصف، إيقاعات بحار وإيقاعات صحارى.

وفجأة تعرف إلياس في خضم كتلة هذه الجلبات على نبض قلب أبيه، بيد أن قلب أبيه كان يخفق من دون إيقاع ومن دون انسجام وتطابق مع خفقان قلبه، لدرجة كادت تدفع بإلياس إلى اليأس، لو كان وقتها ممتلكاً كامل قواه الحسية.

انهمرت أمطار الإيقاعات والأصوات المتنوعة على أذني إلياس بكميات لا يمكن تصورها: فوضى مجنونة من مئات القلوب الخافقة، من تشظي عظامٍ، من غناء وأنين دماء عدد لا يحصى من العروق، من احتكاكات جافة لشفاه تنغلق على تكسر وتحطم ما بين الأسنان، من ضوضاء لا تصدق من أصوات البلع والقرقرة والسعال والتف والنف والتجشؤ، وبقبقة سوائل معوية هلامية وطرطشة بول صاخبة، من حفيف شعر الرأس إلى جانب حفيفٍ أشد صخباً لشعر ووبر الحيوانات، من كشط أقمشة على جلود بشرية، من غناء خفيف ناتج عن تبخر قطرات العرق، من اصطفاق عضلاتٍ وصراخ دماءٍ عندما تتوتر وتتصلب أعضاء حيوانات وبشر. ناهيك عن فوضى الأصوات البشرية وسائر الكائنات فوق الأرض وتحتها.

وتعمق امتصاص أذنه للصراخ كله وللهذر والسباب ولجميع أشكال الكلام والهمس والغناء والتأوه والزعيق والصياح والعويل والنحيب والنشيج والتنهيد والارتشاف والتمطق وحتى إلى الصمت المفاجئ حين لا تزال الحبال الصوتية تهتز بعنف من إيقاع الكلمات التي لفظت للتو. بل حتى دوي الأفكار نفسه وصل إلى سمع الطفل الذي استمرت دائرة سمعه في التوسع باطراد مع ازدياد تلون الإيقاعات التي يراها.

ثم بدأت الكونسرت التي فاقت كل وصف والمؤلفة من أصوات جميع الحيوانات وضوضائها ومن عوامل الطبيعة كلها ومن العدد اللا محدود من العازفين المنفردين فيها: الخوار والثغاء، الخنفرة والصهيل، صلصلة سلاسل الأرسن، لحس الأعنّة والأحجار المالحة، صفق الذيول، قبع الخنازير وتمرغها في الوحل، الضراط والنفخ، نقيق الدجاج وصياح الديكة، تغريد الطيور وخفق أجنحتها، القضم والنقر، النكش والنبش...

ورأى أعمق وأبعد، رأى حيوانات البحر، غناء الدلافين ونواح الحيتان الضخمة المحكومة بالموت وانسيابية أسراب السمك الهائلة وقطْر العوالق النباتية، ووضع بيض السمك، رأى دوي الفيضانات وتحطم جبال تحتمائية والهدير المتوهج لتيارات اللاقا وغناء المد والجزر والزبد، ووشيش آلاف أطنان الماء التي تبخرها الشمس، وتهامس وتقعقع وتمزق جوقات هائلة من السحب، وصوت

النور... ما هي الكلمات!

ثمة صوت أخير لا بد من ذكره، صوت ذو شكل مُخرَّم ناعم بحيث كان يفترض أن يضيع في معمعة الصخب الكوني، لكنه بقي ولم يندثر. كان آتياً من إشبرغ. كان خفق قلب طري لطفل لم يولد بعد، لجنين أنثوي. نسي إلياس ما سمع وما رأى، أما صوت قلب الجنين فإنه لم يعد ينساه، فقد كان خفق قلب ذلك الإنسان المقدَّر له منذ الأزل، إنه قلب حبيبته. وإنه لأمر لا يصدق أن ينجو إلياس من العنف الذي تعرض إليه، وما لا يصدق أيضاً هو أنه لم يجن.

بحسب تقدير البشر كان يفترض بهذا الطفل أن يصاب بالصمم من فوره. ولهذا فإنه لأمر خارق للعادة ألاّ يصاب سمعه بأدنى أذى، ولن نجد على كل حال في المستقبل أية مؤشرات تدل على ذلك. فالرب، كما بدا، لم يكن قد انتهى منه بعد، وما زال أمامه وقت طويل لذلك، بعد تجربة السمع المروعة تراجعت تشوهات جسم الطفل. عادت مقلتاه إلى حجمهما الأصلي واستوى عموده الفقري وارتخت تشنجات أعضائه، كما تقلص فكّاه اللذان برزا بصورة مريعة.

بيد أن الاصفرار المتوهج لحدقتيه لم يرجع إلى الاخضرار الرمادي الكئيب. كان قد فقد الكثير من شعر مؤخرة رأسه، إضافة إلى أسنانه جميعها. لكن هذا العيب لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما نبتت له أسنان جديدة، نمت في فمه على نحو مبكر جداً. وإلى جانب اصفرار

حدقتيه الشبحي ظهرت عليه تغيرات ليست أقل شبحية.

تبدل صوته الزجاجي الأقرع، فتضخم ونما من حيث الاتساع والحجم بالسوية نفسها، إذ تطور جهاز الطفل إلى صوت جهير (باص) متكامل. وقد لفت هذا الصوت الغريب الأنظار في القرية، بصورة دفعت أبويه، نتيجة الخجل الشديد، لاتخاذ قرار بحجز الطفل في حجرته والتعامل معه مستقبلاً كما مع مصاب بالصرع. وتجلى التغير الآخر بظهور زغب شعر ناعم عند السالفين وفوق الشفة العليا وعلى الذقن وتحت إبطيه وعند عانته، فدخل جسم إلياس آلدر في طور المراهقة.

وما لا يمكن تفسيره أيضاً هو كيفية وصول الطفل إلى الدار. وأول من رآه كانت هاينتسين (زوجة هاينتس) التي جاءت بعد ظهر ذلك اليوم من ديسمبر إلى الدار لتثرثر قليلاً مع زفين. كان المطبخ ممتلئاً ببخار العصيدة التي كانت زفين تحضرها لطعام العشاء. كانت واقفة إلى جانب الموقد تحرك العصيدة بالمغرفة، وقالت: «لا شك بأن لعنة الله قد أصابت هذا الصبي».

وأن هذا يتوضح لها يوماً بعد يوم. هزت هاينتسين رأسها الضخم موافقة ومسحت بملل البخار عن زجاج النافذة بيدها المصابة بالتهاب المفاصل. وأردفت زفين قائلة إنها قد حدست فوراً بشيء ما غير طبيعي عندما أنجبت الطفل، لكنها ظنت أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد وساوس.

فجأة صرخت هاينتسين بأعلى صوتها: «يا ربي ويا سيدي! الولد العاري، الولد العاري ملقى على الثلج في الخارج!» انزلقت المقلاة على الأرض مصلصلة، انفتح الباب بقوة، بقيت فردة حذاء خشبي على العتبة. تعثرت زفين بالثلج وهي تنزل الدرجات، أحاطت ابنها بذراعين مرعوبتين وضمته إلى جسمها بقوة حتى أنه لم يعد قادراً على التنفس.

حملته وعادت به إلى المطبخ ووضعته على الطاولة الخشبية اللامعة كي تلبسه. عندما رأت المرأتان إلياس مستلقياً هناك، احمر وجهاهما خجلاً، إذ انتبهتا إلى أن قضيبه الصغير كان منتصباً. اندفعت زفين مرعوبة نحو طشت الغسيل، تناولت منه قماطاً، فتلت الصبي بأقصى سرعة لتبعده عن نظرة هاينتسين الزجاجية، وأرادت أن تلفه بالقماط لكنها خلال ذلك ضغطت قضيبه بشدة بعيداً عن بطنه، حتى صرخ إلياس كالمجنون من الألم.

«يا ربي ويا سيدي! ما هذا الصوت! مثل جئير الوعل!» قالت هاينتسين هذا وهي ترسم الصليب وتنسحب بهلع. لكنها لم تغادر الدار طبعاً قبل أن تقسم بكل المقدسات ألاّ تفتح فمها ببنت شفة لأي كان حول الحادث. وكانت النتيجة أن الجميع يوم الأحد كانوا ينظرون بأطراف أعينهم بفضول نحو زف وزفين. وقد سرحت أفكار بعضهن إلى حد الفخار بأنهن قد أنجبن لأزواجهن أطفالاً بلهاء مشوهين، هذا صحيح، ولكن ليس شيطاناً بعينين

صفراوين مثل بول البقرة.

ثمة امرأة أخرى، وهي نولفين التي كانت في شهرها الخامس، وضعت كتيب الصلوات على بطنها ونذرت مُقسمةً لأم الرب، ما إذا جاء مولودها سليماً جسداً وروحاً أن تضع باقة ورد كل شهر عند مذبح السيدة العذراء، طالما بقي اسمها، فرجينا آلدر، في عداد الأحياء.

لامت زفين نفسها بمرارة لاحقاً واتهمت نفسها صراحة أمام زوجها بأنها قد عميت عن رؤية هذه العلامة الفاحشة في جسم الصبي عندما كان ملقى في الثلج. فلو أنها انتبهت إليها لما علم أحد بشيء أبداً، ثم إن شعره وأسنانه قد نبتت مجدداً. ولكن لا فائدة، لقد صار إلياس لغز إشبرغ الذي يلوكه كل لسان.

لم ينم زف وامرأته أثناء الليالي الأولى في حجرتهما، وإنما على القش في مخزن الحبوب، ووضعا فريتس بينهما.

في تلك الفترة كانت زفين تبقى يقظة حتى الفجر وفي رأسها تصطرع الأفكار حول الطفل الممسوس. وعندما نوهت إلى زف بأنه من المحتمل أن تسقط عارضة من السقف المتعفن على رأس الصبي مصادفة، أو أن سوء الطالع قد يصيبهم فيغرق الصبي في نهر الإمر، أو قد تنطحه بقرة هائجة بقرنيها حتى الموت، عندها سدد زف إلى فمها الملعون لكمة كانت من القوة بحيث تأرجح فكها السفلي، مما أدى منذئذ وبصورة حتمية إلى عدم الخوض في

أي حديث يتعلق بالصبي.

وعندما استعادت زفين القدرة على الكلام كانت قد زهقت من الحياة، بيد أنها لم تفقد الأمل في تحسن الأوضاع، وهذا هو ما سنحكي عنه في الفصل القادم.

زمن الحجرة

بعد أن مَنَّ الله على إلياس بموهبة السمع الخارق، هدأت الأمور في نفس الفتى، لكنها لم تهدأ من حوله. لهذا خبأه أهله، خوفاً من تدخل العالم الخارجي، تحت ضغط اللكمات والصفعات وضربات العصا في حجرته التي لا يسمح له بمغادرتها من دون إذن.

وفجأة دبت الحياة في دار زف التي كانت في السابق هادئة، فقد أحس جميع الأقارب – وهم تقريباً الإشبرغيون كلهم – مرة واحدة بأنه قد حان الوقت أخيراً لزيارة عائلة زف. ودخلوا الدار متذرعين بأغرب الأعذار، مبدين اهتماماً مفتعلاً بأحوال الدواب والدواجن، امتدحوا بإلحاح نظافة الحظيرة وأن البقرات لا تستلقي فوق روثها، تشمموا مسرورين التبن الذي بدا جافاً بصورة تلفت الانتباه، احتسوا كميات من نبيذ الفاكهة الطازج، امتدحوا مطبخ زفين النظيف على نحو استثنائي وسألوا جميعهم أخيراً عن صحة الصغير العزيز والمسكين. كانوا يأملون من وراء ذلك رؤية المجنون المشوه بأم أعينهم، لكن زف وامرأته كانا يجيبان برتابة: «الولد مريض، مصاب بالحمى البقعاء.»

لاحظ بعض الزوار فيما بعد أن نبيذ الفواكه الطازج ذا النكهة القوية لم يعد يُقدم على المائدة، وأن الصبي قد تجاوز مدة الحمى القرمزية المعروفة كثيراً. وأخيراً عندما وضع فولف آلدر، العدو

اللدود، قدمه على عتبة الدار، نفد صبر زف، فحمل أخاه من كتفيه ومرَّغه في حفرة في الثلج. لم يستطع أحد أن يرى الصبي. وقد دفع هذا بحفنة من أطفال إشبرغ – إذ حرضتهم تخمينات الكبار الغامضة – إلى التسلل نحو الدار الملعونة عملاً بتعاليم المسيحية. وكانوا قد استطلعوا سابقاً مكان نافذة حجرة الصبي، فتوجهوا إليها وأخذوا يسخرون من إلياس بسبب عينيه الصفراوين كبول البقر، ويطالبونه بالظهور لهم على النافذة ليسمعهم فنه الصوتي. كان إلياس قد سمع جلبتهم منذ أن غادروا دار الخوري متبخترين نحو داره. سحب غطاء الفراش فوق رأسه، وأراد أن ينتظر صامتاً حتى ينتهي هذا الهرج. وعلى الرغم من ضغطه يديه على أذنيه، لم يستفد شيئاً. وعندما لم ينته سيل الشتائم وسمع أحدهم ينعته بالشيطان الأصفر فإنه لم يعد يحتمل. قفز إلى النافذة، فتحها بقوة وأطلق فوق رؤوسهم صرخة جعلتهم يولولون هلعاً وهم يتراكضون. وحتى بعد مرور أيام كثيرة بقي الأطفال يعولون تحت تأثير ظهور البول الأصفر لهم حقاً وحقيقة.

لكن طفلاً واحداً بقي واقفاً تحت النافذة بهدوء. كان اسمه بيتر إلياس، وهو ابن نولف آلدر. لقد مر معنا سابقاً في مراسم العماد المشترك مع إلياسنا. بقي بيتر واقفاً هناك ولم يحرك ساكناً، لا لأنه كان تحت تأثير الصدمة، أبداً، بل بقي نتيجة الانجذاب المفاجىء والبارد إلى ما هو مختلف ومغاير. إضافة إلى أنه قد سمع كيف انفجر الصبي

هناك في الأعلى ببكاء صارخ. كان إلياس يبكي متفجعاً في ذلك المساء الربيعي لدرجة أن حشائش الحقل قد تمايلت حزناً وأن حفيف أشجار الغابة القريبة سُمع في اقترابه كالنحيب. بيد أن بيتر لم يتأثر أبداً، بل وقف فاتحاً فمه، وعيناه تغوصان ببرود في ذلك الواقف في النافذة. ومنذ ذلك اليوم حاول بيتر كسب صداقة إلياس. فصار في البداية يقف كل مساء تحت نافذة الحجرة، ثم قلّ تردده ولكن بإصرار مستمر. لم يكن بحاجة لأن يصفر أو يقلد صوت البوم كي ينبّه إلياس إلى وجوده، فقد كان هذا بانتظاره.

يجوز لنا أن نزعم بأن بيتر هو الإنسان الوحيد في حياة إلياس الذي أدرك عبقريته، وحدس بأنه قد وُهِب شيئاً عظيماً. ولأنه لم يستطع التخلص من هذه الفكرة طوال حياته فقد تاق إلى إخضاع إلياس لإرادته.

وكان إلياس يطيع صديقه بلا إرادة ذاتية تقريباً، طاعة نابعة من امتنانٍ ساذج للإنسان الذي وقف إلى جانبه في أشد ساعات حياته مرارة. لقد أحب إلياس بيتر.

خلال ذلك الوقت تخلت زفين عن كل ما من شأنه المساعدة في تطوير قدرات الصبي المبكر في نموه، فلم تتكلم معه، وكانت تضع له صحن الحساء أمام باب الحجرة مثلما يضع المرء الحليب لقطة، كما تجنبت في البداية أي تلامس بينهما خوف أن تصيبها عدوى الحمى الصفراء من عينيه. الحنان أو ما يشبه ذلك من كلمات لم يكن معروفاً

لديها أو لدى معظم نساء إشبرغ. وبالتدريج تراجع اهتمامها بنظافته، مما أدى أخيراً إلى اتساخه وإصابته بالقمل. كانت تحمم طفليها عادة كل يوم سبت، وكان حلمها في صباها أن تقدم صغارها في قادم الأيام أمام رعية الكنيسة بأنوف لماعة وياقات في منتهى النظافة. أما الآن فباتت تنكر حتى أنها حلمت بذلك يوماً. لقد أهملت كل شيء وصارت خشنة، ووصفُ مطبخها بأنه كان نظيفاً بصورة استثنائية لم يعد ساري المفعول.

لكنها مرت بفترة راودها فيها الأمل، فاستجمعت قواها لتخرج من حالة جمودها وفقدانها الإحساس بالحياة وعادت فغنّت أغنيات صباها. غير أن الأمل لم يدم أكثر من بضعة أيام. وكانت هاينتسين - زوجة شماس الكنيسة الأعمى - هي التي نفخت في نفسها روح الأمل، إذ نصحتها بمعالجة الصبي بمختلف الطرق مثل الكمادات الباردة واستنشاق بخار نباتات معينة واللصقات. وقد خطرت ببالها هذه الفكرة - قالت ذلك لاهثة - وهي ترمش بعينيها ذات صباح أخضر من شهر أيار/مايو، لترى أن الاخضرار منتشر في كل مكان، ولا بد من أن يكون ممكناً استعادة بعض هذا الاخضرار لإلياس، وأنها تعرف طريقة تحقيق ذلك.

كانت المحاولة الأولى بأوراق نبتة الهندباء البرية، بترطيبها باللعاب وإلصاقها من ثم على جفني الصبي المغمضين. لم يُسمح لإلياس يومها بأن يتحرك قيد أنملة طوال بعد الظهر. ومساءً أزيلت الأوراق المرتخية

مع توقع الحصول على اخضرار الهندباء البرية الرائعة في الحدقتين. كانت الشمعة هي الوحيدة التي أضاءت بحسدٍ ذلك الاصفرار الذي جعل صفرتها الخاصة تخبو وتبهت.

في اليوم التالي بدئ بالعمل باكراً، فمضى نصف فترة ما قبل الظهر في الحقول والمراعي، فجُمع ما يملأ مريلتين من الأعشاب وكل ما يمتاز باخضرار حقيقي، حتى ثمار الشربين اليانعة والتي يُحضرُ منها نوع من العسل عادة، قطفتها المرأتان النشيطتان. وكانت نصيحة هاينتسين المحاولة بثمار الشربين أولاً، غير أن نتيجة سلق الثمار طويلاً وقطر الماء على رموش العينين كانت إصابة إلياس بسُموط فادحة. ولكن ما إن تعافى المسكين حتى اخترعت هاينتسين طريقة جديدة لجلب الاخضرار إلى الحدقتين.

جاءتها الفكرة وهي خالية البال تحشّ الحشائش مساءً لدوابها، فقالت لنفسها، بما أن المسألة تتعلق بمرض داخلي، فبوسع المرء – يا ربي وسيدي لماذا لم تخطر ببالي هذه الفكرة إلا الآن – أن يعالجه من الداخل أيضاً. فتناولت صحن حساء وبشرت فيه قطعة من لحاء البتولا وقطعة من لحاء الزان الأبيض وخلطت معه أوراق السوس وإبر الشربين وأوراق الغار والنيلوفر، وقطرت فيها ملعقتين من أول حليب لبقرة حديثة الولادة. كانت النتيجة هذه المرة تقلصات معدية طوال الليل. وعندما حاولت المرأتان تجريب علاج جديد عليه طردهما الفتى خارج الحجرة بصيحة عالية وشريرة. فلم تنجح

هاينتسين في جعل الأخضر الرمادي الكئيب يضيء عيني إلياس، ولم تعد تزور صديقتها إلا فيما ندر، وكان عذرها الذي قدمته أن بقراتها تلد الواحدة تلو الأخرى في الآونة الأخيرة، إضافة إلى الأشغال الكثيرة الأخرى في دارها.

بقي إلياس طوال شتاءين محجوزاً في حجرته. كان پيتر يأتي بين الحين والآخر، يقف صامتاً تحت النافذة، يحدق فيها ثم يذهب. ولم يتمكن نولف من منعه عن هذه الزيارات، ولا حتى عندما يدميه ضرباً. فقد كان پيتر يأتي، يصمت، ويذهب. لم يتبادل الصبيّان مع بعضهما أكثر من بضع كلمات، إلا أن إخلاص پيتر الصلب أدى إلى كسب ثقة إلياس.

وجاء الأحد الأبيض (ما بعد الفصح). وكان يفترض بإلياس أن يكون قد تناول القربان منذ السنة الماضية، بيد أن والدته تمكنت من الوصول إلى تأجيل لدى الخوري. والآن كذبت زفين مدعية أن الصبي قد أصيب فجأة بمرض مؤلم في أطرافه وأنه يعاني حالياً ضيقاً في الصدر غريباً ومترافقاً مع صداع رهيب، ولذلك لا بد من تأجيل تناول القربان سنة أخرى. لكن الخوري فريدولين بويرلاين ما عاد يصدق هذا الكلام، ودخل دار زف آلدر حاسماً أمره.

كان الخوري بويرلاين إنساناً طيب القلب، نحيلاً وذا أنف بالغ الطول. بدأ الخوري بمحاولة إقناع هادئة، وعندما لم ينجح في جعل الزوجين يوافقان على إرسال إلياس لتناول القربان، اضطر

الخوري إلى استخدام كلمات قاسية لم يعتدها وبدأ بلوم الوالدين على عنادهما الحيواني بحدة متناهية. لكن زف وامرأته بقيا راكبين رأسيهما. وفقط عندما أورد الخوري كل ما يخطر بالبال من عذابات جهنم عقاباً على هذه الخطيئة القاتلة رضخ زف، أما امرأته فلا. وقالت معاندة إن الأمر سيان بالنسبة إليها حتى إنْ كانوا سيشَكّونها في جهنم على رمح ويتركونها هناك لتُصلى العذاب، فالصبي لن يذهب لتناول القربان.

من دون أن ندخل في تفاصيل مجرى تناول القربان (مِنْ بحلقةٍ ومدِّ رقبةٍ وخرسِ رعية الكنيسةِ المفاجئ عندما بدأ الطفل الغناء بصوته الجهير) نود أن نسجل مع ذلك أنه لم يسبق لمتناولِ قربانٍ أن أدخل الطفل يسوع إلى صميم قلبه بمثل تُقى ونقاء إلياس آلدر. وعندما أقيمت المأدبة بعد ذلك في مطعم ڤايدْمَن كان الصبي قد اختفى مجدداً. أما في ما يخص المستقبل فقد قررت زفين أن بإمكانه حضور القداس، على أن يدخل إلى الكنيسة بعد نشيد الابتهال الثاني، ويغادرها ثانية قبل بدء الخوري بتوزيع البركات. وحددت مكان جلوسه في آخر مقعد في الجانب الأيمن، هناك حيث اعتاد ماضغو التنباك العجائز أخذ غفوة الأحد.

سنركز أنظارنا مجدداً على أم بطلنا، التي قلنا عنها إنها قد يئست من الحياة بسبب ابنها غير الطبيعي، وسنؤكد زعمنا هذا بحادثة وقعت في العام نفسه أثناء عيد الثالوث الأقدس (الأحد

الذي يلي العنصرة).

بمناسبة العيد كان يقام مهرجان كنسي ينتهي غالباً بمشادات صاخبة وتبادل الشتائم، ولا يخلو من اشتباكات دموية، وهو اليوم الوحيد خلال السنة الذي يلتقي فيه جميع الفلاحين في مكان واحد، هو البستان المجاور للكنيسة الصغيرة، وليس من يوم آخر في السنة يسكر فيه الناس ويعربدون كما في يوم المهرجان هذا، إذ كان مشروب الكرز الكحولي يقدم فيه مجاناً.

بدأ العيد بقداس غنائي في الهواء الطلق. وقد أحيطت منطقة المذبح من عمارة الكنيسة بسجادة من الزهور المنسقة بحب، من الأزهار اللؤلؤية والهندباء البرية، بحيث كُتبت بها الكلمات الثلاث «السلام عليك يا ماريا». ولكن خلال الليل تجولت بقرة في بستان الكرز وخلفت وراءها روثها الطازج الرطب فوق حرف الراء، الأمر الذي كدَّر الخوري وأحزنه وهو خادم الرب المريمي المخلص وعضو رابطة «قلب مريم» الكنسية في شبابه.

حاول الخوري ما وسعه إعادة حرف الراء إلى ما كان عليه، غير أن مساعديه تشمموا الرائحة وأبعدوا أنوفهم عن يديه بشيء من الخشوع الظاهري أثناء مناولة الماء. وعلى الرغم من كل شيء كان القداس الغنائي بالغ التأثير. وعند المباركة الاحتفالية من وعاء القربان الفاخر صدح الفلاحون جوقيّاً بترتيلة مديح الرب وكأنهم يغنون إحدى أغاني السكر في الحانة.

بعد القداس الغنائي بدأ العيد الفعلي. كان معلم القرية قد درّب الأطفال على قصيدة مطولة في مديح آل القيصر، نظم أبياتها رجل سيرد اسمه كثيراً فيما بعد، ويلقب بـ ميشيل الفحّام، وقد اكتسب هذا اللقب لأنه هو الذي أضرم النار في حفرة الفحم في الحقل العتيق. سُمح لكل طفل بتلاوة بيتين من القصيدة البالغة الطول وتجسيد فحواهما في مشهد تمثيلي حي، بمن فيهم إلياس أيضاً. وعندما جاء دوره لوى كثيرون قسمات وجوههم بتأثير الكحول، مما أدى إلى تصعيد الإثارة بضع درجات.

تقدم الصبي أمام الجمهور متوجاً بإكليل صغير من زهور المارغريت وبدأ الإلقاء. وعندما صدح صوته الجهير الدافئ بأسلوب مسرحي انفجر جمع الفلاحين بضحك صاخب هادر وصل صداه حتى غوتسبرغ. لم ينطق إلياس بعدها حرفاً واحداً، بل حدق بعينين مفتوحتين عن آخرهما في الحشد الصاخب الذي بحلق بدوره في صفرة حدقتيه الوهّاجة. وفجأة ضاق تنفس زفين وتهاوت أمام الحشد. أما إلياس فقد بقي مزروعاً في مكانه إلى أن أنزله معلم القرية أخيراً عن المنصة الخشبية.

ولم تهدأ الجلبة الفوضوية - بعض متصنعي الوجاهة كانوا يصيحون: ما صار، أعِد! ما صار، أعِد! - حتى صعد المنصة بالع النار الأشهر سينيور فوكو. خلال ألعاب سينيور فوكو النارية تذكر البعض مازحاً يوم أحد الكبريت عام 1800 وأشاروا ضاحكين إلى

بوابة الكنيسة ذات الدرفتين الموشاة بالمعادن مرتين وذات الاثنتي عشرة زاوية الملبسة بالحديد، وإلى هاينتس لامبارتر الأعمى الذي فقد حينها نور عينيه، وتأسفوا بصوت عالٍ على أيام زمان. فمنذ موت الخوري بِنْتْسَر خمدت الحياة في إشبرغ. تنهدوا وتلمَّست يد كل منهم طريقها بصبر إلى كأسه.

في المرحلة التالية تراجعت حالة آغاتهِ آلدر (زفين) بصورة مرعبة. لم تعد تغتسل، ولم تطبخ طوال أسابيع سوى عصيدة الحبوب، تلتهمها وتحشو ما تبقى وبردَ في فمها لاحقاً حتى صارت بدينة وبيضاء الوجه كشحم الخنزير. لم تعد ترغب في مضاجعة زف، وعندما صارت «بدينة مثل خنزيرة حامل» – جاء هذا الوصف على لسان صديقتها الوحيدة – لم يعد زف من ناحيته قادراً على حبها، علماً بأنها لم تتجاوز السادسة والعشرين من عمرها بعد.

ثم غرقت في ممارسة طقوس مبهمة، إذ صارت تتجول ليلاً عبر إشبرغ وهي تبتهل وتغني وتوقد شموعاً للحيوانات الليلية المشوهة، تمرغ نفسها عارية في أعشاب الخريف تاركة الخنافس تتسلق بطنها، ثم حشت عانتَها بالطين وسلخت قطعة لحم من خدها الأيسر، حملتها على وسادة باحتفالية إلى الكنيسة وبسطت رفاتها على مذبح القديس يوسيبيوس الذي يقال إنه قد حمل أيضاً قطعة من لحمه من جبل بريزن صعوداً إلى جبل فِكتور، بيد أن ما فعله دل على عبقرية كبيرة: إذ إن ما حمله كان رأسه الذي قطعه مرتكبو الأفعال المشينة

بحق يوم الأحد.

أمضت زفين الساعة تلو الأخرى راكعة عند المذبح وهي تكرر سؤالها الأبدي، لماذا ابتلاها الرب بمثل هذا الطفل؟ فلو أنه منحها طفلاً أهبل – وقصدت بذلك متخلف العقل مشوه الخلقة – لما لفت الأنظار في القرية.

ما يؤسف له هو أن أمنيتها الوخيمة هذه بالذات قد تحققت في طفلها الثالث، بعد أن كانت قد تجاوزت أحزانها وجددت رغبتها في الحياة. ومهما كان وقع الأمر قاسياً، غير أن جنون الأم المؤقت كان بداية الحياة بالنسبة لإلياس، إذ أُطلق سراحه، والأفضل هو أن نقول إنه تحرر. ففي دار آل آلدر صار كل شيء سيّان.

ولكن ما الذي فعله زف الذي كان تعاطفه وحبه بالغ الضرورة لذويه. فقد حدث أن ارتمى إلياس على صدره باكياً بحرقة، غير قادر على نطق كلمة، آملاً أن يعانقه والده وأن يواسيه صامتاً.

لكن زف سكت.

وماذا عن أخيه فريتْس؟ إننا نعترف صراحة بأنه لا يهمنا، فقد أمضى حياته كلها من دون أن تكون له أية أهمية، لدرجة أننا نفضل حجبه عن القارئ كلياً، إذ كان من ذاك النمط من الناس المعاصرين آنذاك الذي لا يهشّ ولا ينش. وواقع الأمر هو أنه لم يصلنا عن لسان فريتس آلدر أية كلمة، إطلاقاً. ولو وجدت لما كانت محط اهتمامنا.

كانت صورة مرحلة فتوة بطلنا قاتمة. ومع ذلك كانت هناك لحظات سعادة حقيقية، لا يجوز أن نخفيها عن القارئ، انطلاقاً من موقف النزاهة. وسنروي الحكاية الأخيرة التالية قبل أن نعود إلى ربيع عام 1808، إلى الصبي ذي الخمس سنوات.

حدث ذلك قبل ظهر أحد أيام أبريل، وكان ماطراً. كان الوقت ظهراً تقريباً عندما كان إلياس واقفاً على نافذة حجرته يراقب امرأة غريبة تصعد درب القرية وهي تلهث. وعندما رأى الحقيبة الجلدية الحمراء وحزامها الذي تنكبته على كتفها عرف فوراً أنها القابلة. فتح إلياس النافذة، إذ أراد أن يعرف وجهة المرأة. كانت قد غابت عن مجال رؤيته، فمد جذعه من النافذة بصورة خطيرة كي يتمكن من رؤيتها، ثم رآها تدلف إلى دار نولف آلدر. بعد نحو نصف ساعة، وكان حينها مستلقياً على فراشه هاجمه ألم حاد في رأسه وفي قلبه وانقطع نفَسه فجأة.

«يا ربي، يا ربي، ما الذي يجري؟» دوَّم السؤال في دماغه الصغير. «ما هذا؟» وتسارع خفق قلبه، ثم صرخ من أعماق حنجرته «ما هذا؟ ما هذا؟» وضحك وبكى في الوقت نفسه، قفز خائفاً وأخذ يرجّ باب الحجرة المقفل ويخبط بقبضتيه ألواح الجدار الخشبية ذات الطلاء البني الباهت. ثم اخترق زجاج النافذة برأسه وصرخ باتجاه الغابة التي يسيل وراءها نهر الإمَّر، صرخ: «لا تتوقفي! لا تتوقفي!».

فِرجينا آلدر أنجبت لزوجها طفلة، سليمة جسماً وروحاً. وتقرر أن

يكون اسم عمادها إلْزْبِت. ومنذ هذا اليوم وُجِدت في المذبح الجانبي لأم الرب باقة ورود برية رائعة. ولا يذكر أحد أن رأى هذه الباقة ذابلة، في أي وقت من الأوقات. بكى إلياس من الفرح، واحتفل. احتفل بجسمه وروحه، فقد سمع نبضاً رائعاً، وقد جعله وقع هذا النبض يشعر وكأنه يرى الجنة.

«لا تتوقفي!» صاح الطفل منتحباً بهدوء باتجاه طرف الغابة، هناك في الأسفل، من حيث تناهى إليه الخفق أول مرة.

كان ذلك خفق قلب إلزبت. كان صوت الحب.

الصوت والحيوانات والأرغن

عاش عشر سنوات ونضج ليصبح رجلاً. صار شعره خفيفاً وبدأت الصلعة تشق طريقها عند زاويتي جبهته. ولأنه أراد أن يبدو مثل جميع الفتيان في عمره أحرق زغب لحيته بشمعة مشتعلة ظناً منه أن اللحية لن تنمو من جديد. وقد أدت تلك التجربة الهائلة عند مجرى الإمَّر إلى اضطراب عملية نموه الجسدي، إذ صار له مظهر رجل وصوته، لكنه بقي بحجم طفل في العاشرة من عمره. أراد أن يكون طفلاً، وأن يتكلم كطفل. أما فيما يتعلق بمظهره الخارجي فقد بلغت أسماعه أمور لم يستطع عقله أن يستوعبها.

وكونه بقي نقياً في خضم قذارة تكهنات القرية وأكاذيبها وافتراءاتها فبفضل جوهر قلبه فحسب، لقد كان طيباً وامتلك القدرة على الأمل.

لكن الفرادة تصبح أمراً عادياً مألوفاً عندما تُرى كل يوم، وهكذا سرعان ما اعتاد الناس منظر هذا الرجل الطفل. وفي غرفة المدرسة لم يلفت النظر وجود إنسان ضئيل بعينين صفراوين مضيئتين بين رؤوس مصابة بالاستسقاء ووجوه مصابة بالجدري ومنغوليين ومشوهين نتيجة زواج الأقارب. في ذلك الوقت لاحظ معلم القرية أوسكار آلدر مدى نحول وبؤس ولدي زف وزفين. كان وجهاهما الصغيران ضامرين وذقناهما مدببتين، وقد تشكلت تحت عيونهما

حلقات سوداء مزرقة.

فمنذ أكثر من سنة لم تطبخ زفين شيئاً سوى عصيدة حبوبها المائعة التي لا طعم لها ولا رائحة. ولهذا أمر أوسكار آلدر الصبيين بتناول الطعام لدى الأقارب. وعندما عادت زفين إلى رشدها استعاد الصبيّان عافيتهما.

وحدث أن كثيراً من النساء بتن ينظرن إلى إلياس بعيون شبقة، ما عدن يحدجن حدقتيه الصفراوين بنظراتهن، بل ذلك المكان حيث يوجد قضيبه المتطور على نحو مفرط. لم يفهم إلياس مغزى كلماتهن الملتهبة ولم يفهم شدة خفقان قلوبهن بين أثدائهن. وحاول تجنب هاته النسوة مستقبلاً. ولكن ثمة امرأة بينهن بذلت جهداً واضحاً للوصول إلى هذا الرجل الصغير. اسمها بورغا وتسكن وحدها، وكان خطيبها قد قتل في اشتباك مع الفرنسيين. كانت بورغا تحب الناس والحياة، ولهذا جعلوا منها عاهرة القرية، وصارت سمعتها رديئة لأنها لا تشارك في قداس الأحد. بيد أنها كانت ترغب في الذهاب إلى القداس لولا أنها كانت ستضطر هناك للركوع عند المقعد الأول، مقعد العازبات. وكان هذا المقعد معزولاً عن بقية مقاعد النساء في الكنيسة، فهو بمثابة مقعد التشنيع، مؤلف من لوح للجلوس من دون مسند للظهر، وكان على جميع الفتيات والنساء اللواتي أنجبن أطفالاً غير شرعيين أن يركعن هناك، خلاف بورغا التي تجهض أجنتها، وكان الأمر معروفاً في القرية كلها.

في ذلك الوقت قرر إلياس عدم النطق بأية كلمة بصوتٍ عالٍ علناً، فتجربة عيد الثالوث الأقدس ما زالت تلاحقه حتى أعماق أحلامه، فبدأ يكره نفسه وصوته الجهير. ولكن عندما كان يضطر إلى الكلام في المدرسة في دروس الديانة المسيحية، فقد كان يتكلم من دون لحن صوتي بل ويهمس همساً، وكأنه يعاني من بحة دائمة. وطريقة النطق هذه كانت تجهده كثيراً فيصاب بالصداع، ولهذا بات نادر الكلام.

وللخروج من أزمته نزل ذات يوم نحو نهر الإمَّر، وكان يعرف أن لا أحد يمكن أن يسمعه هناك. ومثلما جلخت المياه صخرته المفضلة أخذ الآن يجلخ صوته.

في البداية أخذ يصرخ لساعاتٍ كل ما كان قد كتمه في داخله. ظل يصرخ حتى حدود الإجهاد، إذ اعتقد أنه بهذه الطريقة سيخلِّص صوته من وقعه الجهير، وتبقى في النهاية طبقة السوبرانو الجلية المناسبة لصبي. لكنه أخطأ، فما تبقى كان البحة فقط. فأخذ يبكي تاركاً ساقيه من دون حراك في الماء وحدق بجمود نحو الشلال في الأعلى. حدق بجمود في كميات المياه البيضاء الهادرة، في جبل المياه المتساقط بلا نهاية.

ذات مساء من شهر يونيو، قبل يومين من بلوغه الحادية عشرة من عمره كان جالساً مجدداً على صخرته مكتئباً وهو ينظر إلى الشلال، وفجأة لمعت في ذهنه فكرة، اكتشف معها أن الماء دائماً يسقط من الأعلى إلى الأسفل وأن الحجر كذلك يسقط نحو الأسفل وليس نحو

أعلى الجبل، وكذلك قطرات المطر، وحتى زهرة الحشائش عندما تذبل تميل مع الوقت نحو الأرض. لقد اكتشف قانون الجاذبية. وبناء على ذلك حاول أن يُخضع صوته لهذا النظام، بأن يجعله ينزلق من الأعلى نحو الأسفل، ومن القاع إلى رأسه. وبعد بضع ساعات صار بوسعه التكلم بصوت الرأس.

وعندها حدث أمر فريد من نوعه: كان منشغلاً لتوه بدفع صوت الرأس إلى أعلى طبقة عندما خرج من الدغل ثعلب صغير ونظر في وجهه بوقاحة، رفع خطمه في الهواء وقفز قفزة واحدة ليقف عند قدميه. فزع إلياس بشدة، وفزع معه الثعلب الصغير الذي شاهده يختفي بين الشجيرات بذيله البني المحمر. لكنه عاد مجدداً ووقف على مسافة تدل على شعوره بالإهانة. ودبت الحياة هائجةً في الشقوق المعتمة الرطبة عند الشلال؛ إذ استيقظت الخفافيش قبل أوانها وانطلقت مستثارة، ذاهبة آتية، على غير هدى.

وعندما هوى خفاش فجأة فوق رأس إلياس ثم انْقذف على الصخرة ليبقى ملتصقاً هناك مثل خرقة رمادية مدمّاة، بدأ الخوف يتسلل إلى نفسه. وفي الوقت نفسه أخذت كلاب إشبرغ تنبح بأصوات متعددة ومن دون توقف. وبعد برهة زحف سَمندلان ناريّان على الصخرة متخيلين بجنون أن الشمس قد أشرقت.

إننا لا نجد تفسيراً آخر لما جرى سوى أن إلياس قد أصاب الترددات السمعية للحيوانات، فغنّى بطبقة الخفافيش فوق الصوتية، وصفر

بترددات الثعالب والكلاب. لقد تحدث إلى الحيوانات من حيث لا يدري.

في تلك الأيام لاحظ المعلم أوسكار آلدر أن تغيراً ما قد طرأ على الرجل الطفل؛ إذ لم يعد يجلس ساكناً في مقعده، وبدا قلقاً يحرك قاعدة بنطاله كمن يجلخ سكيناً، ومرة انكسر اللوح الأردوازي بين يديه إلى شطرين. وعندما سأله المعلم عن السبب، لأن بقية الأولاد لم يسعفوه بتفسير، بدا الطفل شارد الذهن كلياً، مما أدهش المعلم؛ إذ لم يسبق أن تردد إلياس في تقديم جواب. ولطالما أدهشت ذاكرة هذا الطفل المعلم وكذلك الخوري بويرلاين ذا الأنف الطويل. فقد كان الطفل متضلعاً في أمور الديانة المسيحية يحفظ عن ظهر قلب جميع الأسماء وكافة القصص الواردة في العهدين القديم والجديد، ويرويها بطريقة كانت تضطر الخوري إلى تركيز انتباهه كي يتمكن من التقاط الفكرة المتلألئة في القصة.

وغالباً بعد دروس الديانة صار يُشاهد الخوري مستغرقاً في مراجعة هذه النقطة أو تلك في الكتاب المقدس. كان الخوري بويرلاين راغباً في إرسال إلياس إلى مدرسة الدير في فلدبرغ، لكنه أخفق أمام صلابة إرادة أبيه، فقد رأى زِف أن حلب الأبقار ونقل الروث لا يحتاجان إلى دراسة، وقد كان للأسف محقاً.

لم يعد الفتى نفسه مطلقاً. وعندما ازداد شغبه أثناء الحصص الدرسية اضطر أوسكار آلدر مرة إلى اللجوء إلى عصا البندق ليؤدب

بها تلميذه المفضل بعشر لسعات على أصابعه، علماً بأن إلياس لم يكن يبغي سوى اختبار تأثير صوت رأسه الذي توصّل إلى تحقيقه مؤخراً.

وأوسكار آلدر لم يكن معلماً شديداً صارماً، إذ نادراً ما كانت عصاه تئز، ومع ذلك فقد عَفَس مرة طفلاً من آل لامبارتر بقسوة خلفت وراءها تشوهات دائمة. كان الطفل من دون سوء نية قد لقّبه بالثور، فما كان منه إلا أن بطحه أرضاً وظل يركله حتى حولّه إلى كومة خرساء مدمّاة. عقب ذلك جمع زملاؤه التلاميذ شعر رأسه عن ألواح الجدران الخشبية، ووضعوا دليل انتصار أوسكار في قارورة صلصالية صغيرة وختموها بكل فخر. ومنذئذ، كلما نظر المعلم إلى الطفل اللامبارتي وطالبه بجواب ما، صار الطفل كذلك، وبقي كذلك حتى آخر أيام حياته.

وعلى الرغم من ذلك لم يكن أوسكار آلدر معلماً شديداً، هذه حقيقة. أما إلياس فلم يُرهبه ما جرى، بل أظهر عناد الشخصية الإشبرغية التي إن تمسكت بأمر فإنها تبقى متشبثة به، حتى إن جرها معه إلى الهاوية، كان إلياس يتمشى يومياً نحو صخرته التي جلختها المياه ويثابر على جلخ وقع صوته دون هوادة. صرخ حتى انتهى الصراخ، جرب طبقات صوت الرأس، غنى بالطبقات العليا، طور أصواتاً وصيحات بدت فريدة، بل مخيفة. وفي ذلك الوقت اكتشف موهبته الخارقة في تقليد الأصوات الغريبة، ولتوضيح ذلك سنروي الحادثة التالية:

في يوم قربان الجسد من عام 1815 أصيبت القرية بهستيريا دينية ولا سيما في دار هاينتس لامبارتر. حدث الأمر عندما كان الأعمى قرب حافة الغابة حيث تمر الحدود بين أرض زِف وأرضه، ينصب أعمدة لسور مرعى جديد. ولا بد هنا أن يتساءل المرء؛ كيف يستطيع الأعمى أن يبني سوراً من دون مساعدة شخص آخر؟

قالت هاينْتسين لهاينتس إن الفكرة قد جاءتها، عندما كانت ذات أحدٍ ماطرٍ تنظر، خاليةَ البالِ، من أرضهم الصغيرة إلى أرض زف آلدر المليئة بالحقول والبساتين. فحلمت في يقظتها بقابلية السور للانتقال.

في اليوم التالي شوهد هاينتس ينصب سوراً، خبط عشواء، داخل أرض جاره. وكانت هاينتسين موجودة بقربه، ولكن مختبئة، تقود خطوات الأعمى بكلمات بالغة الحذر إلى داخل حقول زف الذي اكتشف الخديعة وصمت، ثم وبكل صبر نزع أعمدة السور المتعرج. لكن هاينتس كان يعيدها في صبيحة اليوم التالي وأيضاً بكل صبر. هكذا فكرت هاينتسين بسلخ أجزاء من أرض الجار، وقد استمرت العملية مدة طويلة.

وذات مساء فاترٍ كان هاينتس منشغلاً مجدداً بسرقة أرض من الجار، عندما سمع فجأة صوتاً رهيباً لم يسمعه سابقاً قط. سقطت مطرقة الأوتاد من يديه وبقي فمه ذو الشفتين الغليظتين فاغراً. سقط على ركبتيه، ومن رموشه المحروقة سالت دموعه لا إرادياً. أخذ يرتعش

وهو يسأل نفسه: كيف خاطبته الملائكة؟ له تحديداً وهو ليس أكثر من متسول أمام الرب؟

«كيف ترتكب الخطيئة بحق جارك؟ أنا، النبي إلياس، آمرك بالتوبة!»

عندما سمع هاينتس هذه الكلمات بصوت سماوي هادر كالرعد انفجر بالبكاء معولاً، غرز أصابعه في التربة ومرّغ وجهه بالتراب. «روحي سوداء، سيدي النبي! دَعْ لي حياتي على الأقل، فامرأتي هي من أغواني!» واستمر هاينتس بالعويل بصورة تنفطر لها القلوب، لدرجة أن فزع محتالنا وهرب بخفة قطة.

وبما أن الخوري قد أراها باب الكنيسة وإنْ بكلمات ناعمة، فقد قررت هاينتسين رفع الواقعة في رسالة موجزة إلى السادة رجال الدين في روما، فهي لم تشك ولا حتى لحظة واحدة بشهادة زوجها الغارق في الدموع بأن النبي إلياس قد ظهر له على عربة نارية تجرها الخيول.

طلبت من الأعمى أن يريها المكان الذي وقعت فيه المعجزة، وعندما غاص هاينتس أعمق فأعمق في أرض الجار قادته بيديها البالغتي الحذر إلى النقطة الأكثر قابلية لظهور الوحي، أي إلى منتصف حقلها الصغير المزروع بالبطاطا. ثم بدأت بنصب السور بنفسها، وقد سُمعت الأصداء المزدوجة لمطرقتها حتى لما بعد منتصف الليل.

وبعد توسلات عنيدة قبل الخوري بالقدوم إلى أرضها الصغيرة

ليبارك البقعة بكلماته، مما أدى إلى فتنة في القرية؛ إذ إن الكثيرين لم يقتنعوا بوجاهة قبول هذا الوحي كحقيقة، بينما اعتُبرت المعجزة، الرؤية، التجلي أو الحدث، في الحقل الخاص، في الغابة الخاصة، في الحجرة الخاصة، محض خيال. لكن هاينتسين كانت تضمر شيئاً أكبر في دخيلتها ذهبت إلى نحات الخشب في إشبرغ، الملقب مايسْتنْتايلز (غالباً) حاملة معها من الخشب ما يكفي لنحت أربعة عشر صليباً وما يتناسب معها من صناديق تبرعات، لتنصبها من ثم كمحطات على الدرب إلى حقل إلياس، وكلفته بالعمل.

فبهذه الطريقة سيتخيل عابر الدرب المؤمن أنه على درب آلام السيد المسيح ويتخيل أيضاً حالة الفقر المدقع التي يعيشها من رأى الوحي. وبما أن هاينتسين ليست غبية فقد كانت تعي أيضاً أن المؤمن فقط هو الذي يُبصر. ولهذا بنت في حقلها الصغير ما يشبه الصومعة الخشبية للوقاية من الريح والمطر. وعلى زوجها الأعمى البصير أن يقف هناك رافعاً عينيه إلى السماء بدهشة.

لم تنجح خطتها، فرجال الدين في روما لم يردوا على رسالتها الموجزة قط، ومايستنتايلز (غالباً) طالب بأجر صلبان المحطات وصناديق تبرعاتها، مما اضطر الشماس وامرأته إلى بيع بقرة وعجل. ومنذ ذلك الحين اختفت هاينتسين عن الأنظار لفترة طويلة، وعن القداس كذلك، معتذرة - بحق إلياسي ونبيي - بكثرة الشغل في الدار وبولادات بقراتها المتواصلة.

عندما توصل إلياس بعد تمرينات دؤوبة إلى صوت ذي نبرة تؤثر في أيٍ كان بدفء كبير، عيّنه الخوري لتلاوة الرسائل الإنجيلية أيام الآحاد. بيد أن بطلنا لم يستطع القيام بهذه المهمة المصيرية طويلاً؛ إذ إن روعة دفء تلاوته أدت إلى اضطراب نساء إشبرغ، بحيث تضيع منهن الصلاة كلياً، فما إن يبدأ الرجل الطفل بالقراءة حتى تنتشر الضوضاء في الجانب الأيمن من الكنيسة فتسمع أصوات تحريك المقاعد وزحلها وخشخشة تنانير الأحد وطقطقة المشدات، ويعاد ترتيب الشعر، والأصابع تحفر في مناديل الصلاة باضطراب، والأحذية تنزلق عن ألواح الركوع خابطة الأرض كالرعد. وفي يوم أحد الموتى عندما سقطت عجوز لامبارتية عن مقعدها ميتة مباشرة عند سماعها كلمات الرسالة، أدرك الخوري بويرلاين أن صوت إلياس يخفف من ورع الصلاة بدل أن يزيده. كما دبّر بعض الشباب مكائد لتحطيم بوز صاحب الصوت المعسول الذي فتل رؤوس نسائهم. والحمد لله أنه قد أفلت منهم، إذ أحبط الثرثار الآلدري خطة الشباب الغيورين.

ولكن على المرء أن يضع نفسه في مكان هؤلاء الرجال الذين ماعت نساؤهم بتأثير دفء صوت السيد المقرئ، لا بد للمرء من أن يفعل ذلك، أنهى إلياس المدرسة وهو في الرابعة عشرة من عمره، وها نحن نكتشف برعب أنه قد عاش حتى الآن أكثر من نصف حياته.

عبثاً ينتظر القارئ معنا حدثاً خارجياً يؤدي أخيراً إلى تخليص الشاب من ضيق أفق قريته، إذ قد يضل الطريق ويمر بقرية إشبرغ

متجول ذو علم أو موسيقي مثقف، يلتقي بإلياس، يسمعه وهو يتكلم ويغني فيصيح: «انظروا إلى هذا الشاب! إنه سيصبح شهيراً!» كم كان بودّنا أن نحكي عن وداع بطلنا لبيت أبيه، الذي لم يكن في حقيقة الأمر بيت أبيه قط! وعن حواره الأخير مع حيوانات الإمَّر، والغزالة ريسي، والغُرَير ڤونيبالد، والثعلب الأحمر الصغير ليبس، والظربان زيبالد ومع الخوري الجاف!

وعن ذهابه إلى فلدبرغ وإثارته إعجاب المعهد الموسيقي بصوته الجهير الرائع! وعن تعلمه الكتابة الموسيقية كي يتفوق في العزف على الأرغن لا على الطلبة فحسب، بل حتى على المعلم! كم كان بودّنا أن نصف للقارئ رباعيته الوترية الأولى – مفترضين أنه ألَّف واحدة – أو متتالية للجوقة لحنها بسرعة أو مقطوعة سوناتا غير كاملة لكن لحنها الرئيسي يدل على خيال موسيقي رائع! وكم كان سيملأ قلوبنا بالنشوة أن نقلِّب في سجل آلدر، حيث ستأخذنا أعماله معها الواحد تلو الآخر إلى درجة أعلى من الإعجاب والحماسة.

لكن لم يسبق لقدم موسيقي مثقف أن وطأت أرض إشبرغ قط. وأخيراً عندما جاء واحد منهمٌ، كان الحسدَ مجسداً.

لنعد إذن إلى الرجل الطفل الذي كان صوته في تلاوة الرسائل الإنجيلية يسحر البعض ويدفع البعض الآخر إلى أقصى درجات الغضب. ذات أحدٍ وقع في الكنيسة الصغيرة حادث مهول، لا يمكن أن تكون له علاقة بصوت إلياس. ومهما كان في الأمر من وقاحة،

لكن الحادث فتح لإلياس بوابة الموسيقى وباب شرفة الأرغن الداخلية في الكنيسة.

في صباح ذاك الأحد جاء ڤارموند لامبارتر – دوّاس منفاخ الأرغن – إلى الكنيسة وصعد إلى شرفة الأرغن متعتعاً من سَكرة الأمس، وهو عادة إنسان خجول أثناء أيام العمل، لكنه كان يشرب لدرجة عدم القدرة على تمييز النهار من الليل. وقد أراد أوسكار آلدر أن يعيده إلى داره فوراً، غير أنه خشي ألا يتمكن من نزول الدرج الخشبي شبه القائم من دون أن يؤذي نفسه، إضافة إلى أن لامبارتر قد أصر على القيام بواجبه تجاه الرب يوم الأحد بأن يحرك دواسة النفخ.

وكيلا يقطع موعظة الخوري التي استطالت جداً، بدأ لامبارتر من درابزين الشرفة بتوزيع البركات على الرعية. وعندما أمسكه من كمّه رجلٌ يبتسم بوقاحة ، وتمكن لامبارتر من الإفلات والالتفاف ليبدأ بترتيلة التبريك بصوت غير واضح، وقع المكروه، إذ سقط ڤارموند لامبارتر من على الدرابزين لينخبط على الأرض الحجرية ويبقى هامداً هناك. لم تكن نعمة الموت الفوري من نصيبه، ولم يمنح الرب الرحيم السلام الأبدي لروحه إلا بعد تسعة أيام من الآلام الصارخة.

أما الخوري بويرلاين فقد أمر بأن تحفر في المكان الذي تحطم فيه جسده الكلمات التالية:

الشياطين طرحته أرضاً
والخمرة كانت له قبراً

فليرقد بسلام

هذان البيتان نظمهما ميشيل الفحام، شقيق الراحل. ولا بد أن موت ڤارموند المرعب قد ترك أثراً هائلاً في حياة ميشيل، فمنذ هذا اليوم وضع يديه في حضنه. وأخبر زوجته المنبهتة بأن أعلن لها بصوت ناعم أنه عانى من رؤيا داهمته في حفرة الفحم؛ إذ خاطبته شحرورة وأمرته بالتوقف عن القيام بعمل الرجل العادي، وأن يتبع كفاءته كشاعر ديني.

وعندما استردت زوجته ميشلين رُشدها لكمت صاحب الرؤيا في وجهه المشرق تجلياً، لكنه لم يرعوِ وصار شاعراً دينياً. والحمد لله أن بعض الجيران الأخيار كانوا يعطونه بين الحين والآخر قطعة خبز يابس، قطعة زبدة زنخة، أو حليباً محمضاً، إذ لا شك في أن مهنة الشاعر كانت ستميت الفحام جوعاً.

في أحد الرب لعيد الميلاد من عام 1815 صار إلياس دوّاس أرغن إشبرغ ذي المفاتيح الصوتية الخمسة. كان تحريك دوّاسة المنفاخ بالنسبة له مجرد حجة طبعاً ليُسمح له أخيراً بمشاهدة هذه الآلة الغامضة وخوض تجربتها عن قرب. ليس ثمة من يعرف هذا الأرغن بدقة إلياس.

عندما كان طفلاً ملعوناً ومحكوماً بالجلوس في آخر مقعد كنسي درس المفاتيح الصوتية الخمسة بأن أنصت وعرف أن أنابيب كثيرة من خشب الزان تصدر صفيراً بوقع معين، في حين أن الأخرى مصنوعة

من مادة مثل تلك المسمّرة على مقدمة حذائه.

وقد لاحظ أن المفاتيح الصوتية أيام الآحاد القائظة يكون وقعها مشبعاً مقارنة بأيام الشتاء، حين يصبح الوقع رفيعاً وجافاً، مما جعله يحدس بأن للأرغن شيئاً كالروح تتألم من الصقيع مثل أصابع الإنسان المعرضة للبرد القارس. وفي بعض الليالي عندما يتجمد شعر الأنف حتى عندما يكون الإنسان في حجرته، كان بوده أخذ الغطاء القماشي السميك كي يغطي به واجهة الأرغن وأنابيبه المكشوفة. كان يتألم حقيقة للاضطراب المزمن لأصوات المفاتيح، حتى وإن لم يكن قادراً على التعبير عن ذلك بهذه الصياغة.

ولذلك ذهب إلى العم وقال له إن الأرغن مريض، يبدو مبحوح الصوت، وأن الأنابيب الصافرة تكافح بعضها بعضاً بدل أن تتجانس في وقع منسجم، فهذه الصافرة عالية أكثر مما يجب وتلك منخفضة أكثر مما يجب، وبوسعه أن يحدد له أي الصافرات تعاني أكثر من غيرها، ولا سيما الثالثة الأخيرة في الجناح الأيمن من صندوق الأرغن، وهي التي أصيبت بشرخ في الصيف، وهو ما زال يذكر ذلك. ضحك أوسكار آلدر وهز رأسه، فما الذي يتخيله هذا الولد؟ لقد قام بنفسه قبل حين بفك الأرغن ودَوْزَنَه، فهل سيعلمه ولد يسيل مخاطه ما عليه أن يفعل؟

لكن شيئاً ما ترسب في نفس المعلم. فصعد، بعد حلب الأبقار مساء، إلى شرفة الأرغن، وفتح الجناح الأيمن من صندوق الأرغن،

فوجد فعلاً شرخاً بطول رمح في الجانب الوجهي من أنبوب الصافرة الثالثة الأخيرة، ما تحت الجهيرة. ثم ذهب إلى المنفاخ وشغّله، وهرع إلى لوحة العزف وضغط الملامس ليجرب تنوع تصويتات المفاتيح كلها، ثم جرب الأصوات الواحد تلو الآخر، لكنه لم يسمع أي نشاز، بيد أن هذا مرتبط أساساً بعناده المتأصل، لأن النشاز كان جلياً للآذان.

سرعان ما ندم العم على قراره بتعيين إلياس نافخاً للأرغن، علماً بأنه لم يعترض على طريقته في تشغيل الدواسة، فقد كان الهواء موجوداً بصورة منتظمة دائماً في الخزان، الأمر الذي لم يحسِنه ڤارموند لامبارتر، فكم مرةً في منتصف عزفٍ متصاعد حساس انكمش الخزان وصار ينوح صافراً من الثقوب الأخيرة، فقط لأن لامبارتر نام أثناء تشغيل الدواسة! وكم مرة ضيَّع عليه هذا الخنزير الحقير أروع النهايات بمغادرته الفجائية قائلاً: كفى عزفاً حتى الآن، فالإطالة ستخدش واجب التمسك براحة الأحد! ولكن لا بد في هذه النقطة تحديداً أن نحسب لڤارموند، وإنْ على نحو متأخر، حدساً صائباً؛ إذ إن أوسكار آلدر كان يستمر في العزف لأكثر من ساعة غالباً، زاعماً بترفع، إنه يجرب الرجوع أخيراً إلى اللحن الرئيسي.

أما إلياس فقد كان له خادماً صبوراً بلا حدود، يضع له كل أحد أوراق النوتة مرتبة في متناول يده على مسند العزف، ويستمر في ضخ الهواء إلى الخزان طوال تجريب المعلم، إلى أن يتوقف هذا عن

العزف، نافد الصبر أخيراً، في منتصف الجملة الختامية.

ومع ذلك لم يكن المعلم سعيداً، إذ كان يحس بجدية مراقبة الصبي له، وكيف كان يضيِّق عينيه كي يتمكن من متابعة حركات الأصابع العجفاء على لوحة الملامس. وقد رآه ذات مرة يقطب جبينه بألم لمجرد تسرب نغمات إلى E–Dur لا تنتمي إلى E–Dur. لقد شعر أوسكار بأن هذا الصبي اللعين لا يغيب عنه أي خطأ، ولا حتى أبسط زلة إصبع أو قدم. كما انتابه فزع حقيقي ذات أحد عندما تأكد من أن الصبي قادر على إعادة غناء كافة أصوات جملة كورالية من الصادح (سوپرانو) حتى الجهير (باص).

لكن هذا لم يكن كافياً، بل صار دوّاس المنفاخ يسبغ التحسين على عزفه أيضاً، بأن يملأ منعرجات خط الباص بكامل صوته، ويرمم الجملة الرخيمة (آلتو) السيئة، ويزيّن لحن الأنشودة بمعابر وتلوينات جريئة، ويرفع صوته بـ «b» يائسة عندما ينشز المعلم ثانية بـ «h»، ويجرب أصواتاً متعارضة بصورة رائعة من الطبقة الصادحة (تينور)، بل يبتكر أحياناً أصواتاً جديدة كلياً في لحن النشيد الذي لم يستوعبه أوسكار إلا بصعوبة. تغبشت عينا عازف الأرغن وتملكه الخوف.

فالوجوه المبتسمة بشماتة التي كانت تزعج الصلاة منذ أيام الخوري بنتسر صارت فجأة لطيفة وتنصت بهدوء لغناء دوّاس المنفاخ ذي الوقع الغريب. لقد تجاوز هذا كل حد، والمعلم فقد متعة العزف على الأرغن وفقد معها احترامه الذاتي. إنه لا أكثر من عازف صغير

من مخلوقات الرب، مواهبه محدودة جداً، وكان بوده جداً أن يطوِّر عزفه على الأرغن، لكنه مضطر لإعالة عائلة كبيرة، وعليه إضافة إلى ذلك القيام بواجبات المدرسة. هكذا كان يحكي في أثناء تناوله الشراب في حانة ڤايدْمَن.

ولم يتوقف عن الحط من شأن نفسه إلى أن رفعوا من معنوياته مجدداً ببعض كلمات المديح. وما كان يهذي به، كان يعوضه نولف آلدر بقوة، بقوله مثلاً إنه أشرف عازف أرغن على وجه البسيطة، وليتابع بلاتينية مكسرَّة لفظاً «أنت لا شك فنان الحب والمعلم الأول الآن ودائماً.» وواقع الأمر هو أن أوسكار آلدر كان يعتبر نفسه عازفاً مباركاً من الرب، وعندما سمع تباهي نولف به استعاد خداه حمرة الطموح الوردية.

في يوم الأحد الثاني قبل عيد الميلاد رجا إلياس عمه أن يعلمه العزف على الأرغن، فاستمهله أوسكار إلى حين، لكنه قرر بينه وبين نفسه ألاّ يعلِّم الصبي ولا حتى علامة موسيقية واحدة، فهو وحده عازف أرغن إشبرغ، هكذا كان الأمر وهكذا يجب أن يبقى.

إلا أنه لم يبق كذلك. إننا نفكر بيوم الفصح سنة 1820 وقلبنا تغمره السعادة. ففي ذلك اليوم عزف إلياس على الأرغن بروعة لم يسبق لعالم إشبرغ أن سمع مثلها. ونحن نبذل قصارى جهدنا لتنبيه قلبنا إلى ضرورة الهدوء عند متابعة تسلسل أحداث هذه الحياة.

يضاف إلى ذلك أن المعلم قد رأى أن من الذكاء منذ الآن أن يقفل

باب شرفة الأرغن. وصار يخبئ المفتاح دائماً في مخابئ متبدلة. ولأنه تحت ضغط كوابيس مريعة كان يرى في مكانه على الأرغن رجلاً صغيراً، صار لذلك يضع المفتاح في أماكن لا تخطر على البال.

فمن سيخمِّن وجود مفتاح في الرأس الفارغ لتمثال القديس يوسوبيوس، أو في حوض الماء المقدس، أو في حاشية راية قلب يسوع، أو بين أوراق كتاب صلاة؟ أو حتى في كأس نبيذ القداس، مما جعل الخوري المحترم الذي ازداد نسيانه باطراد يشكك جداً بسر التحوّل. لكن إلياس لم يغب عنه شيء، فأينما سقط أو غطس أو انزلق أو عُلِّق المفتاح كان يجده.

في ليلة اليوم الرابع قبل عيد الميلاد تسلل إلياس آلدر إلى شرفة الأرغن. وجد المفتاح بين عظام القديس ڤولفغانغ في خزانة الرفات الموجودة تحت المذبح الرئيسي.

كانت قطرات العرق تتلألأ على جبهة إلياس وخفقان قلبه يصل إلى رقبته عندما دخل الشماس كي يقفل الكنيسة. تلمس هاينتس بصبر مكان ثقب المفتاح، حنى ساقيه وكأنه يركع، رتل «يا رحمة يسوع» بتراخٍ، فصار إلياس حراً، محجوزاً في الكنيسة الصغيرة، وحده مع نفسه والأرغن. رفع إلياس غطاء لوحة الملامس، أشعل شمعة، ثبتها وصلَّب. وفجأة انهمرت الدموع من عينيه، من دون أن يدري لها سبباً. ونحن أيضاً لا نريد أن نعرف، سنترك موسيقينا وحده وننتظر حتى تهدأ نفْسُه ويبدأ بعزف أولى نغمات حياته.

كانت الريح في الخارج تعصف معوّلة في ذرى الأشجار، راقصة كطفل في الحدائق والبساتين، كاسرة بعض الأغصان الصغيرة والفروع الهشة، نافخة الأوراق الجافة حتى عتبات الدور. لا يوحي وقت الميلاد هذا بأجواءٍ ميلادية، فقد حُرم الأطفال من الثلج، والحدائق والبساتين جافة، ولم يبقَ في مجرى نهر الإمَّر سوى جدول شحيح. والعجيب الغريب هو وجود السنابل في بعض أنحاء المراعي.

وعلى النافذة ارتسم ظل بيتر وهو ينصت إلى عصف الريح ويشاهد تمايل ذرى التنّوب. ينظر إلى ورم ذراعه ويعض على شفتيه من شدة الألم، ثم ينقل نظره في الفناء الكبير إلى حواف القمر. إنه يدبر خطة. لقد كسر له أبوه ذراعه الصغير، لأنه سرق بعض السكاكر وعرق السوس. ها هو يذهب إلى الفانوس ويضع كفيه المفتوحين فوق فتحة الدخان من دون أن يشعر بالبرد أبداً. إنه يدبر خطة، يريد أن يقتل الأب، إذ لا بد للأب من أن يفطس. يعيد بيتر نظره إلى الورم المنتفخ، يعض نثراتٍ من شفتيه وهو يتصور الطريقة التي سيُقتل بها الأب.

ملأ إلياس الخزان بالهواء وأسرع إلى طاولة العزف، مد يده إلى المفتاح الثُماني، ضغطه ليفتح الصافرات، مرر سبابته بحذرٍ من ملمسٍ إلى آخر حتى وجد الصوت المفضل لديه، «فا» العظيم. لامست رؤوس أصابعه تجويفات العاج، كانت لوحة الملامس قديمة ومتآكلة، وفي بعض المواضع تبدى خشب الملمس واضحاً تحت العاج. بقي

ضاغطاً «فا» حتى تلاشى متنهداً بخفوت. ملأ الخزان ثانية وبدأ يركب من الأصوات ألحاناً. لقد بدأ إلياس يلحِّن.

تصاعدت حماسته، وحرارة رأسه لم تعد تبرد طوال الليل. وسرعان ما وصلت أصابعه إلى F–Dur، وكانت أذنه سبّاقة إلى سماعه. بحث إلياس عن لحن إحدى أغاني الميلاد، دندن العبارات وفتش عن الملامس الملائمة لها، جرب ولم يكلّ من ملء الخزان.

وعندما صار بإمكانه عزف اللحن انتابه مزاج تحسينه. فأخذ يُجلِّس الأصوات التي بدت لأذنه متعثرة، ويُغْني الفقيرة. وعندما احترقت الشمعة حتى كعبها كان قد ألّف لحناً يبث شعاعاً غامضاً كنور الشمعة في قدح الخوري الذهبي. وسرعان ما انصاعت له الملامس من نفسها.

وفجأة تلامحت أمام عينيه صورة صيفية، عندما كان مرة مستلقياً في العشب يراقب طيران فراشتين ليمونيتين، وكيف كانتا تتراقصان هنا وهناك بفرح. فبدأ يضيف إلى اللحن القديم لحناً جديداً. ولكن لا بد من تشابه الخطوط، مثلما يتشابه خطا طيران الفراشتين الليمونيتين.

فترك الصوت بيده اليمنى يرفرف أولاً، ثم تبعتها اليسرى. ولكن عندما حلقت اليمنى عالياً، هبطت اليسرى متقلبة نحو الأسفل، وعلى الرغم من ذلك اتخذ الصوتان مساراً ذا وقع جميل. ألّف إلياس منمنمات لصوتين، وسببُ هذا الخيار هو نفاد الهواء من الخزان وضرورة ملئه مجدداً، وبتعبير أكاديمي يمكن القول إن إلياس قد

اكتشف قانون المحاكاة. ولو أخبره أحد بذلك لصمت من فوره لظنه بأنه قد اقترف إثماً ما.

وهكذا أمضى إلياس الليلة كلها جالساً إلى الأرغن. وعند الفجر انتابته حالة من عدم الرضا. فعلى الرغم من أن العزف الارتجالي قد أشبعه، غير أن توق أذنيه إلى الصوت ذي الوقع المتكامل لم يتوقف عند حد. كان يعرف أن السبب هو الآلة. كانت مرهقة، كانت منهكة، كانت مريضة.

نزل إلياس عن مقعد العزف، حمل ما تبقى من الشمعة وأخذ يفحص الآلة، درس الصافرات المصنوعات من معدن مثل المسمَّر على مقدمة حذائه، فتح صندوق صافرات آخر ونظر داخله، لمس صافرة خشبية بعد أخرى، حشر نفسه في الصندوق وأخذ يفحص صوت كل واحدة على حدة، فلفتت سمعه اختلافات صوتية أكبر. لا بد من شفاء الأرغن، وقرر إلياس أن يأخذ الأمر على عاتقه حتى يستعيد الأرغن عافيته. وهمس بينه وبين نفسه قائلاً إنه لن يعرف الراحة حتى يسترد الأرغن روحه.

عندما دقت ساعة البرج الثامنة فتح الشماس البوابة من أجل قداس الصباح. كان إلياس قد محا جميع آثار عبثه الليلي، ونظف مكان الشمعة على طاولة العزف، أغلق الأرغن، قفل باب الشرفة وأعاد المفتاح إلى القديس فولفغانغ، ثم تسلل إلى داره.

استغرب زف في الحظيرة أن يجد الصبي وقد انتهى من حلب

البقرات ونثر القش الطازج، بل إنه قد صفّى الحليب أيضاً. حيّاه زف ناعساً قائلاً: «تبارك يسوع المسيح.» فأجابه إلياس باعتزاز: «إلى الأبد، آمين.» ثم سأله عن حال الوالدة، فقد كانت زفين حامل مجدداً، رغم جفاف علاقتها بزوجها، ولم يعد يوم ولادتها الثالثة بعيداً.

هز زف رأسه، وفي الوقت نفسه توجه كلاهما إلى الرب بالدعاء راجين أن تكون هديته سليمة جسداً وروحاً. كان زف والصبي يحبان بعضهما بعضاً، هذه حقيقة. وكان بود إلياس أن يعانق أباه فرحاً وأن يشم شعره، مثلما كان يفعل وهو صغير في الليالي الصعبة عندما كان يشم قبعة الحظيرة، وهذه أيضاً حقيقة.

اليوم زاخر بالسعادة

كانت الريح تعول في القرية، ترقص مثل شيطان، تكسر أشجار التفاح، تحطم زجاج النوافذ، تقلِّب ألواح الأسطح كأوراق كتاب، تثير الفوضى والغبار في مستودعات القش، تصفق درفات الشبابيك بغضب، وعند الظهر حطمت لواحد من آل لامبارتر عربة الملح مع الثورين، مما اضطر الرجل إلى قتل الحيوانين طعناً، فقد تحطمت قوائمهما. حتى ما قبل ليلة الميلاد بيومين لم يكن ثمة ما يدل على أجواء الميلاد. هناك رائحة مطر في الهواء، ولكن سرعان ما تتبدى زرقة السماء، إذ تطارد الريح السحاب. البساتين والحدائق جافة، ولا يوجد في حوض الإمَّر سوى جدول شحيح. حيوانات الغابات عطشى. والغريب العجيب هو وجود السنابل في بعض أنحاء المراعي.

في يوم الرابع والعشرين من ديسمبر عام 1815 بدا أن العاصفة تشارف على نهايتها. فالريح قد اتجهت شمالاً وصارت هبّاتها أنعم. لكن بعض الهبّات، أحياناً، كانت تجعل عوارض البناء الأساسية في الحظائر والدور ترتجف. الجو جاف وفاتر. الناس يخرجون من دون سترة، بالقميص فقط. في مثل تلك الأيام والليالي لم يجرؤ أحد في إشبرغ على إشعال نار، ولا حتى شمعة الصلاة. والجميع يعرف – الطفل يعرف من الحكايات المخيفة ومن الرعب المفاجئ في عيون

الكبار – ما بإمكان نار مكشوفة أن تفعل في وقت الرياح. في وقت مبكر من مساء الميلاد خرج رجل من آل لامبارتر ودار على البيوت بيتاً بيتاً، ليمنع كل فرد على حدة، وبالقوة إذا لزم الأمر، من إشعال شموع شجرة الميلاد. تسلل إلى الغرف والحظائر مستطلعاً، فلم يعثر على أي أثر لضوء. تشمم المداخن ولم يتلق أنفه حتى نشقة دخان بارد. ثم تابع طريقه بهدوء أكبر، ارتدى ثياب الأحد واستعد لقداس منتصف الليل.

وفي الوهدة المسماة صخرة بطرس، في الغسق المغبر، تتبدى هيئة بيتر آلدر، جالساً هناك منذ زمن لا يعرف أحد طوله، جالساً كضفدع ضخم، وهو يحدق في قطعة الصوفان السريع الاشتعال. إلى جانبه يقرقر القط الأحمر، الحيوان المفضل لدى أخته إلزْبِت والذي يأخذه بيتر معه دائماً عندما يكون مهموماً. عاود النظر إلى الورم المنتفخ في ذراعه وعض على شفتيه من الألم. لا، لن يزحف إلى الصليب حتى وإن جف فمه من الجوع. ألم يُمضِ حتى الآن خمس ليالٍ في حفرٍ رطبة من دون لقمة في المعدة؟ لا، لن يبتهل إلى أبيه كي يصفح عنه، لن يركع ويندم على سرقته حتى ولو ضيَّع على نفسه قداس منتصف الليل المقدس. لن يحيد عن خطته. الليلة سيقتل أباه، يجب في هذه الليلة أن يفطس. نظر بيتر إلى الورم، عض نثراتٍ من شفتيه وتخيل الطريقة التي سيُقتل بها الأب. جعله الألم في غاية البؤس. ولماذا عليه أن يتحمل الألم لوحده؟ تناول حجراً كبيراً من الجدار الصخري،

أمسك قدم القط الذي كان يقرقر وهشَّم ساقه، أنصت إلى صرخة الحيوان، كاد أن يتأثر، كسر ساق القط الثانية.

كان قداس منتصف ليلة الميلاد دائماً دليلاً مؤثراً على إحساس فلاحي إشبرغ العميق بعيد الميلاد. وقد عُرف هذا عنهم في طول البلاد وعرضها. فليس ثمة مكان آخر يكون فيه الاحتفال بعيد الميلاد بمثل هذه الحيوية الصادقة شعورياً. ولهذا كان كثير من محبي المشاهدة يصعدون سنوياً من وادي الراين، بحيث تكاد الكنيسة الصغيرة أن تنفجر من الازدحام قبل بدء القداس بساعتين. فكان الناس يحشرون بعضهم على المقاعد وقد اشرأبت أعناقهم ناظرين بنفاد صبر نحو زاوية المذبح، وبدا صحن الكنيسة مثل عش الدبابير.

وصل نولف آلدر متأخراً، فشق طريقه بمنكبيه عبر الحشد، مما سبب اضطراباً وضجيجاً، إلى أن وصل أخيراً وبشق الأنفس إلى مكانه الدائم. لقد حضر كل قادر على المشي، أي أن القرية كلها تقريباً كانت متواجدة، بأنوف ملتمعة ورقاب محمرة من شدة الفرك وقبات منشاة، بأثواب ذات حفيف خفيف وجدائل مضفورة ومرتبة بأناقة. وحتى على مقعد العازبات ركعت الفتيات الواحدة لصق الأخرى، وما لا يكاد يُصدَّق هو أن رائحة عطر الورد كانت تعبق من بورغا.

بدأ القداس الليلي بمسرحية رعوية، نظم أشعارها ميشيل الفحام. ولا بد أن نضيف هنا، على هامش الحدث، أن ميشيل الفحام قد نحل جوعاً لتمسكه برسالته كشاعر ديني. وقد قام أطفال مدرسة القرية

بتحويل القصيدة إلى مشاهد تمثيلية. أما دور مريم فكان لا بد في كل سنة من أن تؤديه امرأة في ذروة حملها، وهو ما يفسر تدفق القادمين من وادي الراين. وهذه العادة التي تدعو للاستغراب في رأينا تعود إلى أيام الخوري بنتسر، وقد حدث مرة فعلاً أن ولدت امرأة في أثناء المسرحية الرعوية. نساء إشبرغ تأملن من وراء ذلك طبعاً بالحصول على نِعَمٍ لا حدود لها لوليدهن القادم، بل وصل الأمر ببعضهن إلى ضبط يوم الجماع، لتكون الولادة في 24 ديسمبر.

كان بودنا ألا نثقل على القارئ بهذا التفصيل المنافي للذوق لو لم تكن زفين تحديداً هي الراقدة على القش. وما يُحسب لها هو حجبها بطنها عن ضرورة العرض أطول مدة من الزمن. وفي هذه المرة أيضاً كانت هاينتسين، أفضل صديقاتها، هي التي نصحت الحامل بألا ترفض هذه النعمة الفاضلة. فبحق إلياس ونبيي، من ذا الذي سيضمن أن يأتي الجنين صحيح الجسم والروح؟

لكن كل شيء سار بعكس المبتغى، ويحتمل أن يكون هواء الكنيسة الخانق والمشبع بالبخور هو السبب في أن كل شيء قد سار بعكس المبتغى. فأحياناً كان بعض الأطفال ذوي الصدور الضيقة يسقطون تحت المقاعد مغشياً عليهم، إضافة إلى أن آلام الريح كانت تنهش الجميع، وكان العجائز منذ أيام يشتكون من صداع شيطاني. ليس ثمة ما يتلاءم مع أجواء الميلاد.

وحتى الخوري فريدولين بويرلاين ذو الأنف الطويل لم يشعر

بالسكينة أثناء الأيام الأخيرة قبيل الميلاد، وعندما تجافيه السكينة تتخلى عنه روح الرب، فتجلت عوارض شيخوخته من دون أي رادع. فمن لحظة وجوده في حجرة المَوْهِف طلب النصح من الشماس، بما يقارب الابتهال، كي يرشده إلى الطقس الذي يجب اتباعه اليوم، أهو طقس الفصح أم الميلاد؟

وبما أنهما لم يتفقا في الرأي، خرج الخوري فجأة من حجرة الموهف خلال عرض المسرحية الرعوية ورفع عقيرته بـ «هلالوليا» الفصح. ولكن لله الحمد كان أحد مساعديه منتبهاً، فشد الخوري من طرف كمّ رداء الجوقة وهمس مستشاراً بأن الوقت هو فعلاً مساء الميلاد.

وعلى الرغم من ذلك أفلت زمام الأمور كلها، فقط قطع الخوري المسرحية الرعوية وغنّى بطبقة مليئة بالعُرَب ترتيلة «المجد للرب في العلا»، لكن أصابع أوسكار آلدر أسرعت إلى ملامسة الأرغن لإنقاذ الموقف أمام آذان ضيوف وادي الراين. ولكن عندما كرر الخوري ترتيلته مرة ثانية، بل ثالثة أيضاً – إذ نسي لاحقاً ما كان قبلاً – سحب عازف الأرغن جميع المفاتيح وبدأ لحن نشيد ليلة الميلاد الذي صاغه إلياس ليلاً بفنية عالية. وفي خضم الاضطراب العام لم يتمكن أوسكار آلدر من الرجوع إلى اللحن الرئيسي، لكن الفلاحين أدركوا ما يريده فرفعوا أصواتهم بمديح معجزة هذه الليلة.

ويا لها من مسرحية! فما أن امتلأت أصواتهم حتى اصطبغت

أعينهم ببريق الميلاد، وغلت دماؤهم وصعدت إلى رؤوسهم المتطاولة. تصاعد الغناء المدائحي في كل مكان من أفواهٍ ذات شفاه غليظة، وأيديهم التي خشّنها العمل صارت رطبة وناعمة مثل المخمل الثمين.

اليوم زاخر بالسعادة
لجميع الكائنات
فابن الرب من ملكوت السماوات
قد نزل على الطبيعة
وأنجبته عذراء

وعندها مزقت الغناء الكنسي صرخة جليدية. ظن الجمع أن امرأة تصيح، لكن الصرخة انطلقت من حنجرة دوّاس الخزان إلياس آلدر: « حريق !!» صرخة اخترقت الأجسام حتى نخاع العظام. وصدر عن الأرغن صوت كهدير الرعد. ظهر على سور الشرفة وجه إلياس الشاحب كالرماد، وصدرت من فمه بصوت طفولته الأقرع: «إلزبت، إلزبت تحترق!!» كان يعرف أن الفتاة طريحة الفراش لإصابتها بالحمى الحمراء.

ثم رأى الجميع ضوء الحريق الأول، إذ أن ألوان نوافذ الكنيسة في الجهة الشرقية أخذت تضيء. لقد عبر ملاك النار القرية وأمر الريح، التي كانت قد سكنت أخيراً، بأن تهب بسرعة وتنفخ في صوْرِها

بأوداج منتفخة في شقوق تلك الشونة، حيث أولع الصبي المذلول النار في أكداس القش. وأمر الملاك الريح بأن تستمر في صخبها حتى يتدمر الجناح الشمالي من القرية بأكمله، وحتى تحترق آخر دار في الحقول الجبلية مع حظيرتها ومستودعها وحشائشها، فقد أراد أن يبيّن لعائلات إشبرغ أن الرب لم يرد قط أن يتواجد البشر هناك.

لم يكن أمراً سهلاً فتح مصاريع البوابات ذات الاثنتي عشرة زاوية، فأجساد الصارخين تدافعت وتداخلت ببعضها وضغطت بقوة عمياء على البوابات، وأخيراً عندما رفعت يد غليظة المزلاج انفتحت الدرفتان على مصراعيهما.

أما صاحب اليد فقد صرخ من الألم، إذ انهرست يده وتدفق الدم من تحت أظافرها. وتدافع الناس إلى العراء وهم يدوسون ويخبطون ويلوحون ويصرخون، ولم يبق في الداخل سوى أم، كان طفلها ملقى على الأرض الحجرية وقد داست الأقدام فكيه. كانت المرأة تضحك بعينين زائغتين وقد انبثق مخ الطفل من رأسه. وأخذت المرأة تلتقط عن الأرض أسنانه الصغيرة وتقبّلها وكأنها أثمن من أغلى لآلئ الدنيا.

محال وصف آلام تلك الليلة المبهظة. ونحن لا بد أن نتبع أثر بطلنا، إذ لا يمكننا مرافقة أولئك الكثيرين ونخفف من همومهم بأمل ضعيف، عندما يقفون ويرون دورهم وحظائرهم وبهائمهم ومؤونتهم وهي تحترق.

كانت دار نولف آلدر تلتهمها ألسنة نيران زاعقة امتدت إلى تيجان

أشجار الفاكهة التي قصفتها الريح، بل حتى الحشائش كانت تحترق في مساحات واسعة. بدا من المستحيل الاقتراب من نوافذ الدار لأن الحرارة المندفعة من النيران كانت من الشدة لدرجة أن مَن يجرؤ على الاقتراب من سور الحديقة يكاد يختنق.

بحث إلياس عن صراخ ألم الطفلة، لكنه لم يسمع ولا حتى بكاء خافتاً. وبينما كان نولف آلدر يقتلع ألواحاً خشبية من الجهة الشرقية للحظيرة – وهو يلعن ويجدِّف من دون توقف – كي ينقذ بعض البهائم، شدته نولفين من شعره وهي تبتهل إليه بحق السماء كي ينقذ الطفلة من النيران. ضرب نولف امرأته فأوقعها أرضاً واقتلع لوحاً آخر من الجدار، نظر الحظيرة وتقيأ من فوره عندما اندفعت في وجهه كالأشباح رائحة اللحم المحترق الزخمة.

أثناء ذلك كان إلياس قد أسند السلم إلى الجدار الجنوبي وأسرع بالصعود إلى السطح الذي ما زال سليماً، اقتلع بيديه العاريتين الألواح الصغيرة عن العوارض حتى سال الدم من أظافره، ولكن من دون أن يشعر بأدنى ألم. أخذ يرفس العوارض بقدميه حتى فتح لنفسه ثغرة انزلق عبرها ليسقط من دون كبير أذى على القوارير التركية الموضوعة على الرف الخشبي لتجف، وسمع فجأة سعالاً خفيفاً. أطبق عينيه وبذل جهداً لكي يسمع. وعرف من أصوات أزيز الخشب وطقطقته اتجاه النيران، واستنتج خلال فترة قصيرة أية أجزاء من المسكن تحترق. وجد الطفلة في الحجرة التي حجبها الدخان. كانت مستلقية تحت

شبكة السرير بعينين يقظتين وقد عضت بقوة على دميتها القماشية. أمسك بذراعها وسحبها، وضع ذراعه تحت إلزبت الصغيرة، رفعها عن الأرض وضغط جسمها بقوة على جذعه...

وهكذا انطبق قلب إلزبت على قلب إلياس وانسرب نبض قلبها في نبض قلبه. وعندها صاح يوهانس إلياس آلدر صيحة خوف وبؤس وكأنه قد حق عليه الموت وهو في كامل وعيه. وكانت نتيجة الصيحة أن فقدت الفتاة وعيها في التو واللحظة وهمدت مغشياً عليها في جسم الفتى المحب.

وعندها تحقق الوحي الذي تلقاه وهو في الخامسة من عمره في سرير نهر الإمَّر عندما سمع نبض قلب طفل لم يولد بعد. في تلك الليلة التي كان الرعب فيها ماثلاً في كل مكان وقع إلياس في حب ابنة عمه إلزبت آلدر. وكان لا بد من أن يقع في حبها، إذ أن الرب لم يكن قد انتهى منه بعد.

وفي الوهدة المسماة صخرة بطرس، في ثغر هناك، كان الطفل الجريح پيتر جالساً. وكان انعكاس النيران يلتمع على شعره المدهن، وفي عينيه المدهوشتين انعكس جناح القرية الشمالي المشتعل. كان فاغراً فمه وقد جفت شفتاه، وأطبقت يده بشدة على قطعة الصوفان سريع الاشتعال وأخذ پيتر يعدُّ الدْور المحترقة، خمس، ست، ودار دانيل لامبارتر أيضاً، ودار ماتي آلدر أيضاً، وبيت العاهرة كذلك، وهي في ازدياد مستمر.

إنها ساعة انتقامه. لا، إنه لم يركع، ولم يندم على السرقة، وفي عينيه تضيء القرية المشتعلة، فتدمعان من شدة التأثر، فيمسح الدموع بذراعه المشوهة ويبدأ بتلاوة صلاة، مبتهلاً بصوت دافئ أن يفطس أبوه. ثم أخذ يغني بصوت متكسر، وكلما أطال ارتفع صوته: «عليك أن تفطس يا أبي!»

استباح الحريق الأول القرية مدة ليلة ونصف نهار. وعند ظهيرة يوم الميلاد كان الجمر ما يزال يتوهج في البساتين والحدائق. وفوق إشبرغ تجمعت غيوم منخفضة كثيفة، مما ولدّ ضوءاً لم ير الناس مثله قط، فقد صبغت الأرض السماء بالحمرة، وتصاعدت أعمدة الدخان إلى سقف الغيم، وأغصان الأشجار الجرداء كانت تتقد ثم تشتعل مجدداً.

خمس عشرة داراً وتوابعها صارت رماداً، ومات عجوزان قعيدا الفراش، إضافة إلى أربعة أطفال صغار، بمن فيهم الطفل الذي داسته الأقدام حتى الموت في الكنيسة الصغيرة. كما احترق نحو مائة دابة وصغارها. وكثير من الذين حاولوا الهروب بجلدهم شوهتهم النيران. نصف القرية الشمالي دُمِّر تماماً. كان الأذى الذي لحق بالغابة والأرض الزراعية لا يوصف، فكل ما هو قابل للاشتعال هناك احترق بكامله.

في خضم هذا اليأس الشامل لم يكن من الممكن تعزية من كان في تلك الأيام والليالي شاهداً قسرياً على الكارثة. ولم يكفِ أزيز وطقطقة

وصخب النيران على مساحة أميال. لم يكفِ عويل ألم الناس في كل مكان. لا، بل كان لا بد من مشاهدة المخلوقات العاجزة وهي تتساقط مختنقة ومحترقة حتى الموت. ولأن جميع الأيائل قد هربت باتجاه حافة الجبل، لم يعد هناك من مهرب أخيراً، فقفز قطيع بكامله إلى الهاوية وعلى نحو يتنافى مع الفطرة. كانت الحيوانات الصغيرة تنفخ وتصفر بفرائها المشتعل، بجلدها المحترق، وهي تدور في مكانها.

وتهاوت الطيور في النيران مضمومة الأجنحة، فقد بلغت الحرارة الشديدة عنان السماء، كما وصلت ألسنة اللهب التي تسوطها الريح إلى ارتفاع أكثر من ميل.

وفي ثلج يناير عندما نادى إلياس حيوانات الغابة بأصوات وخشخشات وزغاريد غير مسموعة لم يخرج أي منها من الأفق الأبيض المملوء بالأغصان العارية، لا الغزالة ريسي ولا الغُرَير ڤونيبالد، لا الثعلب الأحمر الصغير ليبس ولا الظربان إيلْتيس، ولا حتى خوري الكنيسة الجاف.

لم يتبق من الجزء الشمالي للقرية سالماً من الحريق سوى دار صغيرة جداً. ولسوء الحظ، لا بد من أن نضيف هنا، إذ كانت الدار الصغيرة تخص النحات رومان لامبارتر الملقب مايسْتنتايلز (غالباً). بيد أن أبنية الجزء الجنوبي من إشبرغ كانت لا تزال قائمة كعهدها دائماً. فلا الكنيسة ولا أي دار، ولا حتى أصغر لوح خشبي أصيب بأي أذى، مما زاد في غضب الشماليين الذين عندما رأوا الظلم سقط كثير منهم

فاقد الوعي نتيجة صراخهم الجهنمي المتشنج.

في يوم الميلاد حزمت ثماني عائلات حوائجها القليلة وغادرت إشبرغ الحبيبة وهي تذرف الدموع، عابرة جدول الإمَّر هابطة نحو وادي الراين، حيث قضى عليها الجوع في قادم الأيام، أو بقيت تفلح أراضي الآخرين لقاء خبز يومها حتى نهاية حياتها. وكان بينها عائلة هاينتس وهاينتسين وعائلة الثرثار آلدر. ونحن سنفقد أثر هؤلاء الناس والحكايات المرتبطة بهم، فيغيبون عن عيوننا إلى الأبد.

ويبدو أن ثرثار آلدر لم يتمكن من المغادرة إلا بعد أن نشر في القرية تهمة مجنونة لم تُسفر عن نتائجها المريعة إلا في يوم القديس ستيفانوس. ومفادها، إذا صدَّق المرء شهادته، أنه قد راقب مايستنتايلز (غالباً) من مسافة مضمونة الرؤية، فرآه عبر النافذة المغلقة يمشي جيئة وذهاباً حتى الفجر، وأن شعره كان منكوشاً ويسيل الزبد من فمه وهو يتكلم مع ظله، وأنه كان يتمرغ على الأرض كمصاب بالصرع، ثم تناول ورقة وكتب عليها بشكل واضح كلمة «احرق». وفي ظلام قبوه الشديد الحلكة قام بأفعال تجديفية بحق الرب وأدى صلاة «السلام يا مريم» بصورة معكوسة مثل الكفار، ثم تبول أخيراً على الصليب. هذا هو ما رآه ثرثار آلدر في ظلمة الليل ومن مسافة مضمونة الرؤية، إنْ صدَّق المرء شهادته.

حتى أكثر أغبياء إشبرغ خطورة لم يصدقوا هذه الشهادة، ولكن على الرغم من ذلك اعتُبر موضوع أن النحات رومان لامبارتر هو

الذي أشعل النار، أمرٌ مبرهن عليه.

فلطالما صبر فلاحو إشبرغ على هذا الرجل ذي الساقين القصيرتين والحواجب الكثة والتجاعيد الألف حول فمه التي تجعله يبدو ضاحكاً أبداً، وهو يسخر يومياً من إيمانهم وحياتهم وكدحهم. فقد اعتاد خلال أيام الأسبوع أن يرتدي بذْلة الأحد ويتمشى، فإن التقى بأحدهم في قيظ يوليو وهو يجرف المنحدر، كان يقترب منه، يرفع النظارات عن أنفه، ينفخ الغبار عن العدستين، يرسم دائرة في الهواء بعكازه الدقيقة المنحوتة، يمسك قبة قميصه المنشاة ويتحدث كأكبر عالم عن متاعب حياة فلاحي الجبال، أنها غير مثمرة وأن العمل الشاق (غالباً) لا يملأ البطن، ولهذا سيكون من الأذكى وضع اليدين في الحضن والجلوس في الظل للاستمتاع بزرقة السماء الرائعة، مثل الطيور على الأغصان.

كان عليهم الاستماع إلى هذه الثرثرة من شخص غير قادر حتى على شراء قنطار من القش. والغارقون في عرقهم كان بودهم من الغضب أن يبصقوا على الأرض، لكن أفواههم التي جففها الغبار باتت خالية من اللعاب.

غير أن ما أوصل سورة غضب الفلاحين إلى الذروة هو هيئة مسكنه. فهذا الذي لم يذهب إلى القداس قط، ولا حتى إلى قداس ليلة الميلاد، خطرت بباله فكرة بناء بيته الصغير من حيث الشكل الخارجي ليشبه كنيسة إشبرغ. واستمر في بنائها ونحتها أكثر من

أربع سنوات، وعندما انتهى البيت الصغير كان يشبه أكثر أماكنهم قداسة بأبراجه الصغيرة المتعددة وحتى آخر حفر تزييني في الخشب. فإن أحس الإنسان بما يجيش في قلب فلاح إشبرغي، فسيفهم سبب السخرية من مايستنتايلز (غالباً)، بل كرهه.

فمن ذا الذي لا يرغب في العيش في كنيسة صغيرة؟ وأن يكون هو بالذات - المدين الدائم والمسيح الدجال - من يشاطر يسوع سكناها كان ظلماً يطالب بالعقاب. لم يكن مايستنتايلز جديراً بأن يعيشَ الربُ تحت سقفه. هو، لا!

وما زاد الطين بلةً هو أنه قد أضاف إلى إثمه ذاك إثماً آخر، فبقرته الوحيدة - وهي حيوان هزيل بخطم قد صار رمادياً تماماً وعينين جحظتا من شدة بروز العروق فيهما - عمَّدها على اسم القديسة إليزابت، لأنها أنجبت له عجلاً على الرغم من تقدمها في السن. وسيطول بنا الحديث إنْ استرسلنا في سرد قصص مايستنتايلز المثيرة للغضب، لذلك يُفضَّل أن يُفرَد لها كتيب خاص بها.

في صبيحة يوم القديس ستيفانوس رفسوا بابه بجزماتهم رفسات جبارة فكسروه وصعدوا بصخب إلى حجرته، صفعوه موقظين إياه من أعمق أحلامه، وكانوا على وشك طعنه بالوتد الخشبي في وجهه، لو لم يوقفهم أحدهم صائحاً بأن على هذا الكلب اللعين أن يُحرق حياً. مزَّق عنه اثنان من القادمين قميص نومه، ضرباه مجرجرين إياه من سريره، اقتلعا إحدى أذنيه فيما قام الثالث كالشيطان بتحطيم كل

ما هو موجود في الحجرة من زخارف وزينات ومنحوتات ومؤونة بالمطرقة. وقعت عينا الثالث على صفيحة معدنية كُتب عليها كلمتا زيت للإضاءة.

رموه عارياً على الدرج، لكن سقوطه جاء سليماً فتمكن من الهروب منهم. لحقوا به وكانوا أسرع منه، فقد كانوا يتمتعون بطاقات قتَلة. غيّر اتجاهه فجأة فتملص منهم ثانية، تعثر، تسلق، تسلل عبر أغصان الدغل متوجهاً إلى الوهدة المسماة صخرة بطرس، فواجه هناك الهاوية، ولم يبق أمامه سوى طريق واحد: أن يتغلغل راكضاً عبر حُجُب الدخان، عبر الأغصان المتفحمة والمتقدة في الغابة المحترقة. لم يكن لديه سوى طاقة الخوف من الموت، وهي مجنونة وبلا هدف. نجح لبرهة في الاختفاء بين حجب الدخان.

احترقت قدماه، لكنه لم يشعر بالحرارة ولا بالبرودة، تغلغل أعمق فأعمق في الدخان. ثم سمع أصواتهم في مدى رؤيته، ارتد إلى الوراء، التفت إلى جميع الجهات، اصطدم فجأة بغصن شجرة أجرد فصرخ من الألم، امتدت قبضة مغطاة بالسخام عبر الدخان وأمسكت به.

سألوه ضاحكين بسخرية: أين تركتَ اليوم بدلة الأحد اللعينة؟ لم يدر هل يضغط بيده على فكه المدمّى أم يغطي بها عورته. وسألوه أيضاً عما إذا كان قد أضاع نظاراته اليوم، إذ عليه أن يكرر أمامهم حديثه كأكبر عالم عن متاعب حياة فلاحي الجبال وما شابه ذلك،

وعليه أن يمسك بقبته المنشاة ويتبختر أمامهم كامرأة، كما اعتاد غالباً أن يفعل.

استمروا في إذلاله وتعذيبه أكثر من ساعتين، ثم قيدوه بحبال من لحاء القنَّب إلى جذع شجرة، جمعوا حطباً نصف متفحم، كوَّموه حول جسمه، صبوا عليه نفطاً، صرخوا انتشاءً ثم أولعوه. لكن القتلة كانوا يعرفون أنه ليس من أشعل نار الحريق، فصرخوا عالياً وطويلاً إلى أن أخمدوا أخيراً أصوات ضمائرهم.

في الوقت نفسه شاء القدر أن يكون إلياس في منطقة صخرة بطرس وهو يفتش عن صديقه المختفي، فقد كان يعرف مخبأ بيتر. لكنه لم يستطع العثور عليه في الثغر، بل وجد قط إلزبت في النزع الأخير وقطعة الصوفان سريع الاشتعال. وعندما استدار ليعود، مزّق أذنيه صراخ هائل. في البداية كان للصراخ وقع ضحك مخيف، ثم عرف إلياس أن هناك في مكان ما من حُجب الدخان إنسان يُقتل، وسمع إلياس أصوات القتلة، وعرف أن ذاك الذي كان يحرّض الجميع اسمه زف آلدر. زف آلدر، أبوه.

والده الذي كان يحبه والذي كان بدوره يحبه أيضاً.

وقف الرجل الطفل هناك، التوت أصابعه وازرقت شفتاه، ومنهما انداحت بحنان وبلا نهاية: «يا أبي، يا أبي، يا أبي؟».

شتاء 1815

دُفن الموتى في اليوم الثاني من العام الجديد، أي بعد تسعة أيام من الكارثة. وكان السبب في ذلك هو أنه لم يتم العثور على جثة إدوارد لامبارتر. على الرغم من تكرار نبش ركام داره لم يعثروا ولا حتى على عظمة صغيرة متفحمة واحدة، ولم يظهر أخيراً سوى الغطاء الخزفي لغليون تبغه، مما جعل زوجته إدواردين تمرض من الحزن.

خمسة توابيت مُددت على أرض مكان الجوقة في الكنيسة الصغيرة، أربعة منها كانت صناديق خشبية صغيرة مسمَّرة بإهمال للأطفال الذين ماتوا في الحريق. وإلى جانب التابوت الخامس انتصب كرسي وضعت عليه وسادة من قماش الدامسكو توسدها غطاء غليون إدوارد لامبارتر.

وما أدى إلى تصعيد آلام الحزانى هو أن الخوري بويرلاين قد قطع صلاة الجناز قبل ختامها، رمش بعينيه في رعيته مرتبكاً، ثم وجد بكل ثقة بالنفس أن الخطوة التالية يجب أن تكون قداس العماد، وخطا الخوري نحو التوابيت، ركع وقرأ عليها عهد العماد. وبسبب ذلك توجه رجلان نحو غوتسبرغ بخطوات قصيرة منتظمة وأخبرا الكاهن أن رعية إشبرغ لم تعد تحتمل وجود الخوري المحترم. وعندما شرحا له الحالة العقلية المتدهورة للخوري بدا كاهن غوتسبرغ كمن أصابته صاعقة تعاطفاً مع أخيه في الرسالة.

أنصت إلى شرح الرجلين بوجنتيه الحمراوين وهو يردد بصوت خافت: اللعنة على الشيطان! ثم وعدهم بالمساعدة، وعدهم بالقدوم شخصياً إلى إشبرغ، ووعدهم برفع القضية بنفسه إلى الإدارة الكنسية العامة. وعندما باركهما للمرة الثامنة - إذ كان هو أيضاً متقدماً جداً في السن - أدركا الوضع، وخرجا متبرمين عائدين إلى إشبرغ، وبخطوات قصيرة منتظمة جداً أيضاً.

أما أولئك الذين لم يغادروا إلى وادي الراين فقد بقوا بشجاعة عنيدة في إشبرغ. وعاودوا تشييد دورهم منذ عيد تهنئة العذراء بالمعجزة. وقام ڤايدمَن بإيواء عائلاتهم في حانته، حيث أمضى سبعون شخصاً أشهر الشتاء رأساً على رأسٍ في صالة الحانة الضيقة.

وزفين المسكينة المنكودة الحظ كان عليها احتمال ولادتها الثالثة تحت أعين الجميع. لم يلبِّ أحد رجاءها بستر مطرحها بشرشف، فصار الرجال يحدقون في فرجها المفتوح، في حين كوَّر الأطفال أيديهم خفية وبتشنج أكبر مما يستدعيه الضغط لإنزال الوليد، وكأنهم يساعدونها في ذلك. وحملقت بعض النسوة في الخد المسلوخ من وجه الولاّدة. ثم انتشرت همهمة في صالة الحانة: تمخضت الولادة عن طفل مجنون، وقد عنوا بذلك منغولياً. المسكينة أغاتهِ آلدر، يا لها من مسكينة!

في ذلك الوقت، حينما عسكر الناس اضطرارياً في صالة الحانة، بدت الحالة في رأس إلياس كما في هاوية سحيقة خطيرة، فما كان

يفكر فيه كان يهوي إلى حيث لا قاع ولا جواب.

أصيب بحمى عالية الحرارة وصار ينضح عرقاً في هجمات متناوبة، وعندما يستيقظ صباحاً كانت تنهمر الدموع لا إرادياً من عينيه الملتصقتي الجفون بسبب النوم. ثم يجلس القرفصاء في المكان نفسه من دون حراك ساعات طويلة، لدرجة أنه لم يكن يجفف سيلان أنفه. وغالباً ما كان على الآخرين أن يمسكوا بكتفيه ويهزوه بشدة حتى يصدر من فمه أخيراً صوتٌ ما غير مفهوم. فبدا وكأنه لم يعد يسمع، ولم يعد قادراً على الكلام.

لم يدر أحد أنه كان تحت تأثير الصدمة؛ ففي ليلة الجريمة، عندما دخل المجرمون إلى الحانة، أخذ جسم إلياس ينتفض ارتجافاً، وكأن هناك من يمسكه بأيدٍ خفية ويهزه بعنف إلى الأمام والخلف. وقد بذل جهداً كبيراً ليسيطر على جسمه – وما كان أبداً ليشي بوالده – ولكن من دون جدوى. وصارت تصدر منه، لا إرادياً، أصوات كهديل عميق، فحشا نصف قبضته في فمه وعض بأسنانه عميقاً في اللحم على أمل أن تمر الأزمة، ولكن من دون جدوى. الجميع كان يحلق في إلياس. وأخيراً دفع نفسه بنفسه إلى فقدان الوعي بأن ضغط ذراعيه على قفصه الصدري وتوقف عن التنفس.

ولَّد المشهد صورة مخيفة، وظنوا أنه أصيب بنوبة صرع، فطلبوا من زف الذي كان قد دخل لتوه بأن يُخرج ولده من الصالة. حمله زف إلى الخارج، وأثناء ذلك تيقظ الجسد الخامد بين ذراعيه. ولكن

عندما رأى زف عيني الصبي، وكانا ثقبين شبحيين، حدس أن إلياس يعرف كل شيء. فقد زف قوته، وانزلق إلياس من بين ذراعيه، ثم رأى زف ماءً أسودَ يندفع من زاوية فم الصبي. لم يحتمل رؤية ذلك فترنح عائداً إلى صالة الحانة.

وقام هناك بفعل لم يصدق أحد احتمال حدوثه. فهو الذي كان بالكاد ينطق كلمتين طوال يومه، انهمر الكلام من فمه كسيل جارفٍ وكأنه أكبر ثرثارٍ رغاءٍ في إشبرغ. كانت جُمله ممزقة، ينهيها بحركات باترة بيديه، ثأثأ وتلعثم ورفع طبقة صوته إلى درجة الصراخ، ولم يمنح نفسه فرصة لالتقاط أنفاسه. وفي أثناء كلامه بهذه الطريقة أحاط به الرجلان الآخران اللذان دخلا معه إلى الحانة وبدآ يصخبان ويرعدان ويزبدان وسط بقية الوجوه التي أخرسها الذهول.

لقد بحثوا عن الكلب اللعين في كل مكان، فمعروفٌ من الشهود أن مايستنتايلز هو الذي أحرق القرية. مشّطوا الوهدة طوال ست ساعات، ولكن يبدو أن الأرض قد انشقت وبلعته. ووسط الصخب قعقع صوت نولف آلدر بأن المسيح الدجال قد هرب الآن إلى الأبد. ولهذا يجوز للقادرين على المشي أن يستبيحوا دار النحات وينهبوها. وهو بصفته مسؤولاً عن منطقة إشبرغ يمنحهم الإذن بذلك. وهدد القتلة مايستنتايلز، كذباً، إنْ جرؤ ذات يوم على الاقتراب من قريتهم الحبيبة فسيشقون رأسه بالفأس المسنونة. وللمرة الثانية طغى صراخهم على ضمائرهم المرتجفة.

ترنح إلياس على طول ألواح جدار الحانة الخارجية حتى بلغ الخلاء. أراد أن يغرق في الظلام ويموت، وعندها أمسكته يد صغيرة من كتفه، وسمع من وراء ظهره صوتاً متكسراً خافتاً يقول: «أنت لن تشي بي، لن تفعل ذلك. لأنك إن فعلت فسيحدث شيء آخر».

التفت إلياس إلى الخلف. وقف كلاهما هادئين، ثم، لا ندري ما السبب، تغلغلت يد كل منهما في شعر الآخر وتشمما بعضهما بسعادة. أشار پيتر إلى ذراعه المكسورة وكأنه مضطر إلى الاعتذار عما جرى لها. مسح إلياس فمه، حرك شفتيه، أراد أن يحكي. لكنهما صمتا. عاودت شفتا إلياس الحركة، كان يجب أن يحكي، أن يمنحه على الأقل كلمة، كلمة. صمتا. إلا أن پيتر كان يشعر بصورة يقينية أن صديقه لن يخونه أبداً.

بعد أن أباح نولف آلدر دار مايستنتايلز الصغيرة للنهب، انطلق الناس إلى هناك كمجموعة، وفي أقل من نصف ساعة أفرغوا الدار من محتوياتها على العظم، وافترسوا ما فيها كما اليساريعُ الورقَ الأخضر.

المنحوتات كلها والزخارف الفنية وسكاكين الحفر والفارات، القبّات المنشاة والنظارات، ألواح الجدران ودرفات الشبابيك، السرير والعوارض الخشبية.. لم يبق شيء لم ينهبوه، ماتي آلدر وميشيل الفحام دخلا الحظيرة الصغيرة في الوقت نفسه. جرّا القديسة إليزابت من رسنها معاً واختلفا حول من هو الأحق الآن بالبقرة. كان ماتي

أقوى، فدفع ميشيل إلى خندق الروث وسحب الدابة المخلَّعة إلى العراء، فما كان من ميشيل المشحون غضباً إلا أن لحق بماتي وركل مؤخرة القديسة إليزابت بجزمته بغيظ شديد، مما أفقد البقرة توازنها، فتعثرت وهوت مثل كيس دقيق ثقيل نحو قاع الجرف، فكسرت رقبتها وانتهى أمرها.

ضحك الفحام ميشيل ملء شدقيه، مسح الروث عن فمه وكأنه عسل، وصاح في وجه ماتي منتصراً: «اللعنة عليك! البقرة لي رغم كل ما جرى!!»

في تلك الأسابيع التي تلت الحريق الأول تساقطت الثلوج ووصل ارتفاعها إلى الخصر. ثم جاء البرد، ثم جاء الجوع. لكن فلاحي إشبرنغ صمدوا معاً. فأولئك الذين نجوا من الحريق تقاسموا حليبهم مع مَن تشردوا بين ليلة وضحاها، وخبزوا وقدموا لهم الثياب، وواسوهم مشجعين، بل سمحوا لهم من أجل بناء دورهم أن يستخدموا الخشب المتساقط في غاباتهم.

وحتى خلال ثلوج يناير بلغ الأمر بالمتحمسين إلى حد إزالة أسوار دورهم. فقام الأطفال والنساء بتكويم الثلج كبروج عالية، وإن وجد أحدهم شيئاً سليماً من المؤونة كان يعرض لُقيته بعينين تنضحان ثراء. وفي الطرف الجنوبي من القرية شقوا معابر جديدة في الغابة التي لم يبخل أصحابها بممتلكاتهم، بل سمحوا بقطع أثخن أشجار التنوب، وشدوا أحصنتهم وثيرانهم وأبقارهم إلى العربات التي قادوها في

المعابر ذات الجوانب الثلجية العالية باتجاه الطرف الشمالي. وبما أن ضوء نهارات الشتاء قصير، كانوا يدفعون حيواناتهم إلى الأمام بصيحات وحشية لدرجة تصاعد البخار من وبر دوابهم حتى في برد يناير القارس.

بدا الأمر وكأن كرَماً غامضاً قد غمر القلوب. لم يستوعب المتضررون لماذا يساعدهم الآخرون بمثل هذا الإيثار. فأقنعوا بعضهم بعضاً بأن السبب هو إبداء الشكر للرب لأنه حفظ لهم دورهم في الجناح الجنوبي. لم يسبق قط أن امتدت يد لامبارتي بالمساعدة إلى آلدري طوعاً، ناهيك عن آلدري لآلدري آخر.

فإن وقف أحدهم والعرق يتصبب منه تحت غيوم تنذر بالمطر ليجمع حشيشه اليابس الأكرت، وقف جاره وراء نافذته متمنياً أن تفرج الغيوم عن حملها فيهطل مطر غزير يفسد حصاد الحشيش اليابس. وفقط عندما ينهمر المطر مدراراً يركض الجار أخيراً لتقديم المساعدة.

في صيف العام نفسه بانَت حقيقة أن سوء الظن لم يكن بلا أساس. فالملهوفون الكرماء كانوا قد سجلوا سراً قوائم بكل قطعة خشب ونصف كيلو زبدة ورغيف خبز وبيضة وكل جرعة من نبيذ الكرز، بكل دقة ونظافة. وحتى أنفاس التبغ التي كان الملهوفون يقدمونها للمحتاجين، بنوع من الإلحاح أحياناً، كانت تُعد وتسجل. وأخيراً جاء يوم الحساب العظيم، فطالب المؤمنون بمهلة تمتد عقوداً حتى

سددوا آخر قرش في ذمتهم.

في فترة عيد الميلاد التعيسة المنكودة من عام 1815 كان إلياس يُرى تائهاً عبر دروب القرية من دون هدف. يخوض في البساتين والحدائق المغطاة بالثلج وهو متوتر الأعصاب، ببدلة ممزقة ومهلهلة هي بدلته الوحيدة، بدلة الأحد. ومن يلتقي الصبي كان قلبه يمتلئ بالأسى، إذ يراه واقفاً هناك كشجرة كرزٍ يافعة أصاب الصقيع براعمها قبيل أن تزهر.

ومن يرى عينيه لا يستطيع سوى الصمت، وقد ظن البعض أن عقل الطفل قد مُحي. عندما كان يستيقظ صباحاً في صالة الحانة كانت تنهمر دموعه على خديه، ثم يجلس هامداً يعد التفرعات في عوارض بناء الحانة المعتمة الذاوية، وينسج أفكاراً بين هذا الفرع وذاك، تارة حول أخيه الصغير المتخلف عندما يسمعه على صدر أمه وهو يمص الهواء، وتارة حول زف الذي بدأ يكرهه. ثم يقسم بينه وبين نفسه على أنه لن يساعد أباه ثانية عندما تُعشب الحقول ثانية ولن يقلب الحشيش ليجف ولن يمشّط وبر الأبقار بالمحسَّة ولن يضغط خطم النعجة حديثة الولادة في سطل الحلْب، ولن يجمع أوراق الأشجار في الخريف.

أما الليالي، حين تتنوع الأنفاس في الحانة بكثرة، بين تجشؤ وهمس وسعال وصفير وشخير، فإنها مكرسة لإلزبت، لحبيبته التي أنقذ حياتها، وعندها يستلقي يقظاً منصتاً إلى صوت تنفسها الذي

يتسلل ناعماً من بين شفتيها. ويشم في أفكاره رائحة شعرها الأصفر كورق الشجر ويلعب بأذنيها، ثم يزُرّ عينيه ليعد خفقات قلبها، فتسكن أفكاره.

وأحياناً تكسر السلام الكامل رعدة مفاجئة في جسم الطفلة التي تعبر أحلامها عواصف نارية ليلية وصورٌ تفتش فيها عن قطها الأحمر الذي لم تعد تجده. وعندها يود إلياس أن ينهض ويتسلل فوق الأجساد النائمة حتى يصل إلى نولفين التي تستلقي الطفلة عند قدميها، فيود لو يأخذ يد إلزبت الباردة المتعرقة ويضعها في إبطه الدافئ، ويود لو يُروِّح الهواء عن جبينها براحة يده، لكن الشجاعة تخذله.

إلزبت والربيع

سرعان ما قررت الطبيعة أن تغزو الحقول الجبلية بأروع ما لديها من ألوان. فالتأمت جروحها وشفيت آثار الحروق عن جلدها. وعاد الدردار، أحب أشجارها إليها، لينمو من جديد بكثافة وقوة.

وسرعان ما انتصبت ذرا الدور الحديثة البناء مطلة باعتزار على وادي الراين، فيما شوهد بياض خشب الشربين على واجهاتها الأمامية يلتمع حتى من منطقة أيِّنتْسِل. وأولئك الذين هلهلتهم الكارثة باتوا أقل عرضة لثورات الغضب، وأرملة إدوارد لامبارتر المنكودة قامت مع بوادر ذوبان الثلج بعدة زيارات نشطة لدار كونريش آلدر، وتزوجا بعد سنة، وخلال سنة أُهمل قبر إدوارد بصورة شنيعة.

وسرعان ما نُسي النواح والشكوى، وأعاد الربيع الكبرياء إلى النفوس، وصار الناس في المهرجانات الشعبية يضحكون من مصائبهم الماضية، ويحكون في الليالي العاصفة لذويهم عن المناظر المريعة لمشهد بقرة أو طفل صغير تشويه النيران، فيقلدون صوت ذاك الطفل الصغير الذي يصك الآذان، أو يُصعِّدونه إلى صراخ يمزقه الألم. ورغم أن الناس قد رتعوا في النسيان، فقد كان أثر الكارثة وحده قد حفر نفسه في الأرواح بصورة لا تمحى، واتصل حتى بعد سنوات طويلة بأكثر الأسباب قتامة لكوابيس لا تحصى.

فقد فهم فلاحو إشبرغ ما أراد الرب بالحريق الأول أن يبلغه إياهم.

ولهذا صاروا أشد عناداً، وتوقفوا عن مواراة عدائهم للرب وللكنيسة المقدسة. ولا سميا منهم نولف آلدر، إذ أنه لم يسمح بتجديد مباركة داره البرّاقة. وفي المكان الذي كان مخصصاً للرب في داره القديمة، بنى في الجديدة مخدعاً، ومنذئذ صار نولف آلدر يبيت في زاوية الرب.

أما يوهانس إلياس آلدر فقد صار رجلاً. فقد نمت أعضاؤه منذ أن كان في الخامسة عشرة، وعندما بلغ التاسعة عشرة صارت له هيئة رجل ناضج في الأربعين، بقامة طويلة ويدين خشنتين ولكن ناضجتين، وعندما تلوّح الشمس وجهه في موسم جمع الحشيش يتكاثر عليه النمش.

وقد تأذى عموده الفقري من مشقة تعتيل حِزَم الحشيش، أما جلد جسده فقد كان خشناً وقشرياً.

لم يتمسك إلياس بقسمه حيال والده. فمع أول قَطْفة ساعد زف في التعشيب، وعزق الحقول فنظفها، وحلب البقرات، وضغط خطم النعجة حديثة الولادة في سطل الحلْب، وفي موسم الخريف جمع أوراق الأشجار من المنحدرات ولم يسمح لأحد بمساعدته في ذلك، غير أنه كان يتجنب زف، الحبيب فيما مضى، وقاتل مايستنتايلز الآن.

ومنذ ذلك اليوم تجنب زف أيضاً إلياس. وواقع الحال هو أن إلياس قطع علاقته بذويه؛ فأخوه فريتس لم يعنِ له شيئاً قط، وبؤس أمه لم يؤثر في قلبه بصورة فعلية، حتى أنه لم يكن يقترب من سريرها

عندما تكون أحياناً طريحة الفراش بسبب الزكام. لكنه أحب أخاه الصغير المتخلف، فصار يهتم به كلما سمح له الوقت بذلك، يأخذه إلى حجرته ويعلمه المشي، كما علمه لغة من الأصوات والنبرات التي لم يفهمها سواهما. وعندما اكتشف إلياس لدى أخيه الأبله موهبة موسيقية عالية ازداد حبه له بحيث باتا أخوين روحياً أيضاً.

لكن وجه إلياس آلدر احتفظ بجميع ملامح عصبيةِ فتوتهِ المبكرة، فلم يكتسب فمه شيئاً من علائم المسالمة، رغم أن شفتيه كانتا جميلتين مستويتين، وكانت الثنيات على جانبي فمه تقابل بعضها بعضا، وأنفه الهادئ عموماً بمنخريه الواسعين كان يسبغ على وجهه مسحة من القلق الدائم. على الرغم من أن نسب تكوين جمجمته كانت متوازنة تماماً – وهو أمر نادر ولافت في القرية – لكن حدقتي عينيه الفاقعتين كانتا تشوهان منظر هذا الوجه.

وبالمقارنة مع الملامح الشبحية لسلالات إشبرغ لا بد من اعتبار إلياس على الرغم من ذلك رجلاً وسيماً. وقد علّق أحد ثرثاري آل لامبارتر على نحو صائب جداً، قائلاً: إن هذا السيد الضخم قد سقط من قالب الخوري المرحوم بنتسر.

منذ أن كان في السابعة عشرة احتفظ بشعر رأسه الخفيف، الأشقر الحائل، طويلاً حتى كتفيه. وأظهر تفضيلاً معيناً للسترات السوداء الطويلة، وكان الأحب إلى نفسه أن يرتدي دائماً ثياباً سوداء، لولا تخوفه من أن تُلصق به سمعة خوري مزيف. كما درب نفسه على

مشية مترفعة بخطوات قصيرة، أمضى أكثر من سنة في صقلها.

وأسلوب مشيته الغريب كان بمثابة تطلعه الظاهر الوحيد في مواجهة عالم الفلاحين الفج الخشن، الذي لم يرغب قط في دخوله. وسواء حدس بذلك أم لا، فإن مشيته كانت تعكس بصدق عالم تفكيره الموسيقي؛ فموسيقاه الليلية على أرغن إشبرغ كانت تأليفات، تخيلَها رشيقة، كل فكرة قصيرة سريعة فيها تلحق بالأخرى، تجددها أو تعكسها. وهذا هو جوهر كل عبقرية، أنها تربط الأشياء بكمال عظيم لم يسبق أن شاهدته أو سمعته. ولم يسبق لإلياس قط أن سمع موسيقى پوليفونية، لأنه لم يكن باستطاعة أوسكار آلدر أن يعزف إلا تآلفات غليظة عاجزة.

إن صورة التجلي العصبي لهذا الرجل مع بنيته الجيدة يوحيان بأنه يوماً ما سيقف في مواجهة العالم أو أنه سيحمل في قلبه عصياناً لا يلين كحد أدنى. ولكن بغض النظر عن مشيته المتفردة وموته المريع فإن هذا الموسيقي لم يثر فعلياً قط. لقد قبل حياته وخضع لفصول السنة وضروراتها، اشتغل حتى احدودب ظهره كالآخرين، تيبس جلد يديه، من دون أن ينتظر من ذلك ترضية ما أو فرح ما بعد التعب أو أملاً بمستقبل جيد. كان يكدّ في مزرعة والده ليتجنب أي ضجة جديدة حول شخصه، فجراح صدمة طفولته لم تندمل بعد.

لو كان بوسعنا أن ننصح الياس، فبماذا؟ إذ عندما يتضح لإنسان ما منذ البداية أنه يمتلك، لا شك، موهبة أصيلة، ولكن لن يُسمح له

بصقلها حتى الكمال، لأن حتميات خطة مسرفة تشاء ذلك، فإنما يعني هذا أن لا شيء سيتغير في حياة هذا الإنسان، حتى وإنْ سافر إلى بيئة مناسبة في عالم يحب الموسيقى.

في السنوات التي تلت الكارثة تحولت صورة استعداده لأن يكون موسيقياً. فمنذ الليلة التي أنقذ فيها الفتاة من النيران، أحب إلزبت بقوة وعاطفة تفوق طاقة البشر. ووجد أن الخير يكمن في حسمه أمره من أجل الحب، أن يكرِّس روحه وطاقته طوال حياته من أجله. وبآخر ذرة من إرادته المحدودة حسم أمره لجانب إلزبت، أي ضد عبقريته الموسيقية. ولكن بما أن العبقرية قد منحه الرب إياها، فقد حسم أمره ضد الرب.

وقارئنا الذي صار يربطنا به حتى الآن شعور بألفة غريبة، لن يفكر الآن بأن إلياس قد قطع علاقته بالموسيقى.

بل العكس هو ما حصل، إذ بدأ يطالب موهبته بأقصى ما لديها، لأنه كان يعزف من أجل إلزبت. وصار يسجن نفسه مرتين أسبوعياً في الكنيسة الصغيرة، حتى تعلم بجهوده الخاصة العزف على الأرغن. وعن طريق تمرينات متشددة تمكن من تطويع أصابعه للعزف بمهارة وانسيابية تسبب الدوخة. وأخيراً عندما بلغت يداه كامل نموهما، كان بمقدور كل منهما - بما يثير دهشة حقيقية - أن تعزف السلم العشري وبسرعة كبيرة في الوقت نفسه صعوداً وهبوطاً. أما الدوّاسات فقد اعتاد أن يعزف عليها برأسي قدميه، ونتيجة دقة وضعية قدميه تمكن

من بلوغ ترابط كامل مع لوحة الملامس.

وعندما نغَّصه النوَّاس الأبدي بين دوّاسة النفخ وطاولة العزف، وضع ثقته في پيتر ورجاه أن يكون دوّاس المنفاخ، فقبل پيتر بذلك طوعاً، فقد كان قد وقع في غرام إلياس منذ ذلك الحين. وعندما عايش للمرة الأولى فن الارتجال المذهل لصديقه انتابه خوف حقيقي جعله ينسى الاستمرار في تشغيل دوَّاسة خزان الهواء. ومثلما حدث في طفولته عندما استيقظ في نفسه الانجذاب نحو الآخر المختلف عندما كان يقف تحت نافذة حجرته، تجددت الآن دهشته من هذا الإنسان الرهيب.

أحس بنبض قلبه يقصف كالرعد في راحتي يديه عندما التفت إليه إلياس مبتسماً وسأله أن يبدي رأيه في ما عزفه. لم ينبس پيتر بكلمة. كان بوده أن يصيح وأن يرمي نفسه شوقاً على جسم صديقه. عليه، وقد غلى الدم في رأسه، أن يجعل إلياس أحب الناس إلى قلبه، عليه أن يبقيه الآن ودائماً إلى جانبه، إذ كيف بإمكانه أن يعيش من دونه؟

لا بد من أن نحكي عن تلك الليلة التي بذل فيها موسيقينا جهداً عضلياً جباراً لتفكيك آلة الأرغن بكاملها؛ فبسبب تقلب الطقس الدائم، بسبب الجفاف والبلل، بسبب الصدأ والشحم تخرب الأرغن بصورة يائسة، بحيث ارتخى كثير من الملامس، وكذلك ألسنة فتحات الصفارات، فصارت تصدر نعيقاً مرعباً كمن ينفخ في الصور في أريحا. وهو لم يعد قادراً على تحمل سماع ذلك، وهكذا

فكك الأرضية والجدران والألواح والمساند الخشبية، حلَّ الملامس، خطافات الزوايا، عيدان التحريك، الصمامات والصمامات المعاكسة، تناول صفارة تلو الأخرى من مزودات الهواء، وأخذ بالفرشاة يزيل عن كل جزء من أجزائها غباراً عمره مئة سنة.

بدت الشرفة مثل ورشة عمل يشتغل فيها حداد ودباغ ونحات خشب في الوقت نفسه. سجّل على الورق كل حركة وكل خطوة في مخططات نظيفة، فلم يضِع منه حتى أصغر قطعة جلدية. بعد عمليات تنظيف وإعادة تركيب القطع كافة بدأ بمهارة فائقة وأذنين في منتهى التيقظ بدوزنة المفاتيح. تناول بوقين صنعهما بنفسه، أولهما مخروطي وثانيهما محدب، وأخذ ينقر على الصفارات ويتفحص أصداءها بكل دقة، ضغط السدادات بالمطرقة بحذر بينما كان پيتر يسند الملامس بصبر حتى يصل اهتزاز صوت معين إلى أقل الذبذبات وإلى أن تتلاشى نهائياً. عند قداس الصباح انتصبت في الكنيسة الصغيرة بكل زهو آلة أرغن مبنية حديثاً.

لقد بقي الصديقان في الشرفة حتى وقت صلاة الشكر الليلية، إذ استغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى أحكم إلياس سدَّ خزان الهواء وشقوق الضخ، فقد كان يغمس فرشاة الشعر بالدقيق ويملأ بها الشقوق، وعندما كان الدقيق يسبب أي نثار، كان إلياس يتوقف، يتناول قطعة صغيرة من جلد الماعز ويلصقها بصمغ عظام ساخن على النقطة المتآكلة.

وفي سكينة حر الظهيرة تسلل الصديقان إلى داريهما عبر دروب غير مباشرة. كان إلياس معفراً ومتسخاً عندما تذكر القسم الذي أداه أمام الرب عندما أمضى أولى لياليه على الأرغن، أي أنه لن يهدأ حتى يستعيد الأرغن روحه. والآن صار بوسعه أن يهدأ، وفي الحجرة صاح أخوه فيليب وعوى من السعادة، فصفر إلياس وأمر المعتوه أن يصمت، فصمت المعتوه.

فظيعةً كانت يقظة أوسكار آلدر. عندما عزف المقدمة ركبه ذعر شيطاني، وعند ترتيلة «يا رب إرحم!» تغبشت نظارتاه، وعند ترتيلة «تمجد الرب!» انزلقت أصابعه الغارقة في العرق عن لوحة الملامس، وعند ترتيلة «تمجد الرب!» الثانية – إذ نسي الخوري بويرلاين لاحقاً ما كان سابقاً – ضاق نفَسه وسقط عن مقعد الأرغن مغشياً عليه.

اقترب وجهان ضاحكان بوقاحة ورفعا العملاق معاً على المقعد، ثم اقترب أهوجُ آلدري، فتش عن مناديل جيب، بصق عليها ومسح بها الورم الملتمع زرقةً على جبين عازف الأرغن.

ومنذ ذلك الحين مُنع إلياس من تشغيل دواسة الخزان، ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك عذر لسوء عزف أوسكار آلدر، فالأرغن الجديد صار يكشف أصغر خطأ بوضوح شديد. ونولف آلدر الذي امتنع عن حضور القداس منذ كارثة الحريق نطق في حانة ڤايدمَن بحكم مدمر. قال إن أوسكار برأيه دجال غير موهوب موسيقياً، وأنه كان يعرف ذلك دائماً، ثم تابع بلاتينية مكسرة لفظاً «أنت لا شك فنان

الحب والمعلم الأول الآن ودائماً.» ومن بعدها لم يعد أحد يواسي المسكين، بل استمروا في إذلاله إلى أن تعتعه السكر.

عندما كان إلياس يعزف، كان عزفه من أجل إلزبت، كان يرتجل موسيقى تلتقط عبق شعرها الأصفر كورق الشجر، واهتزازات ثغرها الصغير، ووقع زقزقة ضحكتها الطفلية، أو تكسرات ثنيات تنورتها المصنوعة من الدامسكو.

كان يسرق أسرار الطفلة الواحد تلو الآخر ولو كان تفصيلاً عابراً، أما عرج ساقها اليمنى الطفيف فقد كان يتكرر دائماً، أو حركة استدارة أنفها، أو قشعريرة عابرة على بشرتها، أو بوادر تفتح حمرة الجبين. كان يسترق السمع إلى كلمات الطفلة ولحن كلامها، وبفضل موهبته في التقليد تمكن سريعاً من الكلام بصوت إلزبت العميق.

لا بد من أن نستحضر أمام أعيننا أن رجلنا كان يحب طفلة في السابعة من عمرها، وفي البداية طبعاً من دون أي رغبة جنسية، على الرغم من أن أشواق جسده كانت تعذبه منذ ذلك الحين.

ولهذا كان يلهي نفسه بالشغل، فيكدح حتى الإرهاق ظناً منه أن الرغبة تخبو مع التعب. ولكن عندما خاضت الفتاة تجربة حيضها الأولى وصارت ترتدي بعد ذلك حامل نهديها الليلكي وتعمل على تقعيره، عندها شعر إلياس مرة بشجاعة يائسة بأن يمرر يده بصورة عابرة بين شعرها، وقد فعلها، ولم يعد يغسل يده إلى أن فقد رائحة الحظيرة المتغلغلة في خصلات شعرها.

كانت إلزبت طفلة هادئة رزينة طيبة الطباع، مما يثير الدهشة عند مقارنتها بأبيها الفظ السافل، الخسيس الممتلئ حقداً تجاه ذويه وتجاه العالم. لكن إلزبت ورثت طباع أمها نولفين، وهي امرأة كانت تحتمل بصبرٍ النزوات الخبيثة لزوجها المخمور كل يوم أحد، فلم تبكِ عندما تُضرب وتُغتصب، بل كانت تقف إلى جانب زوجها رغم كل الإهانات، وتغفر له خطاياه التي ما كان ليعتذر عنها من نفسه قط.

كانت امرأة ضعيفة، وعندما كان الأطفال يبحثون عن ملجأ عندها، كانت تبعدهم عنها، خوفاً من غضب ذاك المجنون. هناك في إلزبت كثير من طباع نولفين. وكما كانت الأم تتخيل لنفسها في أفكارها عالماً أفضل يستحق العيش، كان لدى إلزبت أيضاً حلمها، يأتيها فيه ذات يوم شاب غريب، فيركبها معه على فرسه عبر ضباب الصباح في وادي الراين، يقبّل يديها، يرفع الحجاب عن رأسها ويحيي بقبلاته ثغرها المتجمد. باختصار: كانت الفتاة ترى العالم بعيون مُحبَّة. وعلى الرغم من أن الشاب كان موجوداً – قادماً من غربة مختلفة تماماً – إلا أنها لم تره.

حدث هذا في ربيع عام 1820. كانت إلزبت آنذاك في الثالثة عشرة من عمرها، فتاة جميلة ورشيقة جداً، ذات بشرة داكنة لافتة، ولهذا كانت تلوِّح الشمس وجهها الناعم منذ مارس.

كانت قصيرة القامة وبقيت كذلك طوال حياتها. كل هذا ومحياها المليح الذي أسبغت عليه كتلة أنفها الصغير حسناً خاصاً، قد

دفع بعض الشباب إلى التغزل بها بصيغ تصغير خرقاء. كانوا يرون فيها امرأة مثيرة يودّ واحدهم أن يقيم معها علاقة، ولكن من دون أن يتوقعوا منها أبداً أن تكون ذات عقل رزين. لكنها منذ أن كانت فتاة صغيرة كانت تمتلك حداً معيناً من رجاحة العقل، فتميز حتى وهي سادرة في أحلامها أي سلوك يؤذيها، وأيه قد ينفعها أو يساعدها. كانت ذكية منذ البداية، فتجنبت الأب والأخ أيضاً. ومع ذلك بقيت في لغتها فجاجة ما، فهي لم تسمع قط كلاماً رفيعاً، حتى ذلك اليوم الذي دخل فيه إلياس آلدر حياتها.

كان قد دخل حياتها عندما أنقذها، ولهذا السبب فقط صبر نولف على وجود البول الأصفر في داره. في ربيع عام 1820 كان إلياس يتمشى، يومياً تقريباً، إلى هناك ويطلب بيتر، صديقه. وواقع الحال هو أنه كان متشوقاً لرؤية إلزبت، وكانت الفتاة تستلطف السيد الضخم ذا السترة السوداء. كانت تشعر بالاحترام تجاهه لسنه، وتستمتع بأناقة مشيته وحديثه، فعندما كان يتحدث، كان هذا في حد ذاته موسيقى.

في أثناء شهور ذلك الربيع وقع في إشبرغ حدث غريب. فكما يحدث غالباً، يكفي سبب ثانوي لإصابة السكان بحالة هياج هيستيري، بحيث يصبحون بين ليلة وضحاها إما قديسين وإما قتلة. وكان السبب هذه المرة خطبة واعظ جوال. والواعظون الجوالون آنذاك كانوا يعبرون البلد زرافات ووحدانا، أما كفاءاتهم

وشخصياتهم فقد كانت موضع تساؤل وشك. ولكن بغض النظر عن هذا كله، كانوا يعتبرون أنفسهم كنيسة يسوع الجديدة والحقيقية، وبناء على ذلك كانت كنيسة يسوع القديمة والحقيقية تعاديهم بشدة، فلا يُسمح لهم بدخول بيوت الرب ولا الوعظ فيها.

والواعظ الجوال كورڤينيوس فِلداو فون فِلْدبرغ – لا شك أنه اسم مستعار – كان رجلاً في الثلاثين ذا هيئة مزرية، بوجه ناعس وشعر أحمر منفوش. لم يكن يرتدي سوى فروة خروف – وتزعم امرأتان أنهما قد شاهدتا قضيبه يتأرجح تحتها. وكورڤينيوس هذا أتى إلى القرية في يوم الأحد الذي يسبق الفصح وألقى أمام الكنيسة الصغيرة موعظة لم يهضمها فلاحو إشبرغ، حسبما سيتضح مما هو آت.

رفع ذو الغرة الحمراء عقيرته متثائباً قائلاً: «استمتعْ بامرأة شبابك، فهي حلوة كظبية وخلاّبة كأيلة. تشبَّعْ من حبها دائماً وتلذذْ في حبها بكافة الطرق.» ثم راح الواعظ يشرح كلمات الملك سليمان بأسلوب تصويري جعل أنفاس الحضور تنقطع، ثم قال، وقد تيقظ الآن، بأنه رسولٌ للحب. فلا قيمة في هذه الدنيا الحقيرة إلا للحب. ولا سلطة بعدْ لأي قانون. فعلى الجميع، كهلاً وشاباً، أن ينغمسوا في نشوة اللذة، النهاية قريبة، فثمة جيش هائل من السود يحتشد ما وراء جبل آرلبرغ.

من لديه امرأة، فليأخذها ولا يفلتها من بين يديه أبداً. على الأطفال أن يتناكحوا والعجائز كذلك، فالزواج – حسبما يُقسِم رسول الحب

- قد أزيل إلى الأبد، فتحرر العالم من قيوده.

إن اشتهت امرأة رجلين، فلتأخذ ثلاثة، لا حرج في ذلك. وإن اشتهى رجل امرأة الآخر أو عجله أو بقرته فليكن.

عندما بلغ الحديث هذا الحد صعَّد ذو الغرة الحمراء صياحه الماجن وأدى بجسده أشد الحركات بذاءة وهو مستغرق في كلام شبقي مصوراً فعل النكاح بين إنسان وحيوان. سكت الجمع من حوله واندفعت أنفاس ثقيلة من الأنوف ذات المناخير العريضة. انتفخت أثداء النساء وتصلبت فتحات سراويل البعض. لم يسبق للناس أن مروا بمثل هذه التجربة، بأن يتمكن رجل عن طريق موعظة من أن يثير الشهوة.

وعندما وصل إلى ذروة تصريحاته وردت على لسانه تعبيرات شهوانية جعلت النساء على اختلافهن ينفجرن ضحكاً وصرصعة. ثم أضاف بصوت متحشرج: «فلن يدخل الجنة إلا من كرّس نفسه للحب إلى الأبد.» ظهرت على جبينه عروق داكنة، وخمّن الحضور أنه سينهار أمامهم من الإرهاق، لكنه صاح من حنجرة هائجة: «عليكم ألا تهجعوا ولا لحظة واحدة، فمن يمضي ولو ساعة واحدة من حياته من دون حب، فستُضاف إلى عذابه في نار جهنم. يجب ألا تناموا بعد الآن، لأنكم أثناء النوم لن تمارسوا الحب.

انظروا إلي!! لقد توقفت عن النوم منذ عشرة أيام بلياليها.» ومع كلمات «من ينام، لا يحب!!» سقط الواعظ الجوال كورڤينيوس

فِلْداو فون فِلْدبرغ مغشياً عليه، كان لموعظة الدجال تأثير غير محمود في نفوس كثيرة، ففي سجل عماد عام 1820 في شهر ديسمبر دُوّن ما مجموعه 12 عماداً، ويشير سجلات الوفيات إلى «ثلاث نساء توفين، بعد قتل الأطفال، من دون غبطة».

من المستغرب أن ظهور هذا الإنسان تحديداً، الفج الواعظ بالزنى، هو الذي أدى إلى انقلاب في قلب وعقل موسيقينا. فحتى وإن لم يدرك إلياس الغاية الداعرة التي أدركها الآخرون، لكنه فهم حتماً الفوضوية غير المعقولة للكلمات التي نطقها ذو الغرة الحمراء قبيل انهياره. ففعلياً لم ينم إلياس آلدر في تلك الليلة ولا في التي تلتها، بل حشد كل تفكيره وتوقه حول الصبية إلزبت.

خرج في جولة إلى الجبل، وقف تحت القمر البدر في جو الفصح، وشكر الرب لحياته التي عرف الآن أنها قد وجدت غايتها النهائية، استلقى لفترة على الحشائش السوداء في مروج الجبل التي ما زالت طرية، فرد ذراعيه وساقيه، بكى وغنّى: «من يحب لا ينام! من يحب لا ينام!» تشبث بأصابعه في الحشائش وكأنه يريد التمسك بهذه الدنيا الواسعة الكروية الجميلة. لا، لم يعد يريد تركها أبداً، ففي هذه الدنيا الواسعة الكروية الجميلة تسكن إلزبت.

كان بوده قضاء ليلة أخرى في الجبل، لكن فيليپ كان يعاني أحلاماً مزعجة، ولم يعد يهدأ بأي طريقة، بل انفلت في عويل لا نهاية له. وقبيل ظهر الأحد الأخضر خرجوا في مشوار معاً لأول مرة.

ومعاً تعني هنا: إلزبت وإلياس، إضافة إلى الأخ الصغير المتخلف، وبيتر خفية دائماً، فقد لحق بهم منذ اليوم الأول، بعينيه أول الأمر، إذ رآهم على الدرب باتجاه الإمَّر، ولكن عندما اختفوا لم يعد يحتمل. ربما انتبه إلياس لوجوده من سماعه حفيفاً غريباً في الحرش، أو ربما شاهد ظل بيتر في البقعة الجرداء، أو أحس بأنفاسه من مسافة قريبة. على أية حال عرف إلياس أن بيتر كان يتبعهم على مسافات قريبة، ولم يأت على ذكر ذلك.

تحمم، سرق قميصاً بقبةٍ منشاة يعود لوالده، ووضع على صدغيه قطرتين من زيت وردِ والدته الذي تعكّر منذ مدة طويلة، لمّع حذاءه، وحفر على عصاه حرف E مرتين بأسلوب الباروك. هكذا استقبلها، وكان بوده أن يمنحها ذراعه لتشبك بها ذراعها الصغير عندما ينحدر الدرب ويصبح شديد الوعورة.

وزِف الذي كان في الأبرشية المجاورة يسوِّر بستاناً ربيعياً شاهد الثلاثة المتباينين، والتمعت عيناه بحنان عندما رأى السترة السوداء. ترك مطرقة الخشب تسقط من يده على الأرض، حرك شفتيه، زمّهما للحظة وكأنه يريد أن يقول شيئاً ما لابنه. كان بوده أن يصيح: «ألن تنسى أبداً، يا ولد؟» لكنه أمسك بأصابعه لحيته الخفيفة ذات اللون الترابي، وتناهت إلى سمعه مجدداً صرخات رومان لامبارتر، وعاوده الصداع المؤلم.

منذ جريمة القتل تلك ترك زف لحيته تنمو من دون تشذيب،

وكأنه يريد أن يخفي وجهه وراءها، برقت عينا إلزبت فضولاً. «هل المسافة طويلة حتى الصخرة؟» سألته بلهفة وحلَّت تنورتها الزرقاء المصنوعة من قماش الدامسكو.

«أحياناً تبدو لي بعيدة، وأحياناً أخرى تبدو قريبة» قال إلياس ماداً رقبته ومحاولاً إسباغ حركة راقصة على مشيته المتأنقة. وفيليپ الذي كان يسير وراءهما رأى ذلك بفرح وحاول أن يقلد أخاه، ما جعل إلزبت تضحك من قلبها.

ثم انطلقت مازحة: «يا صغيري فيليپ، لا شك أنك ستكون راقصاً جيداً، وفي المهرجان، عندما يأتي عازفو الكمان والدف، سنرقص معاً، أليس كذلك؟» ورفعت إلزبت الطفل وشدته إلى صدرها وأخذت تغني «شهر أيار ببهجته الحبيبة».

في تلك اللحظة تمنى إلياس لو أنه كان فيليپ فتحمله تلك الصبية وتؤرجحه. ثم صاح فجأة: «كفى! ثمة لحن يخطر ببالي!» سكتت إلزبت ونظرت إليه، فقال: «انتبهي الآن! أنت ستتابعين أغنيتك كالسابق، وأنا سأتدخل فوق اللحن وتحته. تمسكي باللحن ولا تشذّي عنه!» لم تفهم إلزبت ما كان يفكر فيه، وأرادت التوقف عن الغناء بسبب تدقيقه الشديد في الإصغاء إلى غنائها. ولكن بعد رجاءات ملحة طاوعته وغنت ثانية «شهر أيار ببهجته الحبيبة.»

وعندها حدث لأذني الفتاة أمر لا يصدق، بل ما يثير الخوف. فخلال غنائها دخل إلياس فجأة بصوتها هي على الغناء، فصعقت

الفتاة إلى درجة أن كاد فيليب ينزلق من بين ذراعيها. أمسك إلياس بكليهما بذراعيه القويتين وحاول بوجه يحمر خجلاً أن يبتسم في عيني إلزبت، قائلاً بصوت عميق: «كثير من الناس سيرتعدون عند سماعهم وقع أصواتهم» وتابع «ليكن بعلمك أني أعرف، تقريباً، جميع أصوات قريتنا» وأضاف هامساً «وقد اكتشفت أن بوسع الإنسان قراءة الشخصية بمجرد سماع صوتها فقط.» نظرت إليه إلزبت مرتعبة ولم تدرِ، أعليها أن تخاف من الإنسان نفسه أكثر مما تخاف من صفرة حدقتيه الفاقعة التي لم يسبق لها أن رأتها من مثل هذه المسافة القريبة.

«لماذا تشعرين بالخوف؟ أنا أعرف صوتك منذ مدة طويلة. إنه جميل ويمتلك روحاً طيبة.» ولكي يُبدِّد خوفها ويلهيها أسمعها بعض التجارب الهزلية من موهبته في التقليد، فأصاب الوقع المعدني الأقرع لصوت ميشيل الفحام بدقة دفعت إلزبت إلى الضحك مجدداً. وعندما أجاد تقليد الإحساس بالأنين الخافت لصوت الخوري، صاحت الفتاة من الدهشة. ثم سألته وقد استعادت طمأنينتها: «من أين لك هذا؟»

«الأمر كله مسألة سماع.» أجاب باعتزاز. «بإمكانك أنت أيضاً تقليد أصوات نساء كثيرات، إن أردت ذلك.» وكان عليه أن يعدها بتعليمها سر تقليد الأصوات.

أخذت كثافة أشجار الغابة تتراجع، ونما هنا وهناك في مواقع

مشمسة على الضفة قصب يافع. عكس سطح الإِمَّر الخضرة المشبعة للغابة المخلَّطة، وفاحت من الماء رائحة كوغِلْبرغ حيث ينبع الإِمَّر، الذي شق لنفسه خلال هذه السنة منعطفات مختلفة جديدة. وقد راقب إلياس المجرى الجديد بحزن واضح. فحيث كان يجلس في الصيف على منحدر معين على الضفة، لن يعود بمقدوره الجلوس أبداً لأن الجدول لم يعد يجري من هناك. وهذا التبدل المستمر لمجرى الجدول منحه إحساساً بالزوال، منحه إحساساً بزمن حياته.

«أترين الصخرة الكبيرة الملساء هناك؟» سأل إلزبت التي كانت تبحث عن إمكانية ملائمة لعبور الجدول.

«أين؟» سألته من دون انتباه. قفزت قفزة غير موفقة ووقفت بقدم واحدة في الماء. أطلقت لعنة فجة قصيرة، تمسكت بالعيدان وأنقذت نفسها نحو الضفة. أما إلياس فقد رفع فيليپ على كتفيه وعبر الإِمَّر بحذق وثقة.

«مكاني هناك في الأعلى!» صاح بصوت فيه شيء من المديح. وفيليب الراكب على كتفيه أطلق لدى سماعه هذه الكلمات صيحة حلقية خافتة، إذ أحس بالفرح في قلب أخيه.

كانت الصخرة التي جلخها الماء ثابتة في مكانها بجلال كعهدها منذ الأزل. وكانت تشبه نعل حذاءٍ هائلٍ متحجرٍ، وكأن الرب نفسه في غابر الأزمان قد خطا على هذا العالم خطوةً واحدة. ترك إلياس الفتاة تلتقط أنفاسها، أنزل الطفل عن كتفيه، خلع سترته ومدّها على

الصخرة، وجلسا عليها تاركين بينهما مسافة مناسبة، أخذ فيليب يعبرها بحيوية جيئة وذهاباً. حدق إلياس مدة طويلة وبثبات في الخضرة العميقة للبركة الصغيرة أسفل قدميه، وخيِّل لإلزبت للحظة وكأن لون عينيه قد صار رمادياً ضارباً للخضرة. إلا أن الأمر لم يكن سوى انعكاس الجدول.

«ما الذي يميز هذه الصخرة؟» سألته وهي ما زالت تلهث.

نظر إليها، ثم نزلت عيناه نحو شفتيها الجافتين ثم نحو حامل نهديها المعقود مصالبةً والذي ارتسم تحته نهداها الصغيران.

خجل من نظرته الفاحشة التي انزلقت من دون إرادته، وأراد أن يغمض عينيه، لكنهما لم تطيعاه. وعندما شاهد يديها الشاحبتين الراقدتين بقلق في حجرها، ثم عندما هبطت نظراته نحو ركبتها العارية، الظاهرة تحت ثنية تنورتها المقلوبة، ومرت نظراته على زغب ساقيها، كاد أن يغشى عليه، وصخبت في رأسه كلمات: «لا توقعنا في الغواية، بل نجِّنا من كل شر!» وسمع الخوري عن بعدٍ يعظ قائلاً: «لا يجوز للإنسان أن يشتهي المرأة بعينيه!» آه، إنه يريد أن يكون لإلزبت زوجاً طيباً وشريفاً! وإن أسعفه الرب والقديسون بالقدرة على ذلك، فإنه لن يشتهيها طوال حياته. وسيريها أن الحب الحقيقي لا يبحث عن الجسد، بل يكرِّس نفسه للروح.

«ما حكاية هذه الصخرة؟» سألته إلزبت وهي تربت على كتفه للمرة الثانية. فاستيقظ إلياس وبدأ يحكي: «من هذا المكان تنطلق

طاقة خاصة. بل كانت تنطلق منه دائماً. منذ أن كنت طفلاً كانت هذه الصخرة تناديني. وقد أطعتها، نهضت من سريري وجئت إلى هنا. أنا موقن تماماً من أن لهذه الصخرة حياة. ودائماً، كلما كنت حزيناً كانت تواسيني. قد تعتبرينني مجنوناً عزيزتي إلزبت» قال باضطراب وتابع: «لكنني مؤمن بأن الطريق من هذه النقطة يؤدي إلى الجنة. وأن على جميع أناس قريتنا عندما يموتون أن يهبطوا إلى هنا ريثما يفتح لهم الرب السحب.»

في أثناء حديثه هيمنت حولهم سكينة غريبة. هدأ فيليب وأخذ يحلق في أخيه بعينين حليبيتين. حتى إلزبت كانت ترنو إلى وجه إلياس النحيل من دون حركة. عندما رأى إلياس نظرة الفتاة إليه أحس مجدداً بذلك اليقين الذي انتابه في الجبل، عندما شعر أن عليه التشبث بالحشائش الليلية من شدة السعادة. وأردف بِبِشْر: «الإنسان المحب فقط هو الذي يرى الأمور بهذه الطريقة.» أما إلزبت فقد رأته بعينين ملؤهما الإعجاب والاندهاش الكبير.

لقد انجذبت إليه، فمثل هذا الكلام الأنيق، حيث لكل مقطع وقع الموسيقى، لم تسمعه من أي رجل سابقاً. دهشت إلزبت، وظن إلياس أنها قد وقعت في حبه في تلك الساعة.

لكن المحب الحقيقي فقط هو الذي يمكن أن يخطئ بهذه الصورة القاسية.

هبت ريح باردة عبر وادي الإمَّر فارتعدت إلزبت برداً. قرر

إلياس أن وقت الرجوع قد حان، أعطاها سترته التي اندست فيها مع ابتسامة شكر. لاحظ فيليب أن السترة طويلة عليها جداً، فأمسك بطرفي ذيلها بيديه الخرقاوين ومشى فخوراً وراء أميرته.

«ما رأيك إلياس» أرادت إلزبت أن تعرف «هل يوجد هنا عفاريت وشياطين؟» وأضافت بسرعة الحكايةَ التي رواها لهم المعلم ذات يوم في مدرسة القرية، وبحسبها تستريح الساحرات عند منتصف الليل على صخرة بطرس. كما أخبرهم المعلم أن امرأة منذ زمن بعيد كانت تعيش في إشبرغ، وكاد الناس بفارق شعرة أن يحرقوها.

«كثيراً ما تجولت في منطقة صخرة بطرس، وحتى ليلاً» قال إلياس باسترخاء وأردف: «لكنني لم ألتق بأي ساحرة. لا شك أن نداءات وأصوات حيوانات الغابة هي التي ترعب الناس»، ثم أضاف متفكراً: «وقد يكون الضمير هو الذي يعذب الإنسان الذي خرج يتجول وحده، فيهاجمه الآن بمئات الأسئلة حول الجريمة التي ارتكبها نهاراً.» ومع هذه الكلمات ظهر أمام عينيه وجه زف. لم تفهم إلزبت ما قصده، وقالت بنبرة قوية بأن الرب لن يسمح بشرور أكبر من قدرة البشر وأشد من قدرتهم على التحمل. وهي على يقين من وجود الشياطين، لكن للعذراء ماريا المقدسة القوة على طردهم. وقد أكدت لها ذلك السيدة الوالدة.

تابعا حديثهما، ووازنا معاً ما يؤكد وما يدحض الاعتقاد بالشياطين، ولم يحدسا بأن شيطاناً حياً يتبعهما: بيتر بخطاه الحريرية.

لم يستطع فهم ما تحدثا به، لكن وجهه الشقي علته سيماء قلب ذليل. هل حدث فعلاً أن وقعت الأخت في غرام البول الأصفر؟ رمق ثانية بنية إلياس النحيلة، نظر إلى شعره المنسدل حتى الكتفين وتطلع بشوق إلى صلبه. وقرر أن يُحضِر لوكاس آلدر في يوم أحد الفصح إلى الدار. وأمعن التفكير في بداية مناسبة للموضوع.

وتابع هذان الشخصان اللذان صارا صديقين حوارهما في موضوعات متعددة قبل أن يعودا إلى داريهما في وقت مبكر من المساء. أدهش ذكاء الفتاة إلياس، ولم يكن تعجُّبها منه أقل. في الجزء الأخير من الطريق بدأ إلياس يترنم بأغنية عاطفية، فدخلت إلزبت في الجو من دون وجل الآن، بل إنها لم تعد تشبع من الاستماع إلى غنى ابتكاراته اللحنية التي كان يضيفها على صوت غنائها، فوقه وتحته. عندما رافق الفتاة إلى سور الحديقة فاتحها برغبته بأن يصير ذات يوم عازف أرغن إشبرغ، فيما بعد، وإذا كان الشغل في المزرعة يسمح له بذلك، وإذا كان المعلم أوسكار آلدر سيعلمه العزف على الأرغن. ولكن ما كاد يومان أن يمضيا حتى أتاحت له فرصة سعيدة أن يقدِّم فنه إلى عالم إشبرغ.

في منتصف الليل استيقظ إلياس من نومه. كان يحلم، ورأى في الحلم أن إلزبت قد ظهرت له. كان نهداها عاريين وضغطتهما في راحتي يديه المفتوحتين. ويده التي ترقد عادة أثناء النوم على قضيبه كانت مبللة الآن. مد إلياس يده إلى الفِطر المشعِل وأشعل الشمعة.

نظر مشدوهاً إلى رقعة البلل الصغيرة في الشرشف، ولم يفهم ما جرى. وبعد أن أطفأ الشمعة نام بهدوء وسلام عظيم.

والآن لا بد من أن نروي ما جرى في يوم سبت النور وفي صباح الفصح التالي، فنفتتح بذلك في الوقت نفسه الفصل الأكثر سعادة في حياة بطلنا.

كما هو الحال في جميع أنحاء العالم المسيحي، احتفل الإشبرغيون عند منتصف الليل بمعجزة قيامة المسيح. وحسب عُرفٍ قديم يدخل الخوري ومساعدوه إلى صحن الكنيسة البالغ العتمة، فيشعلون ضوء شمعة الفصح وينقلونها بأيد حذرة من شمعة صغيرة إلى أخرى، إلى أن يضاء الصحن كله. ومن يتذكر الخوري بنتسر من مطلع كتيّبنا هذا، نسمح لأنفسنا بأن نخبره على هامش الحدث، بأن إشعال الشموع بطبيعة الأمر كان الجزء الأكبر أهمية في الاحتفال. والخوري بنتسر كان يستمتع بهذه العملية حتى النهاية الخطيرة، فبعض الفتيات الصغيرات المتعبات أو العجائز كانت الشمعة تحرق شعرهن.

وعلى نقيض ذلك اختصر الخوري بويرلاين العملية وأراد بعد إضاءة شمعة المسيح الثانية أن ينتقل مباشرة إلى موعظة عيد الميلاد. لكن من أعاقه عن ذلك كان ميشيل الفحام الذي عُيّن في تلك الفترة شماساً لإشبرغ. وكما نعرف، لم يعد بوسع الخوري أن يبدأ قداساً، ناهيك عن اختتامه. وبالمناسبة لقد أساء ميشيل الفحام استخدام وظيفة مساعد الخوري بطريقة طريفة، إذ صار يدس في كتاب قداس الخوري أوراقاً

عليها أشعار وقصائد قصيرة، لا غبار على مغزاها الديني، ولكن لا علاقة لها أبداً بالمضمون الرئيسي للطقس الديني. كان ميشيل الفحام إذن هو الذي أعاق الموعظة وذلك بأن غنّى بصوته المعدني الأقرع «المجد للرب في علاه». وكان على الأرغن الآن أن يعزف كورال القيامة بأعلى طاقة، لكنه صمت. وإلياس الواقف في الجانب الأيمن من صحن الكنيسة أصيب برعشة. إذ عندما كان أوسكار آلدر يرتجل مقدمته بعزف بليد وسمج، كان إلياس من باب المزاح يسمح لنفسه أيضاً بتخيل مقدمة والاستمتاع باستثنائيتها مقارنة بالأخرى. وكانت هذه وسيلته الوحيدة لتحمل الموسيقى العاجزة لعازف الأرغن. أما الآن فقد ساد سكون وانتظار متوتر.

وخلال ذلك كان العزف في مخيلة إلياس يسير ضمن سياق رائع، وفكر ببدء نشيد الكورال بالطريقة التالية: في البداية تنطلق الصافرات (بأكوردات) تآلفات عميقة بفارق ديوان (أوكتاف) واحد لتعبر عن آلام المريمات الثلاث عند القبر الفارغ، ثم يدخل الباص (الجهير) بخط شبه راقص بخطوات بالغة القصر ليرسم الإرادة الصلبة في تحريك غطاء القبر، والجزء الثالث يبدي اليقين بأن المسيح قد قام حقاً، وذلك بتصعيدٍ كالتهليل ابتهاجاً مع تآلفات بوقية.

وعند نشوة النصر يمتزج لحن الكورال الأساسي، مما يشكل تياراً عريضاً من انسجامات لحنية جريئة إلى حد لا يصدق. وجرأة الانسجامات هذه التي تعبر عما هو غير متوقع وما لا يصدق ستبرهن

للمسيحي الذي ما زال يساوره الشك على أن يسوع قد حقق المعجزة: القيامة من الموت. ويا لها من موسيقى عبقرية.

غير أن الفلاحين لم يسمعوا أي شيء من هذا كله. فبدأ بعضهم يتنحنح بنفاد صبر، والبعض الآخر ينظر بطرف عينه باتجاه شرفة الأرغن. وأخيراً حزم ميشيل أمره وبدأ بغناء نشيد الكورال. وهكذا احتفل الناس بقداس الفصح من دون موسيقى، ولم تثمر لكزات پيتر المستمرة في خاصرة إلياس وهمسه في أذنه محفزاً بأن عليه الصعود إلى الشرفة. ولمجرد التفكير بالأمر كاد أن يغمى على إلياس. أيمكن أن فرصته قد أتت؟ لا، غير ممكن!

قبل الوصول إلى هلّلويا الفصح تسلل أحد ثرثاري آل لامبارتر من الكنيسة متوجهاً إلى دار أوسكار آلدر، نظر من نافذة الحجرة التي أضيئت فيها شمعة بائسة فرأى العملاق مستلقياً على بطنه على الأرض وقد سال من أنفه دمٌ أسودُ مشكلاً بركة كبيرة. وكان هناك ست زجاجات كونياك مبعثرة حول العملاق – لقد سكر أوسكار آلدر حتى الإغماء.

سبق أن وصفنا المعلم بأنه رجل حسود، يعتبر نفسه موسيقياً مهماً. ولكن ثمة نقطة في شخصه تدفعنا إلى احترامه: كانت روحه تَطرب للموسيقى بعمق أصيل، فعندما آلم عزفه الناشز حتى أكثر الآذان غير الموسيقية، لأن الأرغن كان قد دُوزن حديثاً، فإنه لم يستطع احتمال ذلك ولم يبرأ من الحالة؛ ففي يده الخرقاء كان ينبض قلب

حساس. هذا هو ما دمّر أوسكار آلدر، وسنسمح لأنفسنا هنا بأن نستبق مصيره.

بعد الفصح بخمسة عشر يوماً وجدته زوجته ميتاً في الشونة. كان قد شنق نفسه بسلسلة معدنية تستخدم للعجول. وتحت قدميه وُجدت ورقة كُتب عليها بخط بدا يائساً إنه كان يرغب دائماً بأن يكون عازفاً ماهراً في خدمة الربّ. لكن الناس ازدروه وازدروا فنه، ولهذا فإنه سيذهب الآن إلى الشيطان – مما سيغضب الرب.

في صبيحة الفصح كانت القرية كلها قد عرفت سبب صمت الأرغن ليلاً. أحس إلياس بأن فرصته الكبرى قد أتت، ولهذا اتخذ مكاناً له مع بيتر على المقعد الأخير الذي يعرفه خير معرفة والذي يجلس عليه ماضغو التبغ العجائز. فمن هناك إلى درج شرفة الأرغن لا تزيد المسافة عن قفزة واحدة. كان ينتظر وقد ملأه الخوف، إذ يحتمل أن يظهر المعلم. لكن المعلم لم يظهر، ومرت ترتيلة «يا رب ارحم!» موحشة من دون موسيقى. وعندها جرؤ مع بيتر على الصعود إلى الأرغن.

ذُهلت رعية الكنيسة عندما صدح الأرغن عند ترتيلة «المجد للرب» فجأة بعزفٍ بهيج ملؤه الغبطة ليريها كيف على المسيحي أن يفرح بهذا اليوم. عزف إلياس لحناً فانتازياً قوياً، خماسي الأصوات، متناوبها، ينتهي مع لحن الترتيلة الكنسية. ولكن عندما بدأ بعزف نشيد الكورال الفعلي لم يكن هناك أي راغب بالمشاركة في الغناء،

فقد كانت صدمة الفلاحين قوية. ولهذا رفع إلياس عقيرته بصوتٍ جهير لغناء «المجد للرب».

وعندما مرت فترة الرعب تجرأت بعض الأصوات على المشاركة في الغناء، لكنها سرعان ما اضطرت للتوقف، فهذا النوع من الموسيقى تطلب منهم أقصى طاقات آذانهم، ولم يكن أناس إشبرغ معتادين على تقديم أقصى طاقاتهم في أثناء القداس.

واحتفل إلياس مبتهجاً. ألّف لحناً هادئاً بطيئاً ناعماً بالغ التأثير جعل الدفء يدب فجأة في أيدي الفلاحين الباردة. وشخَّص بموسيقاه صورة «يسوع يحتضر» بمؤثرات قتالية وأنهاها بخاتمة هائلة بناها على وزن خفقات قلب إلزبت. غادر الفلاحون الكنيسة بروح منتشية. فنفوسهم العنيدة جعلتها موسيقى عازف الأرغن خاشعة مسالمة، فلم يغادر أحد الكنيسة قبل الأوان، وهذه حالة فريدة، كما لم يحدث أي تدافع يُذكر عند جرن الماء المقدس. وبدا سلوك البعض أنيقاً فجأة، على غير العادة، وصاروا يؤشرون بأيديهم المكتنزة للآخرين كي يتقدموهم، وأدخلوا على تحياتهم – وهو ما لا يُصدق – كلمات بلكنة فرنسية.

«أنت شاب مبارك! لم أسمع في حياتي أجمل من هذه الموسيقى!» هتفت باتجاهه وجديلتها الصفراء كورق الشجر تتأرجح على عنقها. انحنى إلياس، غمس أصبعين في جرن الماء المقدس، التفت نحو المذبح وصلَّب.

«الخاتمة عزفتها من أجلك فحسب. أتعرفين أن قلبينا يخفقان بالإيقاع نفسه؟ أتعرفين أننا من نوع واحد؟» وما زالت إلزبت تنظر إليه بعينين ملؤهما الإعجاب، من دون أن تفهم شيئاً مما قاله لتوه.

«أتسمح الآنسة بأن أرافقها إلى دار والدها؟» سألها إلياس بسرعة، فقد كان هو نفسه مرعوباً من كلماته، ومدَّ لها ذراعه، فانحنت وثوبها يصدر حفيفاً خفيفاً، ثم تبخترا حتى دار نولف آلدر.

جحظت عينا بيتر من صحن الكنيسة المعتم، وكان فرحاً لأن لوكاس آلدر سيزورهم اليوم. وفعلاً نحو الظهر حضر لوكاس إلى دارهم، لكن إلزبت لم تبدِ أي اهتمام به، بل كانت طوال الوقت تحكي عن إلياس، وكيف حدث وأن صار بمقدور هذا الرجل أن يعزف بهذه الطريقة الشيطانية. لا، لم تبدِ اهتماماً بلوكاس. ليس بعد.

وعزفُ الأرغن الهائل الذي قدمه موسيقينا جعل إنسانين آخرين يتفتحا، وإنْ على نحو متناقض تماماً. أولهما الخوري بويرلاين، إذ عندما خرج من الموهِف داهمته فجأة وللحظة حالة تجلٍّ روحي عالية، فنظر نحو الشرق وتأمل في معجزة هذا اليوم، فأي تفسير عظيم قدمه في موعظة اليوم بحيث هيمن على رعيته مثل هذا الهدوء. وفكر الخوري ملياً في كيفية نجاحه بالأمر.

كما تفتحت زفين، المرأة المسكينة التي شابت قبل أوانها. وقفت عند جدار المقبرة والتفتت برأسها نحو الفتى والفتاة الماشيين متشابكي الذراعين وغرغر الدمع في مقلتيها. هل هذا ابني حقاً؟ ابني أنا ؟»

همست لنفسها، ثم أخذت تبكي ناسية الوقت.

ولم تعد إلى نفسها إلا عندما قرع فيليب بطنها بقبضتيه الصغيرتين، فأمسكت بيد الطفل المعتوه وتوجهت مسرعة نحو الدار. مساءً سمع زف امرأته تغني في الحظيرة. وكانت تغني أغاني الصبا، شخص واحد فقط لم يعد في قلبه مطرح للفرح، بل للكآبة، وفي نفسه نضج قرار الموت كتفاحة داكنة الحمرة. إنه معلم القرية أوسكار آلدر الذي أشرنا إلى مصيره سابقاً. جلس ساكناً على المقعد المجاور للمدفأة، دخن كميات كبيرة من التبغ ولم يستطع التوقف عن تعذيب نفسه بالإنصات إلى حكايات الثرثار اللامبارتي الذي جاء من فوره إلى دار المعلم عقب الظهور العجيب لعازف الأرغن الجديد.

وأخذ الثرثار يمدح أعجوبة الفصح بتهليلة بلا نهاية، فلقد أنجبت إشبرغ عازف أرغن عظيماً، وذات يوم سيأتي الناس من الأماكن البعيدة، حتى أنهم سيقتلعون سلخات من درفات نافذة دار آلدر ويقولون: «انظروا! لدينا سلخات من دار والد إلياس آلدر العظيم!» انطلق لسان الثرثار بأشياء من هذا القبيل، ولم يتوقف عن إظهار طربه بالأمر حتى طردته أخيراً امرأة أوسكار وقد غلبها الغضب.

ثمة كثير مما يجدر ذكره بعدْ من تلك الفترة الزمنية التي كانت بالنسبة لإلياس زمن السعادة القصوى: كيف بلغ مكانة رفيعة في القرية، وكيف كلفه الفلاحون بمهمة عازف الأرغن، ليس هذا فحسب، بل وبمهمة معلم المدرسة أيضاً، وكيف كان كل يوم أحد

يذهل الجميع بفن عزفه على الأرغن. كيف عقد مع إلزبت صداقة عمر، وكيف أخذ حبه لها يتعمق عاطفة يوماً بعد يوم، من دون أن يفاتحها بهذه العاطفة أبداً.

لكن الحسد لا ينام، وهكذا سرعان ما ارتفعت بعض الأصوات في حانة ڤايدْمَن محاولة التقليل من قيمة أسلوب عازف الأرغن الهائل، فهو يطيل في العزف، ثم إن عزفه عامة عالٍ جداً، ويرتجل موسيقى معقدة بدون طائل. وقد بلغ الاستياء منه ذروته في يوم أحد الموتى، حين توقف إلياس عن العزف فجأة، كي يجسد بالصمت انقضاض الموت السريع.

فعندها شعر الفلاحون بالصقيع يغمرهم من أعناقهم، وقد أدركوا جيداً ما أراد أن يبديه. لكن الأمر ليس معهوداً على الإطلاق في إشبرغ، وتذمر أحدهم قائلاً: لا يجوز أن ترعب الناس الخاشعين بهذه الطريقة، واستطرد بلاتينية مكسرة: «أنت لا شك فنان الحب والمعلم الأول الآن ودائماً!»

أما إلياس فقد كان يتهلل بهجة. كان في غاية السعادة، وعندما كان يستيقظ صباحاً كانت دموع الفرح تنهمر من عينيه اللتين ما زالتا ملتصقتين من أثار النوم.

كان يحب فصول الربيع، ويدافع عن الشتاء، ولم يعد الخريف في نظره دلالة على الموت. كان موقناً من أنه قد وجد خفقان قلب حبيبته التي رصدها القدر له. وقد قال ذات مرة لبيتر: «أيجب على البشر

المساكين أن يبحثوا ويتوهوا، متنقلين بهياج من عشيقة إلى أخرى، من دون أن يدروا أن الرب منذ الأزل قد رصد لكل منهم إنساناً بعينه، إنساناً يتصف بخفقان القلب نفسه. يا لهم من صِغار! إنهم أناس بلا ثقة بالله ولا يملكون من الصبر ما يساعدهم على الانتظار حتى يهديهم الله إلى المكان والساعة!»

صار إلياس للأطفال معلماً طيباً ومحباً، وبدؤوا يتوددون إليه بحنان تقريباً، رغم أنهم لم يتمكنوا بعد من تجاوز رهبتهم تجاه عينيه الصفراوين. ونادراً ما جرؤ طفل منهم على النظر في عينيه مباشرة. كان يغنّي معهم يومياً ويعلمهم على الأرغن كيف يفهمون صوره الموسيقية، فسر لهم الكتاب المقدس وكأنه حكايات، وأدخل في أذهانهم بإصرار أن الإنسان ليس الكائن الوحيد الذي يمتلك روحاً، بل الكائنات الأخرى أيضاً كالورد والحجر.

وعندما تتراجع درجة انتباههم كان يفتح أجفانهم المتعبة بأن يقلد لهم أصواتاً إشبرغية، وعليهم أن يحزروا من هو صاحب الصوت. وإن لم يستطع أحد الصغار دفع الجمعية، لأن الجوع يحتل داره، لم يكن يخبطه بالأرض، بل يأخذ سراً من جمعيات الآخرين بيضاً وخبزاً وجبنة ويعطيها للصغير وهو في طريقه إلى داره.

وإذا نسي أحد الأطفال في الشتاء جلب الحطب الإجباري لمدفأة المدرسة، لم يكن يعنفه، فقد لاحظ أنه لم يرتدِ حتى الجوارب في ساقيه الصغيرتين. كان معلماً شديد الانتباه، متيقظاً دائماً لاحتمال اكتشاف موهبة موسيقية لدى أحدهم. وقد اكتشف أصواتاً تمكّن من صقلها. لكنه لم يعثر على أي موسيقي، سوى فيليب المتواجد دائماً. لكن فيليب كان معتوهاً، ولهذا لا محالة من أن تذبل موهبته.

بيد أن هذا التودد الدائب إلى إلزبت، المرأة التي غدت مؤهلة للزواج، كان يتأكله كمرض خبيث. وقد تجلت أعراضه بداية في أمور صغيرة ظاهرية: فإنْ فُتح بابٌ فجأة كان يرتعب بعصبية بالغة، وإن شاهد امرأة من بعيد قادمة نحو الدار كان يتصاعد ارتفاع نبضه، وإذا سمع ليلاً ضحكاً نسائياً عند نبع القرية ظن دائماً وجود إلزبت بينهن. والموسيقى التي كانت أمراً بسيطاً دائماً بالنسبه إليه، باتت شاقة، وكان عليه أن يدرك أنه لم يعد يجد فيها عزاءه. عندما تسلم مهمته عازفاً على الأرغن صار يتدرب يومياً على الآلة، يعتني بها ويحافظ على جودة أوضاع المفاتيح. أما الآن فقد تحول الأمر إلى عبء ثقيل، لأن شغل المزرعة والمدرسة لا ينتهي. وعندما يقترب موعد آلام المسيح تستيقظ الحماسة الموسيقية مجدداً. فبالنسبة إليه كانت آلام المسيح دائماً مسألة موسيقية. ونكاد نقول إنها، عملياً، كانت تحفزه على التأليف. وكذلك أيضاً الفترة الضبابية حول عيد جميع الأرواح، حين كان يحاول المزج بين جو نوفمبر وعبق البخور وأردية الرهبان السوداء والتعبير عنها موسيقياً. كان ابن عصره وكان يحب كل شيء يمكن ربطه بصلةٍ ما مع الموت.

خلال سنوات انتظاره إلزبت ساكناً صامتاً تغير منظور إيمانه. فإذا كان حتى الآن مسيحياً يحكّم عقله في كل شيء، ولكن انطلاقاً من إيمان عميق، فقد أخذ الشك الآن يتخمر في دخيلته، لماذا لم يستمع الرب إلى صلواته الليلية يومياً؟ أكانت إرادته حقاً، أن يرى

إنساناً يتعذب؟ أكانت إرادته أن يقود إنساناً إلى الضلال؟ ألم يجعله يرى بطريقة عجيبة لمن هو مرصود؟ هل تخلى الرب عنه في آخر المطاف؟

في ذلك الوقت طوَّر إلياس تجاه مريم العذراء نوعاً من التقديس المتسامي على نحو فريد. فبدأ بجمع صور لمريم وسبحات وتماثيل صغيرة. وكان هوسه في عملية التجميع هذه جامحاً، إلى حد أن حث الصغار في المدرسة على أن يتخلوا له عن جميع أدوات التعبد المهملة في دورهم، وصار يجمع هذه القطع في حجرته وكأنها كنزه الأثمن.

فامتلأت الجدران بالصور، كما علق المسابح على سريره من جهتي الرأس والقدمين، وكذلك أكواز الذرة لتجف، وقد اتخمت الطاولة بتماثيل صغيرة من الخشب والجبس. مريمات ملونات وغير ملونات، برؤوس ومن دون رؤوس، حزينات ومشرقات – مريمات في كل مكان.

وعند دخوله الكنيسة لم يعد يركع على ركبتيه أمام قدس الأقداس، بل صار يذهب إلى مذبح أم الرب، يركع على ركبته – إن لم يكن هناك أحد – ينحني نحو طرف قماشة المذبح ويقبله بإيمان عميق. ومضى عليه وقت طويل وهو على هذه الحال، وكانت باقة الورود الطازجة دوماً التي تضعها نولفين هناك أسبوعياً تمنحه أملاً متجدداً. صحيح أنه لم يعرف حكاية باقة الورود، لكنه كان يعرف أن نولفين

هي التي تضعها هناك، وهو كان يبحث عن كل ما يمكن أن يرتبط بإلزبت بصلة.

وهذه الحالة النفسية الحرجة استدعت تدخل پيتر، فهو الوحيد الذي كان يعرف مدى حب إلياس لإلزبت.

في الوقت الذي وقعت فيه الحادثة التالية كان الصديقان قد بلغا الحادية والعشرين من العمر. حياة پيتر كانت مرسومة مسبقاً مثل حياة صديقه، حتى أنه لم يجرؤ على توقع أي فرصة قد تخرجه من الملل الذي لا يحتمل النابع من الحياة الفلاحية. في عيد ميلاده العشرين أخذه نولف معه إلى محام في فلدبرغ، كي ينقل إليه ملكية الدار والغابة والبساتين، وفي ذلك الحين استغرب الناس في إشبرغ كثيراً سلوك نولف، أن يبدي تجاه ابنه هذه الثقة اللامحدودة، فالأبناء عادة يرثون عند وفاة آبائهم. ولكن سرعان ما كان على نولف أن يدرك أن ظنّه في پيتر قد خاب. فبعد مرور أسبوعين على دخول عقد الإرث حيِّز التنفيذ نقل پيتر والديه إلى حجرة الأولاد، ولم يعد يسمح لهم بدخول غرفة المعيشة إلا بإذنه.

منذ هذه المصيبة صار الناس يرون نولف يتردد مجدداً على الكنيسة وبكل ورع، ما جعله موضع سخرية أكبر في القرية.

منذ ذلك الوقت كانت ميول پيتر غير خافية على أحد، وقد تجلى ذلك في معاملته لحيواناته. فبحجة التدبير المنزلي الجيد درَس بتطبيق تجربته على عدة بقرات مدة احتمالها من دون ماء. وقطع ذات يوم

ذيل عجل لمجرد أنه كان يخور طروباً. كما فقأ عيني خنزيرة حديثة الإنجاب بعد أن عضت اثنين من أولادها حتى الموت. وعندما يشبع من رؤية القسوة الصريحة كان يفكر بوسائل وطرق لتعذيب الكائنات من دون أن تفقد ثقتها بسيدها. وعندما ينجح في تحقيق ذلك كان ينظر بفم مرتخ وعينين نهمتين في عيني الحيوان الذي جن.

لم يكن بيتر رجلاً، ولحيته لم تنمُ. كان قصير القامة، تعلو وجهه بثور الجدري وجسمه صلب العود، شعره أجعد، وعلامته الفارقة هي ساعده المعطوب. عيناه تلتمعان بلون البندق، وهما عينان جميلتان لولا ارتعاشة نور الهاوية فيهما.

يصعب فهم الأسباب التي جعلت إلياس يعاشر هذا الإنسان الذي يعذب المخلوقات، وكأنها السبب في سأم حياته. ولا شك في أن طبيعة بيتر لم تبق خافية عنه، فقد توسل إليه مرات عديدة كي يقلع عن ذلك، أن يدع الحيوانات في سلام، ولا سيما عندما كانت إلزبت تخبره باكية عن هذا العمل الوحشي أو ذاك. ومع ذلك يبدو أن الشعور بالعرفان والوفاء في نفس إلياس قد رجحت كفته، فهو لم ينس قط وقوف بيتر في الماضي تحت نافذة حجرته وتعاضده معه.

وهذا الوفاء جعل منه الآن رغماً عنه شريكاً في أفعال بيتر الشريرة، وقد كان يعرف ذلك، لكنه لم يقم بأي فعل في مواجهتها، لأن ذلك كان سيفقده أهم صداقة في حياته، حدث ذلك ذات ليلة معتدلة من نوفمبر عند اكتمال القمر بدراً، وهي تلك الليالي التي يتمرد فيها

الصيف على الخريف ويجعل قلوب الناس قلقة، فلعلهم يعثرون على من لا يزال يبحث مثلهم. كانت القرية غارقة في نوم ما قبل منتصف الليل والغابات ترمي ظلالاً عملاقاً على البساتين والحدائق التي تتلألأ بزرقة ضوء القمر.

وكان پيتر البارحة قد أسرَّ لإلياس بغموض بأن عليه التواجد عند بركة الأيائل على سفح صخرة بطرس. وهو سوف ينتظره هناك ويجعله يرى ما كان يحلم به دائماً؛ سيريه الحب.

انطلق إلياس من غير تلكؤ إلى المكان الموعود وقد هيَّجه كلام پيتر. كانت هناك في الغابة بقعة جرداء، أرضها مستنقعية بعمق كاحل القدم، وقد اعتادت الأيائل والغزلان أن تمرّغ نفسها في مثل هذه الأماكن. عندما وطأ إلياس البقعة الجرداء شمّ رائحة دخان تبغ. وجد الأمر عجيباً. ثم رأى پيتر متكئاً على جذع شجرة وهو يسحب نفساً سريعاً من غليونه. حياه پيتر بصوت منفعل جعل إلياس يستشف منه سوء النية.

في الوقت نفسه كانت امرأة وحيدة تجهز نفسها لنزهتها الليلية. إنها بورغا لامبارتر التي سبق أن قلنا عنها إنها تحب الحياة والناس، فجعلوا منها لذلك عاهرة القرية.

في كارثة الحريق التهمت ألسنة النيران دارها، فاضطرت إلى العمل كخادمة عند ابن عمها ڤالتر في المزرعة المسماة العتيقة. ووقعت هناك في غرام أخيه غوتفريد بشكل فضائحي. وكان هذا رجلاً طويل

القامة، نحيل البنية ويعاني الصرع منذ الطفولة. كانت القصة حديث القرية كلها، وما كانت تعرفه القرية كلها أيضاً هو أن الرجل المعني قد فقد خصيتيه في أثناء حادث وقع في الدار. وعلى الرغم من ذلك أحبته بورغا. فعندما كان يدخن غليونه يوم الأحد بعد طعام الغداء كانت تستمتع بتشمم دخان تبغه، وهي جالسة على مقعد النافذة، تنظر إلى حبيبها غوتفريد وقد ملأها السرور.

كانت بورغا امرأة في كامل تفتحها، ذات وجه وضيء وشعرٍ أشقر مضفور في جدائل ثخينة. سلّمها ميشيل الفحام رسالة صغيرة مختومة – فهو جاهز لتنفيذ أي شيء يمكن أن يجلب له المال – وقد كُتب في الرسالة بخط جميل على ورق فاخر أن غوتفريد يريد لقاءها عند منتصف الليل في بركة الأيائل، إذ إن لديه أموراً في غاية الأهمية يريد أن يخبرها بها. وبورغا لم تشك ولو للحظة واحدة في صحة الرسالة الصغيرة. فقد تعرّفت في الرسالة الصغيرة بكل وضوح على خط يد غوتفريد. لقد كانت خطة بيتر محبوكة جيداً.

وعندما مشت نازلة عبر البساتين والحدائق التي تومض بلون أزرق، كانت تتوقف مراراً وقد غمرتها سعادة ما قبل اللقاء، فتخرج الرسالة الصغيرة من تنورتها وتملأها بقبلات مجففة. ثم شمت رائحة تبغ، فارتعد جسمها بكامله. «غوتفريد؟» همست بشوق باتجاه البقعة التي غمرها القمر بضوئه. «غوتفريد، أأنت هنا؟» على الرغم من أن بورغا لم تكن تخاف من العتمة – فهي كانت تقضي مشاويرها

غالباً في الليل – إلا أنها شعرت الآن بالخوف.

انتظرت وأنصتت ولم تسمع أي صوت. «غوتفريد!» قالت تشجع نفسها «هذه أنا، حبيبتك بورغا! أنا هنا! هيا اخرج!».

ارتفع صوت غوتفريد في العتمة: «ادخلي حيز الضوء بورغا! أريد أن أراكِ!» أخذ قلب بورغا يدق عندما دخلت البقعة الجرداء. «المكان هنا رطب!» وابتسمت خائفة «لماذا لا نختار لأنفسنا مكاناً أفضل؟» والتفتت برأسها في جميع الاتجاهات كي تكتشف مصدر الصوت. «هيا إخرج الآن!» طالبته الآن بصوت تشوبه سمة غضب «أعرف أنك واقف وراء شجرة التنوب!»

«يا لكِ من امرأة جميلة» قال الصوت من العتمة، «أتعرفين أني أشتهيك منذ يوم مجيئك إلى الدار؟»

«ما هذا الكلام الذي تقوله؟» ردت بورغا بحيوية وخاضت في الوحل العميق حتى الكاحل.

«ابقِ واقفة في الضوء!» صاح غوتفريد، ورن الصوت على نحو مطابق تماماً بحيث اختفت بقايا شكوك المرأة.

«سأبقى واقفة هنا» قالت بنغمة صبية صغيرة وشبكت ذراعيها حول بطنها.

«هل شعرتِ نحوي بالحب يوماً ما؟» سأل الصوت بحزن. فترددت بورغا مندهشة. فسأل الصوت بعمق أكبر: «أخبريني، هل

شعرتِ نحوي بالحب يوماً ما؟»

هذا السؤال أصاب المرأة العاشقة في الصميم، وأخذت تبوح بما في داخلها من دون أي حرج: «عندما أدخل سريري وألاطف الوسادة أتمنى لو أنها رأسك يا غوتفريد. لا يحق لك أن تسخر مني أو أن تحكي للآخرين عني، ولكن عندما كنتَ تترك صحن طعامك، كنتُ سراً آكل البقايا. وكثيراً ما كنتُ أذهب إلى غلايينك وأتشمم رائحتها، ثم أتصور: كم ستكون سعادتي كبيرة لو أن الرب...»

«لا أصدق كلمة مما تقولين.» صاح غوتفريد غاضباً. «أنت تذهبين وتنامين مع الآخرين، ترتكبين الخطيئة معهم! فكيف تزعمين أنك تحبينني؟»

صمتت بورغا، ولم تفهم حتى الآن اللعبة المخيفة. ولكن كان يفترض بها الآن أن تفهمها، لأن غوتفريد الحقيقي ما كان ليكلمها بهذه الطريقة أبداً. ثم أنها عزت أسلوبه المفاجئ في الهذر إلى تأثير الليلة المقمرة الساحرة. إضافة إلى ذلك هناك مثَل قديم في إشبرغ، كانت تؤمن به ببراءة الطفولة: (من أقْمَرَ أهذَر، وإن قرَّب الملاكُ ما بين اثنين، أبعدَ بالموتِ ما بين آخرَين.)

«إذا كنتِ تريدين أن تكوني لي حقاً» تابع الصوت من العتمة «فدعيني أراكِ. عرّي جسدك الجميل، وعندها سأصدقك.»

وإلياس الذي كان مستلقياً مع بيتر وراء مجموعة شجيرات شوكية

بدأ مع هذه الكلمات يفأفئ، فضغط پيتر بيده على رقبته بقوة كيلا يفسد اللعبة.

«سأفعل ما تطلبه مني إذا وعدتني بأن تصبح زوجي خلال سنة.» أجابت بورغا بهدوء.

وأقسم إلياس بصوت غوتفريد، أقسم بالقديسين والرسل وبأرواح جميع الموتى من آل لامبارتر. وبدا أن إلياس كان يطيع پيتر لا إرادياً، فيكرر كلماته وكأنه منوَّم.

بدأت بورغا بخلع ثيابها. «جسمي هو أقل ما يمكنني أن أريه إياه.» فكرت ولم تعد تخشى العري. رفعت الوشاح عن كتفها ووضعته بحركات ناعمة على غصن جاف مكسور. ولم تكن أقل نعومة عند فكِّ مشد الصدر، فقد أرادت أن تكون موضع إعجاب غوتفريد في كل شيء.

هبت نسمة دافئة حركت ذرا الأشجارمولدة حفيفاً هادئاً وعميقاً. فردَت بورغا مشد الصدر، فرأى الرجلان نهديها الكبيرين الحسني التكوين الناعمين كالحرير ينفران. ثم انحنت إلى الأمام كي تمسك بتنانيرها، فنزل نهداها وشكلا إجاصتين ممتلئتين ناضجتين.

تراقص ضوء القمر على شعرها المضفور وجعله يلتمع كورق الفضة، وسال الضوء على كتفيها العريضتين البيضاوين وانداح على بشرة ظهرها البيضاء، وهناك حيث ينتهي العمود الفقري في حنية ناعمة تشّكل ظلٌ عابر. أمسكت التنورة الأولى وسحبتها بيدين بالغتي

الهدوء عن جسمها وكأنها وحدها. ورأى إلياس كيف نهد ثدياها عندما سحبت التنورة إلى الأعلى، ورأى كيف انتصبت حلمتاها.

شعر بجفاف في فمه ولم يجرؤ على التنفس. وعندها أمسكت المرأة بالتنورة الأخيرة، سحبتها من فوق رأسها فصارت عارية. وقفت ساكنة بساقين مضمومتين وذراعين مرتخيتين بميوعة. كانت العروق القوية بادية بوضوح في يديها، وبطنها الممتلىء الخصب كان يتمدد مع تنفسها فيصبح مكتنزاً وناعماً.

حدق إلياس في حوض المرأة العريض، ولم يعد قادراً على رفع بصره عن عانتها الكثيفة الشعر. لم يسمع ما هُمس في أذنه بشفتين حارتين، ولم يفق إلا عندما قرصه ببتر في ذراعه.

«ما زلت لا أصدقك!» صاح غوتفريد من وراء الشجيرات الشوكية، «عليكِ أن تخوضي امتحانين بعدْ، فإن نجحت في هذين الامتحانين سنكون في هذا الشهر زوجاً وزوجة.»

صمتت بورغا بصبر، «على الزوجة أن..» قال غوتفريد بفواصل طويلة ما بين الكلمات «تخضع لزوجها في جميع الأمور. برهني على أنك قادرة على طاعتي!»

«سأفعل ما تطلبه!» قالت بورغا بثقة تامة.

«فكي ضفيرتك!» أمرها غوتفريد بصوت ذي وقع مطابق. وبينما كانت بورغا تحل ضفيرتها طار شيء لماع أمام قدميها.

«خذي السكين وحزي بها شعرك!» لم تتردد بورغا لحظة واحدة، تلمست مكان السكين وحزّت شعرها. إلى هذا الحد الكبير بلغ حبها لغوتفريد. «والآن» قال الصوت برجفة «استلقي في الوحل! وتمرغي فيه كما تتمرغ الأيلة.»

«لماذا تطلب مني مثل هذه الأمور؟» قالت بورغا بلجلجة المذلول: «ألا يكفي؟»

«نفذي ما أقول، وإلا فإنك لن تصبحي زوجتي أبداً!» صاح غوتفريد.

ركعت المرأة العارية على ركبتيها، غطست يديها في الوحل ولطخت وجهها، ارتمت على بطنها فيه ومرّغت نفسها وبدأت تبكي بصوت عال وبائس. فسمعت فجأة ضحكاً خفياً، صمتت ونظرت حولها بارتياع في كل الجهات. وعندها ارتفع الضحك إلى حد رددت صداه الجدران الصخرية. انتفضت بورغا من الوحل وصرخت بصوت يائس: «أيها الكلاب! أيها الكلاب!!» ولم تستطع أن تتبين سوى ظلّي رجلين مسرعين باتجاه الوادي. لحقت بورغا بهما، لكن سرعان ما كان عليها أن تتوقف، فقد جرحت قدميها بأشواك الشجيرات.

وقفت هناك، مقصوصة الشعر، معولة وعارية. وهي عملياً لم تفعل سوى الإيمان بأن الملاك في ضوء القمر يقرِّب ما بين اثنين يحبان بعضهما بعضاً.

«هكذا هي المرأة!» زمجر بيتر منتصراً، عندما تأكد أنه نجا من الملاحقة. «المرأة غبية وساذجة. لينة الجانب وجبانة. وفي سبيل الحب» أضاف بلهجة مسرحية: «تفعل كل شيء!» ثم اقترب من فنان الأصوات الذي كان يرتجف من الإعياء، حتى كاد أن يلامسه وسأله بغضب: «لماذا ترتجف؟» وأردف «هذه المرأة تستحق مثل هذه المعاملة! إنها عاهرة، وقد رأيت ذلكَ بأم عينك!»

«أيتها العذراء المقدسة، ماذا فعلتُ ؟» قال إلياس متلعثماً وانفلت يبكي. أمسك بيتر رأس الباكي بين يديه وأخذ يقبّل شفتيه النحيفتين. مرَّر يديه بشوق على كتفيه وصدره متلمساً طريقه إلى قضيبه، ثم همس بغموض «يستحسن أن نموت هنا، في هذا المكان.» ثم دفع عنه إلياس بصرخة هائلة واختفى في عتمة الغابة.

فجرت الجريمة بحق المرأة البريئة في نفس إلياس شعوراً مريراً بالذنب، فالتجأ إلى الصلاة بحثاً عن الخلاص منفقاً ساعات نومه القليلة في تراتيل وتسابيح لا نهاية لها، لكنه لم يستطع التخلص من صورة المرأة العارية في ضوء القمر، من الثديين المكتنزين كإجاصتين، من العانة اللماعة كالفضة. عذّب نفسه كي يطرد الصورة من مخيلته، غير أنها كانت تُبعث من جديد كل ليلة. فتش عن الغفران في العزف على الأرغن، لكنه ذعر عندما أدرك أنه قد صار شخصاً آخر. بدأ يستعذب وضع موسيقى تعارض قوانين السماع.

وكان يعرف بالحدس أن التنافرات الصوتية، إن لم تُذوَّب، تبقى

في حيز الخطيئة والمحرَّم. وبما أنه لم يعد قادراً على التصالح مع نفسه ولا مع العالم ازداد عزفه امتلاءً بأصوات متنافرة. لقد اكتشف الخطيئة وراح يتذوقها بمتعة. وعزفه الذي كان بسيطاً اكتسب الآن قوة شيطانية.

وماذا عن بورغا؟ كانت تعرف أنه لا يوجد في القرية سوى شخص واحد يستطيع تقليد أصوات الإشبرغيين. كما خمَّنت أن الظل الثاني كان ظل بيتر. لكنها لم تذكر كلمة عما حدث لأي أحد، حتى أنها لم تتهمهما ولو بعينيها. وكذبت على ابن عمها قائلة إنها تعاني من تساقط الشعر، فكان لا بد لها من أن تقص ضفيرتها. ثم عادت بصبر إلى حياتها اليومية. هذه هي طبيعتها.

عندما كان يدخن غليونه يوم الأحد بعد الطعام كانت تتشمم دخان التبغ راضية النفس، وتنظر إلى حبيبها غوتفريد وهي مسرورة. كانت تحب الناس والحياة. ولا يمكن لأحد أن يفسد عليها هذا الحب.

بوارق الأمل

للمرة الثالثة في يوم أحد ما قبل الفصح يدفع زف آلدر باب غرفة الأولاد، حيث يستلقي إلياس في سريره بحرارة مرتفعة وشعر مبلل بالعرق وبعينين مفتوحتين محملقتين. أوقف زف تنفسه، فقد كان الهواء ضباباً أصفر ضارباً إلى البني، من البخور ودخان شموع الشحم الأبيض الكثيرة التي أحرقها مريض الحب حتى الثمالة ليخفف من لوعته.

توجه زف نحو الكومودينة الصغيرة، أزاح المريمات الجصيّات جانباً وكذلك التماثيل، ووضع حبات البطاطا المقشورة الأربع، إضافة إلى قطعة جبن أزال قشرتها بنفسه. ويبدو أن هذا هو العزاء الوحيد القادر على تقديمه إلى ابنه الذي ما زال يحبه، فهو لم يكن يجيد التعبير عن نفسه بالكلام.

ولكن اللعنة، عليه اليوم أن يتحدث معه، قال زف لنفسه بحنق، عندما رأى ابنه مستلقياً هناك في هذه الحالة البائسة. اليوم سيطلب منه بصراحة أن يسامحه عن تلك الجريمة القديمة بحق نحات الخشب رومان لامبارتر، فهو يمتلك الآن أخيراً الجرأة على ذلك. نعم، بل أنه سيركع أمامه، إنْ طلب الولد ذلك. لا بد من أن يقول له إنه لم يكن مجرماً حقيقياً، بل إن أخاه نولف هو الذي حرضه آنذاك على إشعال النار في جسم لامبارتر وهو حي. ويجب على إلياس أن يفهم

أن العائلة في تلك الليلة كانت تقف أمام دارها التي أكلتها النيران، أمام لا شيء. عليه أن يفهم ذلك. إنه ليس مجرماً حقيقياً.. غطى زف جبهته بيده وضغط ثلاثة أصابع على صدغيه. فقط لو أن هذا الضحك المريع في رأسه يتوقف. هذا الضحك المريع.

«السوداء ولدت»، قال بثقل. ارتفع رأسه، وبالكاد تحركت شفتاه المتورمتان. «ولدت عجلاً، بالأمس بعد الانتهاء من تلاوة المسبحة.»

بقي إلياس ساكناً في مكانه وهو يحدق في ألواح السقف المائلة باتجاهه.

وبعد برهة صمت طويلة قال زف: «كانوا يتحدثون بشأن عزف الأرغن اليوم. سألوا إنْ كنت مريضاً؟» انزلقت نظرته على الجسد الأشبه بجثمان، وقال محاولاً تشجيع ابنه: «كلْ، إنها ساخنة!»

أمال إلياس رأسه جانباً، لم يرغب أن يأكل. لاحظ زف أن عينيه المبحلقتين قد تبللتا بالدمع، وعندما رأى دمعة صامتة تسيل، لم يتمكن إلا بصعوبة من منع عينيه عن البكاء. أيعقل أن يحدث هذا، أن يتألم الرجل ويحزن بهذا الشكل من أجل امرأة؟ هكذا فكر زف. لا يجوز للرجل أن ينزلق إلى هذه الدرجة. ها هو مستلق في حجرته منذ أربعة أيام، في هذا القبر الخانق، لا يأكل، لا يعلّم الأولاد، وكل هذا بسبب إلزبت هذه.

«اللعنة، يجب على الرجل أن يكون قوياً!» قال فجأة وبصوت

عالٍ، ولأنه لم يعد يحتمل مشاهدة ابنه الساكن الباكي أمامه، حاول أن يواسيه بكذبة اضطرارية.

«إلزبت تتمنى لك الشفاء العاجل» قال ذلك بصوت كاد أن يكون حنوناً ودافئاً. فرأى عند ذكره كلمة إلزبت كيف أغلق إلياس جفنيه وكأن الطبيب قد أعطاه أخيراً الدواء الضروري.

«هل هذا صحيح؟» سأل إلياس بصوت متهدج، تنحنح طويلاً، فهو لم ينطق بكلمة منذ أربعة أيام. «قالت إنها تتمنى لي الشفاء العاجل» كرر وقد هدأت ملامح وجهه. أخذ الدواء يُظهر مفعوله.

ابتسم زف وتابع يُلفِّق على المريض كذبات كبيرة: إلزبت حزينة بسبب غياب عازف الأرغن. كانت خلال القداس ترفع رأسها باستمرار نحو الشرفة، جلوسها على المقعد كان قلقاً، وكانت تقلّب صفحات كتاب الصلوات بنفاد صبر، فلم تتمكن من أداء صلاتها. كان وجهها يعبر عن خيبة أملها، مثل كثير من الوجوه التي خاب أملها أيضاً، فالجو في الكنيسة من دون عزف الأرغن الممتاز بات بارداً ومقبضاً.

أثناء كلام زف نهض إلياس في سريره، هز الوسادة، وضعها وراء رأسه، وضغط رأسه عليها فصدر عن حشوتها من الأوراق الجافة صوت خشخشة مريح. بعد أن أنهى زف كلامه امتدت في الحجرة مجدداً فترة صمت طويلة. ولكن لاحظ زف أن النظرة الزائغة قد زالت من عيني المريض. وعبر طرق ملتوية مضنية باح زف بكل شيء، بكل

ما كان يلاحقه ويعذبه منذ سنوات. لقد أخبر الأب الابن. ولأول مرة عادا يتبادلان الحديث مع بعضهما. بعد أن انتهى زف من كلامه ساد في الحجرة سكون دام أكثر من ربع ساعة. وفي أثناء صمتهما استرجع إلياس من ذاكرته من أيام الطفولة، كيف أخذ ذات مرة من أبيه قبعة الحظيرة، وصار في الليالي الصعبة يتشمم فيها رائحة العرق البارد والشعر ورائحة الدواب إلى أن يستعيد هدوءه.

ثم نظر كل منهما في عيني الآخر بصراحة. أحس زف بأن إلياس قد سامحه، فتهلل قلبه فرحاً وعرف أن الصراع المؤلم سيزول الآن نهائياً. ومنذ أحد ما قبل ذاك الفصح التمع في عيني زف بريق الأمل الهادئ. لقد انتهى زمن تجنبهما بعضهما البعض وجاء زمن السلم.

وصار بوسع زف الآن أن يشتغل وهو سعيد، فصداع الرأس الواخز قد انتهى فعلاً. وبدا له أن الضحك أيضاً قد خفَت، وكأن الميت قد وجد راحته أخيراً. ومنذ ذلك الحين تملكت زف فكرة تجديد الدار وتوسيعها. وأراد أن يذهب في الربيع إلى سوق الدواب في هووِّنْبرغ ليشتري ثورين وبقرة. وبعدها لا بد من تجديد مستودع الحشيش اليابس وتوسيع حظيرة الخنازير، إذ أنه يريد إضافة إلى الدواب أن يشتري خنزيرتين ولودتين. وفي بستان الدار لا بد من زرع شجر تفاح وإجاص، ففي هذا صفقة رابحة للمستقبل، وفي عيد مارتين يمكن بيع نبيذ الفاكهة الطازج في دورْنْبرغ، إذ يقال إن أهل المدن عامة يشترون بأسعار غالية...

بعد أسابيع كثيرة دخل ربيع عام 1825 واختفى زف آلدر. وآخر ما كان لدى زفين من أخبار عن مكان وجوده هو قوله لها بصورة غير محددة إنه ذاهب إلى الغابة الجديدة كي ينظف الأرض ما بين شجيرات التنوب. وقد وسع الفلاحون حملة بحثهم عنه، بل مشّطوا الغابة من جميع الجهات نزولاً حتى غوتسبرغ، ولكن لا أثر لزف آلدر. وعندما لم يعثروا عليه حتى في اليوم الرابع من التفتيش، نظم الإشبرغيون ثماني مجموعات، كل منها من رجلين لتمشيط المنطقة بصورة منتظمة من كوغلبرغ حتى بداية الوادي. بعد ظهر اليوم نفسه كان فيليب يلعب في المرج مع قطته غربي مزرعة آلدر. وبدأت القطة بقفزات خفيفة ملاحقةَ حيةٍ غير سامة أسرعت باتجاه مستودع الخشب ودخلته عبر لوح متداع. وهناك وجد الطفل المتخلف أباه. كان منثنياً منهاراً فوق كومة حطب، وجانب فمه الأيمن متدلياً بارتخاء، واللعاب يسيل منه، وكانت كتفه اليمنى متدلية نحو الأسفل ويده اليمنى مزرقّة وهامدة. ولكن عينيه ما زالتا تومضان ببريق الأمل. صار فيليب يتقافز حول أبيه ويطلق أصواتاً وصيحات تعبيراً عن سعادته، أخذ يضحك وأراد أن يلاعب أباه.

كان فريتس، الابن البكر، على وشك الانطلاق مع لوكاس آلدر في مجموعة تفتيش، عندما عثر على أبيه خامداً. لقد أصيب زف بالسكتة وهو في الثامنة والأربعين، وبقي يعاني شللاً نصفياً حتى نهاية حياته. وفريتس الذي لم تصلنا عنه أي كلمة بقي الآن أيضاً صامتاً.

لا معنى لأي أمل مهما يكن. فلا يخطرنَّ ببال إنسان التفكير بتحقيق أحلامه. بل عليه إدراك عتْه الأمل، فإن أدركه يجوز له أن يأمل. وإذا كان لا يزال قادراً على أن يحلم، فسيكون لحياته معنى.

وفي عيني إلزبت أيضاً في ذلك الوقت كان يومض بريق الأمل. فقد تخطت عيد ميلادها السابع عشر وكانت مسرورة وسعيدة كما لم يسبق لها في حياتها قط. وبدأت في ذلك الحين بأشغال تطريز بأسلوب الدامسكو، وسرعان ما اكتشفت مهارتها الكبيرة في الأشغال اليدوية. اشتغلت في البداية والأجر عند الرب، بل صارت تهدي أقمشتها الفنية والأغطية الصغيرة.

ثم أجبرها بيتر على أن تعرضها للبيع في غوتسبرغ وأن تساوم في سعر بيعها بحيث تحقق ربحاً. وعلى الرغم من أنها لم تحظَ بشيء من المال لنفسها، إلا أنها كانت راضية، كان أجرها الكافي هو صيحات إعجاب نساء غوتسبرغ «جميل! جميل!» أو «آه يا لروعته!»، في ذلك الوقت فكرت الفتاة كثيراً في أمور الحب، فقد كان قلبها مملوءاً بها.

وإلياس الذي كان يرمي بكل كلمة تنطقها إلى كفة الميزان دائماً، رأى في ذلك علائم تحقيق حياته. وعلى الرغم من الصداقة المتينة التي كانت تربطهما ، كان يخفي كل منهما عن الآخر أهم خلجات أحاسيسه. وقد كان هذا أهم ما يميز آل آلدر، ويمكن للمرء أن يضيف منصفاً، إنها سمة منطقة فورآرلبرغ عامة. ما كان لأحدٍ من آل آلدر

أن يثق بإنسان لدرجة أن يبوح له بحبه، فعلى كل شيء أن يجري من دون كلمات، وفي الحالات الاضطرارية بتنويهات وإشارات مبتسرة.

كان هؤلاء الناس عاجزين عن الكلام، بل معقودي الألسن حتى الموت.

بودّنا وبقبضة غاضبة أن نمسك بهذا الكيان، النحيل الأسود المحموم الزائغ التائه ذي العينين الصفراوين والشعر الطويل الخفيف، من كتفيه ونصيح في وجهه: «كفى، تكلم! أخبرها عن حالك! أن تعرف الحقيقة أفضل من أن تحلم كذباً!» لكن الأمر لن يجدي شيئاً.

ولو تضرعنا إليه من أجل موهبته العبقرية، فإنه سيبتسم بمرارة فحسب، فهو فعلاً لا يعرف أنه موسيقي هائل.و حتى إنْ عرف، سيبقى الأمر بلا جدوى. سيحدق فينا بعينين غاضبتين ويسأل بلهجة مشحونة باللوم: «أوليس الحب أهم من أكبر عبقرية في العالم؟» وعلينا أن نخرس. ولأننا نعرف ذلك فإننا لن نمسك به من كتفه بقبضة غاضبة.

صادف أن إلياس كان ذاهباً بعربته التي يجرها ثوران إلى غوتسبرغ ليشتري ملحاً وزيتاً للفوانيس ولوازم خياطة وتوابل بتكليف من أهل إشبرغ. سابقاً كان ميشيل الفحام هو الذي يؤدي هذه المهمة، إلا أن الناس اكتشفوا أنه كان يسرق قروشاً كثيرة وبصورة منتظمة. ولهذا امتنعوا عن تكليف ميشيل بالذهاب بالعربة إلى غوتسبرغ.

وصادف أن إلزبت في هذا اليوم تحديداً كانت تريد الذهاب إلى غوتسبرغ لتعرض هناك أشغالها للبيع. كان صباحاً بارداً من شهر مايو. وقد شوهد على المنحدرات الشمالية أحد آل لامبارتر يحش الحشيش الجديد القليل. كان الوقت مبكراً جداً لهذا الأمر، لكن مؤونة الشتاء استهلكت، والدواب تعاني الجوع.

وإلياس بسترته السوداء الطويلة كان منهمكاً بشد الأحزمة إلى العربة عندما اقتربت منه الفتاة. كان جمالها لا يوصف في ذلك الصباح لدرجة أنه سمع خفقان قلبه في رؤوس أصابعه. كان شعرها الأصفر كورق الشجر مسبلاً من دون أي رباط، وكانت شمس الصباح تتلألأ على شفتيها، أما عيناها فكانتا صغيرتين وغارقتين في النعاس. علا وجهها شحوب غير معتاد، رغم دكنة بشرتها. لاحظ إلياس ذلك وسألها بإسهاب عما إذا كانت مريضة وعما إذا كانت قادرة فعلاً على تحمل الطريق إلى الوادي. كان يتكلم بصوت خافت يكاد يكون همساً.

وكانت هذه عادته منذ أيام الطفولة، فصباحاً يكون سمعه في أعلى درجات الحساسية. وكم كان يعاني عندما تبدأ زفين في الصباح الباكر بالشغل في المطبخ بصوت عالٍ وحركات تصدر قرقعة.

«تباركَ يسوع المسيح» قالت إلزبت من دون أن تجيب على أسئلته، وضعت السلة على الأرض ولفت غطاءها الصوفي الرمادي

حول كتفيها وشدته ثم قالت: «هل لي بالركوب؟»

رد إلياس تحيتها. جلسا على مقعد العربة وانطلقا. كانت الدواليب تئن، والبخار يتصاعد من وبر الثورين. وبالكاد تبادل إلياس وإلزبت كلمتين، والسبب كما يبدو هو بكور الصباح، حينما يجب أن تتجمع أفكار البارحة حول اليوم. لكن الأمر كان غير ذلك.

في ذلك الوقت لم يعد إلياس يأمل بإلزبت، فقد انتشرت في القرية شائعة حول عرسٍ وشيك في إشبرغ. لم يكن ثرثار آل لامبارتر هو الذي نشر الشائعة، وإنما نولف آلدر بنفسه، إذ كان يرغب بلوكاس آلدر صهراً له. فلوكاس ينتمي إلى أغنى دار في إشبرغ، وهو شاب ضخم مكتنز اللحم، لكنه ليس خشناً ولا فظاً، ويتردد منذ بضع سنوات على الدار التي صارت لبيتر، ولكن من الخطأ الزعم بأن هناك علاقة حب ملتهب بينه وبين إلزبت.

لا، فبمرور السنين اعتادت الفتاة على رغبات أخيها، ويمكن القول مثلاً، إنها اعتادت على فكرة الزواج ذات يوم من لوكاس آلدر. وعندما حدث هذا، أحبته.

جلس إلياس على كرسي العربة منغلقاً على نفسه تجاه إلزبت وتجاه العالم.

عندما ينظر الإنسان إليه هكذا، يبدو شخصاً غريباً عجيباً، هكذا فكرت إلزبت خلال الرحلة. إنها تعرفه منذ سنوات عديدة وكثيرة،

لكنها عملياً لا تعرف شيئاً عنه. ألديه فتاة في الخفاء يا ترى؟ لا، فهو خلوق جداً لمثل هذا الأمر. إنه أشبه بعالم حقيقي لا تهمه أمور الحياة اليومية في شيء.

وهذا لا ينطبق على لوكاس الذي يقف بكلتا قدميه راسخاً في الحياة. قد يسرها أن ينشغل بها أكثر بقليل من انشغاله بدوابه، ولكن أمها تقول بأن الأمور يجب أن تكون هكذا.

وهذا صحيح: فلوكاس طيب مع الحيوانات، وهي لم تره قط يضرب دابة أو يشتمها.

جلس إلياس صامتاً على كرسي العربة.

الحب نعم، أخذت تغني بصمت لنفسها، الحب مسألة محزنة، يجعل الثغر يضحك، أما القلب فيصبح كغابة معتمة. ثم أمالت وجهها نحو الأعلى ورمشت بعينيها في الخضرة الفاقعة لأوراق أشجار الغابة المخلَّطة التي تمر فوق رأسيهما بهدوء، وأطبقت جفنيها عندما انداح نور الشمس الوهاج فجأة على وجهها. أبقت جفنيها مطبقين وتخيلت كيف سيكون الحال، لو تقدم إلياس الآن لطلب يدها. أيحتمل أنه لا يحبها نهائياً؟ وإضافة إلى ذلك ستبقى زيجة خاسرة، إذ ليس في دارهم ما يستحق التوريث.

لا شك أنه سيشبعها كلاماً جميلاً. سيقف أمامها بقامته، ينظر في عينيها ويرى أنها قد احمرت خجلاً. وتأدباً سيصمت، ليفاجئها في لحظة غير متوقعة بسؤال: آنسة إلزبت، أترغبين في أن

تكوني زوجتي؟ ويداه سترافقان كلماته حتماً بحركات جميلة. ما هذه الأمور الغبية التي تفكر فيها! وفتحت إلزبت جفنيها.

جلس إلياس صامتاً على كرسي العربة.

لكنه خجول أكثر من اللازم، وهو ما تؤكده السيدة الوالدة أيضاً. في حين يجب على الرجل أن يكون جريئاً وأن يخطو عبر شقاء الحياة بشجاعة، هذا ما يقوله السيد الوالد، بالإضافة إلى اللعنة التي حلت بعشيرة أخيه، إذ إن جميع أولاده خرِعون من حيث البنية مضطربون من حيث العقل، وهذا ينتقل بالوراثة حسب رأي السيد الوالد. وعلى الرغم من ذلك فإنها موقنة يقيناً راسخاً من أنها لو تزوجته لكان لها زوجاً مخلصاً حتماً. لا يمكن للمرء أن يعرف ذلك أبداً، بيد أنها تؤمن به. ولو أنه غير مصاب بهذا العيب المخيف في عينيه. ثم إن عليه أن يكون أكثر حزماً في الحياة وأشد قوة، وعندها – حسب طبيعة المرأة – ما كانت لتتمهل في التنويه إليه مواربة بأنها تريده. ولكن الحمد لله أن لوكاس مختلف تماماً، فما خبِرته معه بعد المهرجان جعلها في غاية العطش، فهي لا أكثر من امرأة شقية ولا تمتلك سوى الأحاسيس الشقية كأي امرأة.

لكن هذا الجالس إلى جانبي لا يفهم شيئاً من هذه الأمور. لا، إلياس آلدر ليس رجلاً. إنها ترى ذلك – للأسف.

جلس إلياس صامتاً على كرسي العربة.

يبدو لها حاله وكأنه لا يريد أن يعيش مع امرأة أبداً. من المؤكد

أنه سيصير رجل دين كبيراً، حَبْراً أو حتى أسقفاً في نهاية المطاف. وإنْ وصل الأمر حقيقة إلى هذا الحد فلا بد أن تحضر ترسيمه ولو اضطرت إلى المشي حافية إلى فلدبرغ، وعندها ستركع أمامه وتقبل خاتم يده وتقول لنفسها بصمت: «هذا هو إلياس آلدر. كان صديقي.»

وبينما كانت تمضي الوقت بأفكار من هذا القبيل، أصابها فجأة ضيق تنفس غريب. سحبت الهواء ثلاث مرات بفم مفتوح ثم اكتسى وجهها بشحوب الموت وهوت إلى الأمام فاقدة الوعي. وإلياس الذي تيقظ فجأة تمكن من الإمساك بها من شعرها، وكانت قد صدمت رأسها بحافة مقعد العربة. ترك إلياس العنان يسقط من يديه وانتشل الفتاة قبل أن تسقط تحت الدواليب، جعل ذراعيها يلتفان حول عنقه وضغط جسدها الخامد بكل قوة على جسده. «إنها مريضة فعلاً.» أراد أن يصيح، لكنه لم يعد قادراً على ذلك.

للمرة الثانية والأخيرة في حياته انطبق قلب إلزبت على قلبه وتداخلت خفقات قلب إلزبت مع خفقات قلبه في تكامل واتحاد مثلما حدث آنذاك عندما كان في الخامسة من عمره في حوض نهر الإمَّر، وعندها صرخ يوهانس إلياس آدلر مجدداً بصورة مفزعة ولكأنه سيموت وهو في كامل وعيه. فعوقبت عزيمته المتقلبة بأكاذيب وطفح الأمل في نفسه، وصاح في زرقة السماء العميقة بأنه ما عاد قادراً على العيش من دون إلزبت. آه، كيف جرؤ على

الشك في أن الرب قد رصد إلزبت له!

أحاط رأس الفتاة بيديه البالغتي النعومة، وعندما استيقظت شتت أسئلتها المضطربة بجملة ذات تأثير منوِّم: «كل شيء على ما يرام، إلزبت، كل شيء على ما يرام.» ثم وسّدها على كيس الجريش الخشن الذي جلبه معه من أجل الثورين، وغيّر اتجاه العربة عائداً إلى القرية، متيقظاً طوال الوقت لئلا تمر الدواليب على حفر أو أحجار أو جذور يابسة. وفي أثناء قيادته العربة فكر فيما إذا كان جيداً أن يحنث بقسَمه وأن يخبر الفتاة، حالما تتعافى، تنويهاً وبحذر - وحتماً على مدى فترة زمنية طويلة - بأنه يحبها ويريدها زوجة. والواقع أنه نظر في الأمر ملياً، فشجاعته كانت قد نمت.

بعد مرور عشرة أسابيع تقريباً، وذات مساء حار من شهر يوليو، حين كانت رائحة الحشيش الجاف تملأ الأجواء في إشبرغ، استرق بيتر الخطا نحو دار زف آلدر، رمى حصاة عبر نافذة حجرة الأولاد، وهتف بأنه يريد أن يكلم صديقه في مسألة ملحة. طلب منه إلياس أن يصعد إليه فوراً، وعندها فاتحه بيتر بأن إلزبت حامل من لوكاس آلدر، وأنها ترغب رغبة شخصية خاصة بأن يعزف إلياس على الأرغن في عرسهما، وأن بيتر قد أتى ليخبره بالأمر بكلماته قبل أن يسمع به إلياس من أفواه الآخرين.

والحقيقة هو أن بيتر قد جاء ليرى نور عيني إلياس وأي بريق ستتخذان لدى سماع هذا الخبر. وما رآه بيتر هو أن نور عيني إلياس

قد تلاشى للحظات.

والآن توصل إلياس إلى اليقين النهائي بأن أمله كان بلا معنى. لقد أدرك أن الكنيسة قد خدعته طوال حياته. فقرر تكرار قضاء ليلة في كنيسة إشبرغ الصغيرة. فذهب إلى هناك وصرخ في وجه الكنيسة حتى قتل ما في داخله.

خشية إلياس

هدرت بوابة الكنيسة كالرعد عندما صفقها إلياس، بحيث انتقلت القرقعة إلى الثريات المعدنية المبتكرة فجعلتها تغني، أم أن دويّ ضحكه الممزق ألماً هو الذي حرك الثريات؟ إذ إنه عندما أقفل البوابة لم يكن لألمه حد، وأخذ يضحك بصورة مفزعة ولكأن الشيطان كان يضحك احتفاءً بظفره النهائي بهذا العالم. كان قلبه حالك السواد كصحن الكنيسة، ونور الأمل الأبدي الذي كان يومض خائفاً في قاعة الجوقة لم يعد في هذا الإنسان سوى فتيلٍ مقطوع بارد.

غمس أصبعين في جرن الماء المقدس، لحس الأصبعين وغمسهما ثانية ولحسهما مجدداً. ثم تقدم بخطوات هائجة ثقيلة وتخطى الحاجز الخشبي المزدان بأشغال الحفر النافر والمرتفع حتى الخصر ووقف أمام المذبح. ولم يكن قد توقف عن الضحك بعد عندما انتابه شعور مفاجئ بأنه ليس وحده في الكنيسة، فخرس من فوره، استدار من دون خوف وحدق بعينيه في صحن الكنيسة الأسود، وقف ساكناً لا يريم وأنصت بفم نصف مفتوح وبترقب، لكنه لم يسمع شيئاً ولم ير أحداً.

التفت ثانية، أخرج فطر الإشعال من جيب سترته، أشعل شموع المذبح ثم كافة الشموع المخصصة للإشعال في الكنيسة الصغيرة. يجب أن يضاء المكان جيداً، كي يراه الرب الآن عندما سيخاطبه.

عندما أشعل شمعة آخر محطات درب الصليب عاد إلى المذبح، تلمس التمثال المنحوت بكلتا يديه، داعب بهما وجه التمثال وأطال الوقوف ساكناً. ثم أخذ وجهه يكفهر باضطراد ونفرت عروق جبهته.

«يا رب، أين أنت في حياتي؟؟!!» خرج السؤال من فمه صراخاً، وراح يكرره ويكرره. وعندما بُح صوته نفرت أصابع يديه وانشبكت ببعضها في حركة شاذة للصلاة، سقط على ركبته وأخذ تدريجياً يستعيد هدوءه في الكلام.

«أيها الرب العظيم القوي» قال بصوت ملتهب «يا خالق الناس جميعاً والحيوان والعالم والنجوم جميعها، لماذا خلقتني أنا يوهانس إلياس آلدر؟ ألا يقول الكتاب بأنك كامل؟ إذن، إذا كنت كاملاً وخيراً، أكان يجب أن تخلق الشقاء والخطيئة والألم؟ لماذا تمتع نفسك بحزني وتشوه عينيّ وآلام حبي؟»

ثبتت عيناه على باب خزانة المذبح الصغير والمطعَّم بالصدف. «لماذا تذلني؟ ألم تخلقني على صورتك؟»

خفض بصره نحو الأرض. «لم يعد هناك ما أخسره بعد، وما خسرته لم أمتلكه قط. ومع ذلك نفخت في روحي شيئاً ظننته الجنة. لقد سممتني. لماذا أيها الرب العظيم القوي العارف بكل شيء، لماذا يمكن أن يعجبك انتزاع سعادة حياتي مني؟ ألست إله المحبة؟ لماذا إذن لا تدعني أحب؟ أكان يجب أن يلتهب قلبي من أجل إلزبت؟

أتقصد أن اختياري لإلزبت كان خياراً حراً صادراً من إرادتي؟ أنت مَن قادني إليها، وأنا أطعت، لظني أنها إرادتك أنت، أنت أيها الرب الجبار! كيف يمكنك أن تستمتع بضلالي؟»

استعادت عيناه بريق غضب ساخط. نهض عن الأرض واقترب من المذبح وأخذ يصرخ مجدداً، من دون أن يشعر بالألم في حنجرته.

«لقد جئت لألعنك!! جئت لأنهي علاقتي بك!! أنت لست إلهاً محباً!! الحب وحده لم يكفِك!! كان لا بد أن تخلق الكراهية، كان لا بد أن توجد الشر!! أولست أنت مَن خلق الملاك إبليس؟! أنت مَن زرع فيه بذرة الشر!! وكان لا بد للملاك من أن يسقط!!»

«إذن» قال «اسمع ما سأقوله لك الآن» وانحنى بقرب باب الخزانة، «إنْ كنت بجلالك العظيم قد منحتنا نحن البشر الإرادة الحرة» قال هامساً «فأنا يوهانس إلياس آلدر أريد أن أتمتع بهذه الحرية. إعلمْ أني لن أقبل بشقائي. إعلمْ أني لن أتوقف عن حب إلزبت. إعلمْ أني سأقف على قدميّ. إعلم أني لن أزيد من آلامي أكثر مما فعلت. منذ الآن أنا مستقل وحر برأيي. وأنا يوهانس إلياس آلدر عندما أهلَك، فذلك بإرادتي!»

عندما نطق بهذه الكلمات خطر بباله فجأة أن ينهي حياته. فخلال وجوده التعس، فكر ساخطاً، لم تتحقق ولا حتى أمنية واحدة من أمانيه: فهو لم يعش الطفولة، ووالداه كانا يخشيانه فأقصياه عنهما. وعندما صار رجلاً قبل أوانه، لم يُسمح له بتعلم

الموسيقى في فلدبرغ. لم يتمتع بحبه للموسيقى إلا خفية، كان يجلس إلى الأرغن وكأنه لص كنائس، خائفاً طوال الوقت من أن يضبطه أحدهم. كم مرة ترجى العم أوسكار المرحوم أن يعطيه دروساً في الموسيقى.

حتى هذه الرغبة بقيت محض أمنية. كان مستعداً للسكوت عن ذلك كله، لو أن الرب لم يخدعه في الحب وبقسوة.

بينما كان إلياس يتكلم حدث أمر غريب عجيب. لا يمكننا أن نجيب عما إذ كان ذلك نتيجة للهلوسات العنيفة لذهنه الذي وعى الغريب العجيب أم أن الأمر يتعلق بسبب وُجِد حقيقة. فقد بدا له فجأة وللمرة الثانية أن ثمة شخصاً موجوداً في صحن الكنيسة. أحس بطاقة غير محددة، بنوع من الدفء الحي، بل من الحرارة تقريباً التي توزعت بصورة متساوية على رقبته وكتفيه وامتدت إلى ظهره كله. وفي اللحظة نفسها صدر صوت خافت لكنه شبحي، وامتلأ صحن الكنيسة بنسيج من أصوات ناعمة لا تحصى، توقف الفم فتلاشت الأصوات، ثم عاود الفم إصدار الأصوات فتخلخل الهواء ثانية بحركات في منتهى النعومة.

ثمة من يعزف على الأرغن. التفت إلياس آلدر. وعندما رأى ما يجري في صحن الكنيسة، كاد قلبه أن يقف.

لنقل إن ظاهرة الصوت المحفوف بالأسرار أمكن تفسيرها لاحقاً بصورة مقبولة: في آخر مرة عزف فيها إلياس على الأرغن نسي

إغلاق مفاتيح الهواء. يضاف إلى ذلك أن نافذة الجهة الشمالية من الشرفة كانت مفتوحة، فدخلت هبة ريح قوية عبرها إلى ممرات الهواء لتحرك الصافرات. ولكن ما ليس بوسعنا تفسيره على كل حال هو ما رآه إلياس الآن.

«من أنت؟» همس إلياس بشفتين بيضاوين كالكلس وحدق وهو في شبه غيبوبة في المقاعد الوسطى من الجانب الأيسر. «من أنت؟» شهق ثانية وقد أخذت شفتاه ترتجفان خوفاً. نحبت صافرة الأرغن ثانية بصوت خافت اضمحل سريعاً، وأخذت الظلال المتطاولة لتماثيل درب الصليب ترتجف من قلق نور شموع الشحم الأبيض. «من أين أتيت؟» سأل إلياس بصوت مبحوح يشوبه هلع مميت.

مسح ضوء رمادي مصفرّ خافت رأس الطفل المعصوب وسقط على كتفيه الضيقتين العاريتين، فقد كانت سترته الخشنةُ النسيج ممزقة ومهلهلة.

«فلتكن من تكون، أنا لا أخافك!» قال إلياس بعينين ملتمعتين، إذ استعاد خفقان قلبه إيقاعه الخاص، وعندما تماسك مجدداً، توجه نحو شمعة الفصح، انتزعها من الشمعدان، تخطى الحاجز الخشبي واقترب بحذر من المقعد الذي تكور عليه الطفل المهلهل ذو الرأس المعصوب. رآه يحمل شيئاً بيديه الصغيرتين، بل يلعب به. وعندما أمال الطفل رأسه قليلاً تهيأ لإلياس أنه شاهد على صدغه بقعاً سوداء بحجم قبضة اليد.

وكلما اقترب منه ازداد الدفء الذي بدا وكأنه يشع من الطفل. كان دفئاً غامضاً يشع من الداخل، غمره بسعادة لم يدر كنهها ومنح الروح سلاماً عظيماً. لم يجرؤ إلياس على التقدم خطوة أخرى. رفع الشمعة قليلاً فرأى الآن هيئة التجلي كاملة.

رأى طفلاً لم ير وجهه سابقاً في إشبرغ قط. كان جالساً على المقعد ويلعب بكتاب صلوات، يقلِّب الصفحات، يتحسس بأصابعه الفضولية الصغيرة الورق الخشن، يجعل الصفحات تتالى بسرعة هائلة، يقرّب الكتاب من فمه، يعض الغلاف الجلدي بأسنانه الصغيرة ويجعل الصفحات تتطاير ثانية بسرعة هائلة. راقب إلياس هذا بصمت وأحس في دخيلته بسكينة لا يدري كنهها. نظر إلى رأس الطفل. كان هناك ضماد كتاني ملتف بصورة ضيقة حوله، وهناك على الصدغ الأيسر بقعة سوداء واسعة وكأنها دم جاف.

نظر إلياس إلى جسم الطفل الذي لا حول له ولا قوة والمحشو في خرق بنية اللون. رأى أنه يرتجف برداً وأن التشققات قد هرّأته. ثم اكتشف على الجسم علامة فارقة غامضة: لم يكن للطفل سرة.

«هل أنت الرب؟» قال وقد استعاد صوته. رفع الطفل عندها رأسه إلى إلياس ونظر إليه، فأحاط النور النابع من عينيه الداكنتين بإلياس بعدم اكتراث منوِّم. «يا رب، امنحني السكينة الأبدية» لجلج إلياس مذهولاً، «وأرني النور الأبدي.» وأدرك يوهانس إلياس آلدر من هو الطفل.

ملأ إلياس توقٌ بالغ إلى الجمال الذي كان يشع من عيني الطفل المفعمتين بالأسرار، وودَّ لو يسمح له على الأقل بلمس القدمين الصغيرتين العاريتين.

ولكنه عندما مد يده، انشق جسم الطفل فجأة، وانفتح فمه بألم بالغ، أراد أن يتكلم ولم يستطع. وعندها كان على إلياس أن يرى كيف أخذت البقعة السوداء على صدغه تتلألأ وكيف اتسع حول البقعة محيط مبتل. لقد بدأ الجرح ينزف. ما زال الطفل يتألم وهو يحاول الكلام، لكنه لم ينجح في ذلك. وعندما أغلق أخيراً فمه، اندفع الدم من بين شفتيه. مد إلياس يده ثانية ببطء وبحركة بالغة الحنان، فانشق جسم الطفل ثانية، وثانية حاول فمه أن يتكلم.

عندها أدرك يوهانس إلياس آلدر أنه لا يجوز له لمس الطفل، وفجأة خارت قواه معاً وتداعى من شدة التوق مغشياً عليه.

بقي مستلقياً على الأرض بين المقاعد حتى جاء ميشيل الفحام صباحاً وأخذ يهزه حتى أيقظه. عندما فتح إلياس عينيه، ندت عن فم ميشيل صرخة مدوية. لقد فقد إلياس لون حدقتيه. فبدلاً من الأصفر الفاقع ظهر أخضر قاتم، أخضر كالحقول والمراعي بعد مطر غيوم سوداء.

والحقيقة هي أن إلياس آلدر قد استعاد لون عينيه، ولكن ما كان لميشيل أن يعرف ذلك.

في تلك الليلة – حكت زفين المفعمة بالسعادة لابنها لاحقاً –

استيقظ فجأة والده المصاب بشلل نصفي، نهض وصار فجأة قادراً على الكلام. لم يطل ذلك أكثر من نصف ساعة، وقد أقسمت بالرب وبجميع القديسين أن الأمر لم يكن حلماً.

في الغربة

لم تكن استعادة لون العينين الطبيعي سوى دلالة واضحة على ما حدث لإلياس في تلك الليلة الغامضة. ولكن ثمة دلالة أخرى خلّفها الطفل الجريح، كان لها تأثير أكثر أهمية: لم يعد إلياس مجبراً على الحب. لقد تحرر قلبه فجأة من ذلك التحرق المضني. صار أمر الفتاة إلزبت بالنسبة إليه سيّان.

فإن فُتح بابٌ بصورة غير متوقعة لم يعد يرتعد منفعلاً. وإن رأى امرأة عن بعدْ قادمة إلى الدار لم يعد يتزايد نبضه. وإذا سمع ليلاً ضحكاً نسائياً عند نبع القرية لم يعد يبحث فيه عن ضحكة إلزبت. لقد تحقق خلاصه.

لكن الخلاص يعني إدراكَ لا جدوى الحياة كلها. هذا هو ما تُعلمنا إياه سيَر عظماء هذا العالم. فالمسيح عندما تحقق خلاصه لم يحس بأي ميل لأن يبقى فاعلاً مؤثراً في هذه الدنيا. فغادرها ولم يعد إليها ثانية. وقدّيسو الشر والخير، طغاة البشرية، عندما أنجزوا عملهم بحثوا عن موتهم قبل أوانهم ووجدوه. إننا لا نرفع بطلنا إلى مصاف أولئك القديسين، لكنه عانى المصير نفسه: أراد أن يموت.

المتناقض في الأمر هو أنه قد طلب الموت، عندما كان طريق حياته في صعود، من منظور خارجي. في أثناء أشهر الصيف من عام

1825 – وهو عام وفاته – وقعت مصادفةٌ سعيدة بدا وكأنها ستقلب فجأة مسار مصيره. في ذلك الصيف الغني بالأحداث اكتشف المنشد برونو غولَّر وهو عازف الأرغن في كاتدرائية فلدبرغ، موهبة موسيقينا العبقرية. والمقاطع التالية من كتابنا هذا ستكون بمثابة شهادة على كيفية وقوع الحادثة ومجرياتها.

فليتخيل واحدنا نفسه في روح إلياس وهو جالس إلى الأرغن يعزف الموسيقى بمناسبة قداس العروس إلزبت! فقد نزل عند رغبتها القلبية بأن يرافق حفل العرس بموسيقاه على الأرغن. كان الناس حينذاك يتزوجون بالثياب ذات اللون الأسود التقليدي، وما زالت هذه العادة قائمة حتى اليوم في منطقة فورآرلبرغ، انطلاقاً من قناعة أنه حتى العرس لا يجوز أن يكون يوم متعة، فبسبب المتعة دخلت الخطيئة إلى الدنيا. وفعلياً بدا أن اللون الأسود هو اللائق بأعراس ذاك الزمن. فالزواج عن حب كان أمراً نادراً، ولكن بغض النظر عن ذلك كانت إلزبت عروساً سعيدة. لقد ركعت تلك الفتاة الرشيقة ذات الأنف الصغير مشدودة القامة عند مقعد العروس وسمحت لنفسها بين الحين والآخر بنظرة خاطفة إلى جهة لوكاس. ولشدة ما كان وجهها ينضح بالرضا بدا ساذجاً خامداً. وما أكد رضاها هو إيمانها بأن الرب بحكمته قد قادها إلى هذا الرجل الطيب. «وهذا صحيح تماماً» فكّرت «فلوكاس يحسن معاملة الدواب. وهي لم تره قط يضرب واحدة منها أو يشتمها.»

وضع إلياس موسيقى مناسبة، ذات فنية عالية، لكنها حيادية تماماً، كموسيقى عازف أرغن يُحيِّي أعراساً كثيرة من دون أن يشارك في الحدث. وتذكر عندما كان يبني على وزن خفقان قلب إلزبت كاتدرائيات باهرة من الموسيقى. ونتيجة استلطاف بعيد تجاه الفتاة فكّر بتكرار ذلك في الختام.

فعاد إلى نفسه وأنصت باذلاً بعض الجهد بحثاً عن الوزن، لكنه سرعان ما تخلى عن الفكرة واختتم من ثم على سبيل النكتة، بلحن من ألحان أغاني المهد، ضمَّنه رغبته الفاترة بأن يكون مولود إلزبت صحيحاً جسماً وروحاً. وفي ساحة الكنيسة بعد ذلك عندما صافح الجميعُ العروسين مهنئاً، تقدم إلياس أيضاً وانتزع لنفسه مكاناً بين حشد المنتظرين. مد لإلزبت يداً دافئة صحيحة وقوية، بل مزح أيضاً وهمس بصوت خافت بحيث لا يسمعه أحد: «عندما يحين موعد العماد عليكما أن تسمياني إشبيناً للمولود.»

«أعدك بذلك.» قال لوكاس، لكن إلزبت اعترضت بسرعة بأنه لا يمكن في وقت واحد العزف على الأرغن والقيام بدور الإشبين.

«ولماذا لا؟» ضحك إلياس «سأعزف، ثم أنزل مسرعاً للمشاركة في العماد، ثم أهرول صاعداً لأعزف. وأعاود الكرة حتى النهاية.»

عند تخيل هذه الصورة كان لا بد للجميع من أن يضحكوا، ولا سيما إلياس. نظرت إلزبت لفترة قصيرة في عينيه اللتين لم تعتد حتى الآن على نورهما.

في تلك اللحظة اكتسى وجهها بمسحة من الكآبة. قد يكون الأمر مجرد تخيل، لأننا حتى الآن لا يسعنا أن نفهم لماذا لم يستطع هذان الإنسانان قط أن يجدا الطريق إلى بعضهما.

لذلك فليشاركنا القارئ الاعتقاد بأن مسحة من الكآبة قد كست وجه إلزبت.

«أما زال هذا إلياس؟» فكر پيتر بقلق «كيف له أن يكون مسروراً بهذا الشكل، وأن يصافحها مازحاً؟» لم يعد پيتر قادراً على فهم صديقه. وعندما قام إلياس على مأدبة العرس بتقليد أصوات الإشبرغيين، ما أمتع الجميع، كاد الغضب يستولي على پيتر، فجلس إلى المائدة صامتاً جامداً بوجه أحمر وهو يعرك غطاء الطاولة بأصابعه.

وعند الفجر عندما تمشيا باتجاه داريهما شتمه پيتر قائلاً: «أنت كذاب!» فنظر إليه إلياس مندهشاً. «فجأة أصبحت لا تعني شيئاً لك! وكأنك لم تحبها قط!» قال پيتر بانفعال حانق.

«الوضع جيد، كما هو عليه» أجابه إلياس متثائباً.

«لا شيء جيد، لا شيء!» صاح پيتر بغضب.

«ما الداعي لهذا الغضب يا صديقي؟» قال إلياس مهدئاً وتابع: «لقد أدركت أن إلزبت تخص شخصاً آخر. هكذا الحياة تسير، ونحن العميان علينا أن نحاول العثور على آثار الدروب الإلهية. وليس في وسعنا أن نحقق أكثر من هذا في هذه الدنيا.»

«أنت في الحقيقة لم تحاول» قال پيتر بائساً «لم يكن فيك ما يكفي من الرجولة لتفاتحها برغبتك فيها.»

«وهل حاولت أنت؟» قال إلياس متعباً «هل فاتحتني يوماً برغبتك؟»

عندها صمت پيتر وغادر من دون أن يحيي صديقه.

وخلال الأسابيع التالية كان على إلياس إدراك أنه لم يعد هناك ما يولّد فيه رغبة أو يحرك فيه عاطفة. فالمدرسة التي طالما كان يديرها بحب صارت تشعره بالملل، وبات صياح الأطفال يثقل عليه. عندما يستيقظ صباحاً كان يشعر بتعب يستمر حتى منتصف النهار. لم يكن هذا من طباعه قط، بل كان ينهض يقظاً، يتفحص جو النهار بنظرة عبر نافذة الحجرة ويشعر بالسرور في ذلك. أما صباحات الصيف الصفراء الوهاجة ذات العبق الرائع فلم تعد توقظ فيه أي اهتمام. ولم يعد الصباح يعني له صورة أمل متجدد. بدا له كل شيء خاوياً، مرئياً ومعاشاً سابقاً. لقد صار قلبه عجوزاً، وجافاً مثل تفاحة عجفاء على موقد أمه.

وقرر بما تبقى في نفسه من قدرة على مواجهة الحياة أن يستحضر ثانية أيام زمان. فذهب إلى مرابع حبه القديم باحثاً في روائح الحقول والبساتين عن طاقة ما مضى، لكنه لم يحس بشيء سوى الملل والتفاهة. «أنت لم تحبها قط.» كان لشكوى پيتر هذه وقع لا ينسى في نفسه. «أحقاً لم أحبها!» تساءل في نفسه وهو يعلك ساق نبتة

الحمّيض. «ماذا لو أني بدأت أحب مجدداً؟ ماذا لو أني عارضت فعلاً خطة الرب؟ فحتى أضعف العواطف أملاً، يسهل احتمالها، أكثر من حالة انعدام أي عاطفة.»

وبينما كان يكلم نفسه حطت فراشة بيضاء على ساعده، وسرعان ما تراقصت فراشة أخرى هابطة من الهواء الأزرق الذي يئز في أذنيه، ثم تقافزتا على بعضهما وطارتا مغادرتين بمرح. تذكر إلياس الليلة الأولى التي أمضاها وهو يعزف على الأرغن خفية، تذكر أول مقطوعة ألفها في حياته زاوج فيها بين لحن إحدى أغنيات الميلاد وبين لحن ثان استوحاه من صورة فراشتين صفراوين تبعهما ذات يوم وهو طفل بعينين حالمتين.

وعندها انتابه شعور بأنه على وشك البكاء، أراد أن يبكي، لكنه لم يستطع. نهض عن الحشائش واقفاً واتجه نحو الدرب وأقسم بينه وبين نفسه على أن يحاول خوض تجربة الحب للمرة الأخيرة.

أراد أن يستعيد الصور والروائح والآمال والأشواق بكل زخمها السابق. وقد حدس، بل عرف، أن في هذا نهايته الحتمية. فالقانون المنكَر الذي ينص على أن كل حب يؤدي إلى الموت دائماً سيجد تحققه في هذا الشخص بطريقة شاذة وبشعة.

سنبتعد عنه لفترة من الزمن، ولا نرغب في وصف الوهم الهائل الذي لجأ إليه الآن مخادعاً نفسه. إلا أننا نتفهم يأسه على الرغم من ذلك: ألم تكن حياته كلها وهماً سخيفاً هازلاً نابعاً من إثم إلهي؟

كان الصيف، كما ذكرنا سابقاً، مليئاً بالأحداث وبطرق متباينة. في مطلع تموز/يوليو اتفق الإشبرغيون على خطة تعريض طريق القرية، بعمل السخرة، بحيث «يسمح كحد أدنى بمرور عربتين معاً بسهولة» بحسب نص الاتفاق. لقد قارب نوم العصور الوسطى على نهايته حتى في إشبرغ، وفي مدن منطقة فورآرلبرغ بدأ أصحاب أفكار جريئة بتشييد أبنية معمارية عجيبة يملؤونها لاحقاً بغيلان حديدية هادرة.

وراجت أشغال تطريز القماش، فحولت هذه الأرض الفلاحية البائسة آنذاك إلى مركزٍ مزدهر للركض المقرف وراء المال.

تعود خطة تعريض طريق القرية إلى نولف آلدر. فمع عملية الحَجْر عليه المضحكة التي نفذها الابن بحقه، انتزِع منه الفلاحون في الوقت نفسه وظيفة المسؤول عن المنطقة، بيد أنه بقي لكلمة آلدر الشرس ثقلها في دوائر معينة. ومنذ زواج إلزبت انتقل نولفين مع امرأته للسكن في مزرعة لوكاس، وكان ذلك هو شرط بيتر منذ صبيحة العرس. ولكي يجعل الأمر أكثر قبولاً عند لوكاس منحه ثلاث بقرات حلوبات بدلاً من الاثنتين المتفق عليهما كدوطة للعروس.

في ذلك الوقت هيمن على القرية مزاج فريد في نوعه إلى حد كبير. بدا الأمر وكأن قلقاً مبهماً قد ملأ النفوس. وتجلى ذلك في نوع من الانهماك العصابي في الشغل. فكثير من الفلاحين حصدوا القطفة الثانية وكأنهم في سباق مع فصول السنة. ولكن بما أنهم قد

حصدوا الحشيش مبكراً جداً فإن مستودعاتهم لم تمتلئ إلا إلى ثلثها. وبدأ بعض الشباب يذهبون يومياً إلى غوتسبرغ من دون سبب واضح سوى الانطلاق خارجاً من ضيق حياة القرية. فأقاموا هناك صلات، غالباً ما كانت مع أشخاص غامضين.

وكلما ازداد ذهابهم إلى غوتسبرغ كلما تخربطت الأمور في رؤوسهم الساذجة. صارت مفرداتهم في الحديث أكثر غنى وتلوناً وبذاءة، وأخذ ماتي لامبارتر يستعرض مفرداته في الحديث عن حظائر الدواب الميكانيكية وعن آلات حلب البقر ميكانيكياً التي رآها مركبة عند فلاح غوتسبرغي. لقد دخل الزمن الحديث الحياة، هذه حقيقة. وفي شهر أغسطس وبعد اعتراضات عنيفة من جانب المسنين، أُدخِل إلى القرية ما يسمى بالنفط، وهو زيت سبق أن استخدمه مايستنتايلز قبل سنوات في إنارة داره الصغيرة بشكل رائع، وهو الذي صُبّ عليه أخيراً وأحرق به حياً.

جلب الشباب معهم إلى القرية كتابات مريبة، باعهم إياها غوتسبرغيون مفلسون بأسعار فاحشة.

كانت الدفاتر المصورة مرغوبة بشكل خاص، وكانوا يلتهمونها كما تلتهم الخنزيرات قشور التفاح وهم يحدقون بعيون تملؤها الدهشة وبأشداق مرتخية في العاريات المعروضات بلا ذوق. وفي هذا السياق لا بد من الحديث عن مصير ميشيل الفحام والذي تفاقم حاله في تلك الشهور على نحو بالغ الخطورة.

فحتى ميشيل كان لديه جوع إلى المعرفة. كان واحداً من أولئك الشباب الذين كانوا يمشون يومياً إلى غوتسبرغ ويعودون في وقت متأخر من المساء إلى دورهم برؤوس حامية وأقدام تدك الأرض دكا. كان ثمة تاجر جوال يدعى ماركوس هوفَّر يروِّج كتابات هرطوقية، فتعرض بسبب ذلك للحجز في القرى مرات متعددة، وقد لعب بعقل ميشيل وأقنعه بكتاب هِرْدَر «أفكار عن فلسفة تاريخ البشرية»، فاشترى أجزاء العمل كلها، ومنذ أن قرأها انقلب حاله رأساً على عقب. فقد اطلع في الكتاب على وصف جنس بشري ولَّد أسلوبُ حياته في نفسه توقاً هائلاً إلى السفر، بحيث قرر أن يبحث بنفسه عن هذا الجنس البشري وأن يمضي بقية حياته عنده.

قرأ في الكتاب أن «الكاليفورني الذي يقطن على حافة العالم، يعيش في أرضه المجدبة بأسلوب حياة متقشف في ظروف طقسية متبدلة، من دون أن يشكو أبداً من الحرارة أو البرودة، وهو يتغلب على الجوع وإنْ بأصعب الطرق، لكنه يعيش سعيداً في أرضه.

وكثير منهم يبدلون مرقدهم الليلي ربما مئة مرة في السنة، بحيث يندر أن يناموا ثلاث ليال متتالية في المكان نفسه وفي المنطقة نفسها. إنهم يهجعون حيثما يفاجئهم الليل من دون أن يبالوا أبداً بقذارة الأرض أو بحشراتها المؤذية. وجلود أجسامهم البنية الضاربة إلى السواد تغنيهم عن الثياب والمعاطف. تتألف أدواتهم المنزلية من قوس وسهم، ومن حجر بدل السكين ومن فأس أو قضيب مدبب

الرأس لاستخراج جذور النباتات، ومن ظهرِ قفص سلحفاة بدل مهد الطفل، ومن معلاق أو مثانة لجلب الماء. ومع ذلك فإن هؤلاء البدائيين أصحاء. يتقدمون في السن وتشتد سواعدهم، لدرجة أنه من العجيب أن يشيب أحدهم حتى ولو تقدم به العمر.

وهم دائماً في مزاج حسن، الضحك والمزاح الدائمان يسودان حياتهم دائماً: أجسامهم حسنة البنيان، رشيقة ونشطة.»

وأرض الكاليفورني هذه، حيث النساء عاريات ومولودات بجلود بنية ضاربة إلى السواد، حيث البشر سعداء دائماً، وحيث يسود ضحك أبدي، هذه الأرض لا بد لميشيلنا أن يجدها، ولو كلفه ذلك حياته. فبدأ رحلة تجواله بأن ودّع ذويه، ثم ودّع الخوري بويرلاين الذي عند محاولة توديعه أهَّل به وسهَّل بحرارة. تجول ميشيل عبر فورآرلبرغ وهام من مكان إلى آخر بحمية لا تفتر. لم يوجد في حقيبة ظهره أكثر من ثلاثة أرغفة، غير أنه بين يديه الصادقتين كان يحمل كتاب «أفكار عن فلسفة تاريخ البشرية.»

لم يستطع أحد أن يدله على الطريق إلى أرض الكاليفورني، فتاه في مسير طويل مليء بالمغامرات عبر جبل راتيكون وسلسلة برغامَسْك الألبية، إلى أن وجده دبّاغ في لِتْشو الإيطالية وهو يكاد يموت جوعاً. بقي ثمانية أسابيع في لتشو، ثم هرب وصار ملاحقاً من قبل شرطة لامبارديا، إذ إنه قتل الدباغ – منقذ حياته سابقاً – دفاعاً عن النفس، وذلك لأن الدباغ قدم له وجبة طعام من بقايا لحم فاسد. هرب

ميشيل نحو پيمونت ثم نزل باتجاه ساحل ليغوريا حيث صار بحاراً على سفينة ليڤانتينية لنقل البن.

وبما أنه لم يكن طوال حياته قادراً على ادخار المال، فقد كان ينفق أجوره خلال ساعة واحدة على عاهرات الموانئ. وخلال إحدى رحلاته تعرضت السفينة إلى الخطر أمام شاطئ طولون. لكن الرب لم يشأ لميشيل أن يغرق، بل ترك الموج يجرفه إلى قدمي قصاب طولوني، فاشتغل في مسلخه عشرة شهور أخرى، من دون أن يتخلى مطلقاً عن خطته للعثور على أرض الكاليفورني. لكنه اقترف في طولون عدداً من الجنح الأخلاقية، فاضطر إلى الهروب مرة ثانية، وأعلن بعد ذلك بأسه من العثور على كاليفورنيا وقد بلغ الثالثة والأربعين من عمره، أن يعود إلى وطنه ويمضي فيه ما تبقى من أيامه كفلاح بسيط ناضج. كانت رحلة العودة أشد صعوبة، خاصة وأنه قد أصيب أثناء عبوره جبال الألب الڤاليزية بحمى الأعصاب.

وميشيل من حيث الشكل كان قبيحاً، إلا أن من رأى هناك هذا الرجل البائس الذي أضناه المرض كان سينفطر قلبه شفقة عليه.

ونحن سنطيل كثيراً على القارئ إنْ عدَّدنا جميع محطات حياته، لكن ما يجدر بنا تثبيته هو أن ميشيل الفحام قد وجد طريقه فعلاً إلى الديار.

بيد أن الغريب في الأمر هو أنه لم يستقر في إشبرغ، بل اشتغل خادم حظائر في هووِّنبرغ. وبمرور السنوات سكن قلبه المغامر، حتى

أنه تزوج امرأة وهو في سن متقدمة من عمره. وكان عليه أن يكرر دائماً أمام أولاده الخمسة عشر الذين أنجبتهم له زوجته حكاية أولئك السود الغامضين، أولئك الكاليفورنيين الذين تزعمهم طوال أربع سنوات.

وقبل أن يغيب ميشيل الفحام عن أنظارنا إلى الأبد، لا بد أن ننوه إلى أنه بلغ أرذل العمر، فقد كان في الثامنة بعد المئة عند وفاته. وسنة وفاته تؤرخ لمولد هذا القرن. وأبناؤه وأحفاده رفعوا أباهم أو جدهم إلى مكانة مشرِّفة، فحتى اليوم ما يزال هناك في منطقة هوونبرغ ثلاثة شعراء دينيين مجيدين. وعلى مصير ميشيل الفحام يمكن للمرء أن يقيس مدى القوة الهائلة التي كانت تتمتع بها الكلمة المكتوبة في ذلك الزمن.

قلق القلوب، مذاق مرحلة جديدة، التوق للسفر إلى أماكن غريبة، كل هذا مر على إلياس من دون أي أثر، حتى أنه لم يحس به. وهو لم يكن أحد الذين اهتموا بالذهاب إلى غوتسبرغ ليتعرفوا على أمور جديدة. كما أنه لم يقرأ المجلات المصورة والمهترئة من كثرة التداول سراً في القرية. مفرداته بقيت كما هي عليه، إضافة إلى أنه صار قليل الكلام.

ومساء، عندما يتسلل من حجرته ليتناول طعام العشاء كان يجلس في مكانه إلى طاولة البلوط الثقيلة كالأخرس، يرتشف بقلق حساء القمح المحمّر بالدهن ولا ينبس بكلمة. كم كنا نتمنى لو قام رسام

بالتقاط حدثِ العشاء المتكرر أبدياً لدى آل آلدر: من نافذة المطبخ الجنوبية الصغيرة يتسرب نور مسائي أبيض كالحليب، زفين بمريلتها الزرقاء ويديها المصابتين بالتهاب المفاصل تلقم فم زوجها الملتوي الحساء بالملعقة، فيليب المعتوه يدير حدقتيه في محجريهما وفريتس يصلِّب في اللحظة نفسها على جبينه.

أيعقل أن تجلس في هذا المشهد التعيس أكبر عبقرية موسيقية أنجبتها منطقة فورآرلبرغ في كل تاريخها؟ أيعقل أن يعيش هنا عبقري قادر بفضل ذكائه الموسيقي أن يقول أشياء كان بوسعها أن تدفع بتاريخ موسيقى القرن التاسع عشر خطوة جبارة إلى الأمام؟ إنه لأمر غير معقول، بل يكاد يبدو لنا كما في حكاية خرافية حزينة عظيمة.

لقد امتلأت الأسابيع الأخيرة من حياة هذا الرجل بتخيلات وتهيؤات مهلوسة ومضطربة مرتبطة بالشعور بالذنب وباليأس. ويمكن الجزم بأنه عندما اتخذ قرار الموت كان قد صار مجنوناً، وإلا فلا يمكن فهم طريقة الموت التي لا تصدق. انطلاقاً من يقينه بقدرته على إدارة عجلة الزمن بعكس الاتجاه أصيب بإدمان مرضي على استرجاع الماضي. فأعلن على الملأ ذات مرة أنه لا يزال في السابعة من عمره، وأن مظهره الأكبر سناً ناتج عن مراهقته المبكرة جداً.

كان حسب التقويم في الثانية والعشرين من عمره، ولكن إنْ محَّص الإنسان بحثاً عن الحقيقة الصحيحة فسيجد أنه قد تجاوز الأربعين. وبيأس مرير كان يرعى في نفسه أكذوبة أن إلزبت ما زالت عازبة،

وما زالت عذراء وستبقى كذلك حتى يحين الوقت مع النضج فيتقدم لطلب يدها. ومهما قسا على نفسه لبعث زخم الماضي حياً فإنه لم يحقق شيئاً، إذ كان يعرف أنه لم يعد يحب إلزبت، كما كان يعرف أن الرب قد جرده من القدرة على الحب.

وكانت هذه الفكرة عنده مقيتة لا تحتمل إلى حد أن طردها أخيراً من دماغه معرضاً نفسه لآلام مازوكية. وواقع الأمر الذي لم يرد إلياس آلدر فهمه، هو أن الرب قد حرره من حبه لإلزبت. وأن الرب أراد له أن يحيا، فقد شعر بالندم عندما رأى مدى معاناة هذا الإنسان بسبب الحب.

ولكن ألم يمر القارئ بلحظة، كان يعتقد فيها بأن مصيره ميئوس منه وحالكاً كسماء تحجبها السحب السوداء، وإذا به يجد أخيراً ثغرة صغيرة يخترقها شعاع الشمس مبشراً بالأمل؟ هذا هو ما حدث لإلياس آلدر.

في يوم الأحد الثاني من شهر أغسطس وطأ غريب البقعة الصغيرة المسماة إشبرغ. كان يلبس كأهل المدن، وبدا وديع المنظر بشاربيه المفتولين وقبعته العالية ذات اللون البني القاتم. وإضافة إلى حقيبة ظهر كبيرة كان يحمل معه إضبارة أشرطتها مربوطة على أوراق كثيرة. كان هذا الرجل موسيقياً. إنه عازف الأورغ في كاتدرائية فلدبرغ، واسمه برونو غولّر. وغولر هذا لم يأت إلى إشبرغ من باب المصادفة، بل كان واحداً من الرواد المبكرين الذين بذلوا جهودهم، كلٌ ضمن

اختصاصه، لتوثيق تاريخ البلد. لقد حضر إذاً بتكليف من معهد فلدبرغ للفنون السامية والكلاسيكية والذي يُعتبر المعهد الموسيقي أحد فروعه. وغولَّر كان مكلفاً بمعاينة جميع أجهزة الأرغن في البلد ووصفها بدقة في سجل كبير.

إن ما اكتشفه غولَّر في ثاني أحدٍ من أغسطس كان آلة أورغن بسيطة ذات خمسة أصوات، وأعظم عازف على الإطلاق ممن سبق لأذني المعلم الصغيرتين أن سمعتا عزفهم.

«باسم القديسة سيسي من تكون حضرتك؟» سأل غولر متلجلجاً عندما رأى إلياس يهبط سلم شرفة الأرغن. ابتلع ريقه وهو يدير قبعته العالية بين يديه باستمرار وقال متلعثماً: «إســ.. اسمي غولَّر. فريدريش فورشْتِغوت بر.. برونو غولَّر» ومد قبعته لمصافحته بدلاً من يده المرتجفة. نظر إليه إلياس بوجه ذابل وعينين فارغتين من دون أن يرد التحية.

«أ.. أنا.. عا.. عازف الأرغن في كا.. كاتدرائية فلدبرغ، و.. ومنشد أيضاً» أضاف غولر بخشية. وعندما تماسك قليلاً سأله ثانية عن شخصه، لكنه لم يحصل على جواب.

وعندها تدخل پيتر في المشهد الذي كان يراقبه، وحيا الغريب قائلاً بتعجل وتزلف: «إنه يا سيدي إلياس آلدر، عازف الأرغن ومدير المدرسة هنا في قريتنا، وأنا ابن عمه وصديقه ودوّاس المنفاخ المتواضع.»

بما أن إلياس لم يقدم أي جواب، تبادل غولّر الحديث مع بيتر. لم يسبق له قط أن سمع عزف أرغن عبقرياً من هذا القبيل، بدائياً وجامحاً لكنه ينطوي على عظمة سامية. كما لم يسبق له أن سمع طِباقاً معقداً على هذا النحو، وهذا بكل بساطة من المستحيلات. فلقد حقق عزف كورالات القداس الأربعة في تلوين عشوائي رباعي الأصوات، ومن دون أن يغير ولو صوتاً واحداً. هذا بكل صراحة مستحيل، ولذلك لا بد من أن يقدما له فوراً أوراق نوتات الأرغن لهذا اللحن الهائل، لأنه يريد أن يلقي عليها نظرة فاحصة. ثم إن مقطوعة فوغا تناول القربان التي عزفها بأسلوبين متعاكسين كانت تنطوي على طاقة بركانية لا مثيل لها في أدبيات عزف الأرغن.

وفي خاتمة كورال «المسيح جاء إلى الأردن» أحس بأنه قد سمع اصطخاب ماء نهر الأردن فعلياً، أما التكثيف الإيقاعي المتتابع عند كلمات «يعاني الموت المرير» فقد أثرت فيه حتى العظم إلى حد أنه لا يزال متمسكاً بقبعته حتى الآن. وهو يرجو السيدين بكل ود أن يعرضا عليه جميع أوراق نوتات المعزوفات...

فقال إلياس: «أنا يا سيدي أجهل كتابة النوتات.» وساد صمت قصير، ثم ابتسم بيتر خجلاً، بينما عاد غولّر إلى تدوير قبعته بين يديه.

«أنت تجهل...» وبقيت الكلمات ملتصقة في حنجرة غولّر.

فقال بيتر بسرعة: «طبعاً، فقد تعلم عزف الأرغن بنفسه. معلم

مدرستنا المرحوم كان يحسن قراءة النوتات.»

جلس غولّر على مقعد العزّاب وسأل بهمس وهو غير مصدق «لا يوجد نوتات؟»

«انظر بنفسك!» قال بيتر منتفشاً «غير كتب أوسكار لن تجد شيئاً!»

وعندها بدأ غولر يستوعب الوضع، فقال بفم يشبه فم سمكة الشبوط «لا يوجد نوتات، لا يوجد نوتات.» أراد إلياس أن يغادر، لكن غولر أمسك به فأوقفه وقال بلهجة ملؤها التوسل: «أرجوك! ارتجل مرة ثانية على الأرغن، أرجوك!» وكررها حتى صعد ثلاثتهم إلى شرفة الأرغن.

وبعد أن سمع غولر المستحيل مرة أخرى، قال بيتر بصوت خافت بأن على هذا العازف باسم القديسة سيسي أن يذهب من دون أي تلكؤ إلى المعهد الموسيقي في فلدبرغ. فلحسن الحظ، في أقل من أسبوعين سيقام هناك الحفل السنوي للعزف على الأرغن، وفي أثنائه يتم امتحان طلبة العزف على الأرغن في الارتجال. صحيح أن بيتر لم يفهم كل كلمة، لكنه رغم ذلك وعده بأن يتواجد هناك مع إلياس في الوقت المحدد. فقد تكهن بيتر بأن هذه الفرصة ستكون أكبر نصر في حياة صديقه.

غادر برونو غولر إشبرغ قبل ظهر اليوم نفسه، من دون أن يصف آلة الأرغن الصغيرة بدقة في سجله الكبير، ما أدى إلى عدم ورود

ذكرها أبداً في كتابه الذي ألفه لاحقاً بعنوان «كنز الأرغن الصغير في فورآرلبرغ». فالتقاؤه بموسيقى إلياس آلدر جعلته يضطرب تماماً بحيث أنه لم يكن قادراً لعدة أيام بعدئذ على التفكير بهدوء. لكنه عندما استعاد قدرته ندم أشد الندم على الدعوة، إذ قد يحدث في النهاية، هذا ما اعتمل في قلب الموسيقي الضيِّق، أن يتحول إلياس آلدر هذا إلى منافس. وماذا سيحدث، باسم القديسة سيسي، إذا أعطي مكان عازف الأرغن الثاني الشاغر حالياً في الكاتدرائية لهذا الرجل؟

وفي التو واللحظة غادر غولّر غرفة المطالعة في منزله وخرج إلى حديقة الورود الصغيرة ليستنشق هواء نقياً. مهما كان الثمن، لا بد من منع هذا المخلوق من أن...!

في يوم الأحد الأخير من شهر أغسطس انطلق الصديقان نحو فلدبرغ. كان صباحاً صيفياً بالغ القيظ، ومنذ ما قبل الظهر كان الهواء يئز ملتمعاً في الأفق. وقد بذل بيتر جهداً كبيراً ليحفّز صديقه على الرحيل، ولا سيما أن إلياس خلال ذلك الوقت قد بلغ حداً من اللامبالاة إلى درجة عدم الرغبة بالاغتسال. وكان يفضل في ذلك الأحد البقاء في مرقده ليفكر في عتمة الشبابيك المغلقة بسر استحالة حبه، مثلما اعتاد أن يفعل منذ زمن طويل.

لكن بيتر، وبحيلة لا مسؤولة، نجح في تحريك صديقه، الذي ملّ الحياة، من سريره. فقد نقل إليه إشاعة أن لوكاس آلدر مريض بحمى

الدماغ. ومن يدري، قد تصبح إلزبت قريباً حرة ثانية. لكن إلياس كان يعرف مثله أن الأمر غير صحيح، بيد أن فكرة كون إلزبت حرة منحته الطاقة للسير على الطريق نحو فلدبرغ.

عندما ودع إلياس ذويه – نظر إلى وجه زف المشلول من دون أي كلمة، أمه كانت لا تزال نائمة، فريتس كان يحلب البقرات – انتفض فيليب رافضاً بيديه وقدميه.

حاول إلياس تهدئة الطفل بتلك اللغة الصوتية التي علمه إياها. لكن فيليب حرن وعلا صوت صياحه أكثر، مثل عجل يُجر بالحبال من دفء الحظيرة ليساق من ثم إلى الذبح، هكذا كان فيليب يعاند. فهل يحتمل أن هذا المعتوه قد حدس بأن إلياس لن يعود أبداً إلى الدار؟

في وقت متأخر من بعد الظهر عندما توقفت الشمس عن صخبها دخل الصديقان مدينة فلدبرغ الصغيرة حافيين. كان پيتر يعرف الطريق بصورة واضحة، إذ سبق له أن مشاه مع نولف لإنهاء قضية الميراث. ولذلك لم يفوِّت على نفسه فرصة أن يُري صديقه معالم فلدبرغ الرائعة.

قبل الدخول إلى المدينة الصغيرة، قادماً من الشمال، يمر الطريق الريفي بمنزلٍ مغرق في القدم. بجانب هذا المنزل تقف كنيسة حجرية صغيرة آيلة للسقوط منذ زمن.

قال پيتر متعالماً إنه مأوى العجزة لأهل فلدبرغ، وإن حالفهما الحظ

فسيريان بعض العجزة الذين احتجزوا فيه بسبب عاهاتهم الخبيثة. دخل الاثنان باحة المنزل الأمامية المرصوفة بالحجارة حيث استطاع إلياس فعلاً تبينَّ بعض الهيئات التي شوهتها الجروح والتقيحات، بعيون بائسة وأطرافٍ بعضها مضمَّد وبعضها الآخر مكشوف وقد تأكلها نخر الشيخوخة. لم يُشبع هذا المشهد عيني بيتر بما فيه الكفاية، فتوجه إلى كوى النوافذ ذوات القضبان الحديدية الثقيلة وأخذ يحلق بنهم في المخلوقات البائسة الشقية.

كان سور المدينة القديم متداعياً منذ ذلك الوقت، ولكن أكواماً من حجارته الضخمة كانت لا تزال موجودة، وأهم معالم فلدبرغ حينذاك كان البرج الدفاعي ذو الطوابق الثمانية المنتصبة فوقِ أساس بيضوي الشكل. وتروي الحكاية أنه انتشرت في فلدبرغ في عهد سلالة مونتفورت جائحة قطط لا يمكن تصور مداها، وتشبِّه الحكاية حجم الجائحة بأسراب الجراد الواردة في التوراة.

ولم يعد سكان فلدبرغ يجدون حلاً للخلاص، إذ أخذت القطط، حرفياً، تنهش لحمهم عن عظمهم، ولم يعد الإنسان قادراً في الأزقة على وضع قدمه خارج البيت من دون أن يسبب موجة صاخبة من المواء والنفخ الشرس. فاقترح عمدة المدينة الماكر يورغ بِرْتْشْلَر بناء برج بابلي عالٍ، وجمْع القطط بالسلال ورميها من أعلى السور إلى الهاوية.

وفعلاً تم تنفيذ اقتراح برتشلر، ما أدى إلى الخلاص من الجائحة

بسرعة، ولهذا السبب ما زال البرج حتى اليوم يسمى برج القطط، وفي وقت وصول إلياس كانت المدينة تحتجز في برج القطط اثني عشر جندياً فرنسياً.

قد لا يكون في الأمر ما هو مستغرب، لولا أن أعضاء مجلس المدينة قد نسوا هؤلاء المساكين الاثني عشر في البرج بعد انسحاب القوات الفرنسية. وحتى اليوم ما زالت فلدبرغ تدفع سنوياً قرشاً رمزياً لمدينة أرّاس، موطن ثمانية من التعساء الذين ماتوا جوعاً.

ثمة غرائب كثيرة جديرة بالذكر من هذه المدينة الصغيرة، إلا أننا نرى الصديقين الآن يدخلان حديقة ورود غولّر الصغيرة، ولهذا فإننا سنعود إلى المشهد بصفتنا غير مرئيين لنصف ما كان.

لم تُستجب دعوات غولر الليلية، فها هو الموسيقي المخيف قد وصل إلى المكان المحدد في الوقت المحدد، وها هو واقف بالباب صامتاً شاحباً ومضنى. تأخر غولر كثيراً بالتفكير في الهروب، كان عليه ببساطة ألا يكون موجوداً في المنزل في الموعد المتفق عليه. آه، أيتها القديسة سيِسيليا! كيف لم تخطر بباله الفكرة إلا الآن! التقط غولر أنفاسه، وضع يده على قبة قميصه المنشاة ودعا الصديقين للجلوس في صالون الموسيقى الصغير.

ومنذ أن وقعت عينا إلياس على ملامس آلة موسيقية غريبة، سماها غولر بيانوفورتي، التمعت عيناه مجدداً. وعندما لامست أصابعه الملامس ارتعد واندهش في الوقت نفسه، ولما مرّ عليها جميعها

بحركة سريعة، أسرع غولر باتجاهه مترنحاً وقال متلعثماً بصوت عالٍ بأن على السيد آلدر ألا يتعب نفسه الآن، فامتحان الأرغن سيبدأ في غضون ساعة. لا، فكّر فم الشبوط، في داري أنا حقاً لا يجوز أن أستمع إلى هذا الشيطان. إذ كيف سيتمكن بعدها من الجلوس إلى البيانوفورتي من دون أن يكون معتكر المزاج؟

احتسى بيتر كثيراً من النبيذ الأحمر الذي قدمه لهما، في حين ركز إلياس نظره على الكراسات الموسيقية الكثيرة جداً الموزعة، إما مفتوحة أو مغلقة، على الكنبات وحواف النوافذ وعلى الأرض الخشبية وكأنها مأدبة عشاء متعددة الأصناف ورائعة. «ما الحكمة التي تحتويها هذه الكتب يا ترى؟» فكر إلياس بحزن. لم يأكل أية لقمة أو يحتسي أية رشفة. ثم انطلقوا متمهلين عبر أزقة ضيقة باتجاه كاتدرائية فلدبرغ.

وبين الحين والآخر كان غولر يحاول بجهد أن يقول شيئاً طريفاً، واستغرب أن يأتي إلياس حافياً، وقال لنفسه بصمت: لا يستطيع أحد، مهما كان، أن يحرك دواسات الأرغن بقدمين حافيتين، ثم إن أرغن فلدبرغ، باسم سيسيليا، أعقد وأصعب بكثير من تلك الآلة الصغيرة السخيفة في إشبرغ، وعلى شدقي الشبوط تلامحت فجأة ابتسامة ارتياح.

حفلة الأرغن

تُعد حفلة الأرغن في فلدبرغ أهم حدث موسيقي على مدار السنة، فيحج إليها محبو الموسيقى من السادة والنبلاء حتى من منطقة ليختنشتاين، لسماع فن ارتجال طلبة المعهد الموسيقي. ويعتبر الأرغن الرئيسي أثمن آلة موسيقية في مقاطعة فورآرلبرغ لأنه يمتاز بسبعة عشر صوتاً رئيسياً وبجناحي الترومبيتات والأبواق القوية وبالصوت الفضي الأساسي في صدر الأرغن. وتشكل هذه الآلة نتيجة رائعة لامتزاج فن بناء الأرغن الفرنسي مع الألماني الجنوبي. وقد تمت دوزنة الآلة خصيصاً لهذه الحفلة كما أضيئت بشكل فني من جوانبها كافة.

طلب غولر من بيتر أن يجد لنفسه مكاناً في صحن الكنيسة، فقد كانت الكاتدرائية مزدحمة بالحضور قبل نصف ساعة من بدء الحفلة. ومن النوافذ ذات الزجاج الملون تساقطت على حشد الضيوف شلالات ضوئية مائلة حمراء ضاربة إلى الزرقة، في حين تلألأت النافذة المستديرة كالوردة فوق الشرفة الغربية بألوان كسحر الحكايات.

أما إلياس فقد قاده غولر إلى المؤْهِف حيث جلس الطلاب الخمسة الذين تأهلوا للاشتراك في امتحان الارتجال، وقدمه إليهم باستخفاف يشوبه التحقير قائلاً إن السيد آلدر قادم من بقعة منسية في هذا البلد،

وأنه إنسان بسيط لكنه يتمتع بعبقرية فطرية غريبة عجيبة. وهكذا وقف بطلنا هناك بسترته السوداء المتعرقة، حافياً بقدمين متسختين وأظافر متسخة، بخصلات شعر مدهنة ورائحة كريهة. أما الوجوه الوردية الخمسة بتسريحات الشعر الملساء والقبات المنشاة اللماعة فقد رفعت أنوفها مندهشة ومستغربة هذا المظهر الاستثنائي. وقد جرؤ أحد الطلبة على الإدلاء بملاحظة وقحة قائلاً إنه من المستحيل أن يجلس مع هذا الهمجي على مقعد واحد، ولكن سرعان ما تلاشت الملاحظات الوقحة لأصحاب الوجوه الوردية وتأنفهم منه.

نهض الجميع في صحن الكنيسة عندما خرج من الموهِف نائب الأسقف يتبعه عازف أرغن الكاتدرائية غولر وأساتذة المعهد الموسيقي الأربعة وعازفو الأرغن الستة.

صعد نائب الأسقف إلى المنصة التي علقت عليها قيثارة مذهبة، رتل مقطعاً باللاتينية وقرأ بعده بصوت خطابي كلمات المزمور 150 حيث على الإنسان أن يمجد الرب بالأبواق والمزامير والقيثارات، ثم حيّا بإطالة مملة الأساتذة والدكاترة والمستشارين والسادة الضيوف، كلاً باسمه مع كلمات تزلف وتبجيل.

وأخيراً طلب نائب الأسقف صندوق القرعة المعروف، لأن المسابقة تخضع لقواعد صارمة، فتقدم مساعد قسيس نحيل ورفع إليه الصندوق الصغير. مد نائب الأسقف يده داخله وسحب اسم أول المتقدمين للامتحان.

كان اسمه بيتر پاول بَتْلوغ، في الخامسة عشرة من عمره، وهو ابن رئيس مكتب الضرائب كريستيان بتلوغ، ثم سحب نائب الأسقف اسماً ثانياً وثالثاً وهلّم جرّا. كان ترتيب اسم إلياس آلدر قبل الأخير.

كان هذا هو التسلسل الناظم لتقدم عازفي الأرغن، ثم طلب نائب الأسقف من مساعد القسيس النحيل أن يحضر له كتاب الكورال، فأحضر المساعد الكتاب الثقيل ووضعه مغلقاً على المنصة، فازداد تشوّق الحضور، إذ إن لهذا الكتاب خاصية معينة.

ونائب الأسقف الذي يتمتع بحس مسرحي تلذذ بالصمت إلى أقصى ما يمكن، ثم تناول كتاب الكورال، أوقفه على كعبه، وضع إبهاميه على جبهة الصفحات المذهبة وترك غلافي الكتاب الجلديين الثقيلين فانفتح الكتاب. كانت الصفحة اليمنى من الكتاب الذي انفتح لا على التعيين هي الحاسمة.

قال نائب الأسقف بصوت مليء: «على المتقدم للامتحان بتلوغ أن يرتجل على نشيد (آه يا رب، ما أشد آلام القلب). المطلوب منه: معالجة كورالية بالعزف على الملامس والدواسات معاً، مقدمة وفوغا ثلاثية الأصوات وفق القاعدة القديمة.»

كان إلياس جالساً بشكل منعزل عند نهاية مقعد الجوقة ولم يفهم كلمة واحدة مما قيل.

لكنه رأى بتلوغ ينهض مسرعاً، يغادر مقعد الجوقة، يثني ركبته محيياً ويسرع باتجاه شرفة الأرغن. شعر إلياس بالخوف يركبه. ثبّت

عينيه على باب المؤهِف، إن اضطر فسيهرب عبره إلى الخارج.

بعد بضع دقائق من التفكير بدأ بتلوغ يرتجل. أمسك الشابان القويان عند المنفاخ بالذراع ورفعاها. عزف بتلوغ في البداية لحن الكورال، فقد كان هذا إلزامياً، ثم انتقل إلى المعالجة الارتجالية.

لم يكن ذو الوجه الوردي موهوباً في العزف بصورة لافتة، وقد سمع إلياس ذلك فوراً، لكن عظمة أصوات هذا الأرغن الأسطورية فتنته إلى درجة أن ضاق نفَسه. ويجوز لنا أن نقول بأن إلياس آلدر قد صرف من طاقة التركيز على عزف منافسه أكثر مما صرف على عزفه الخاص فيما بعد.

وعندما أنهى بتلوغ الفوغا الثلاثية الأصوات بصخب مبالغ فيه، عرف إلياس بدقة ما المقصود بالمعالجة الكورالية والمقدمة والفوغا. وقد سبق له في إشبرغ أن عزف شيئاً مشابهاً، وإن كان مختلفاً تماماً وأكثر فنية، والمهم أنه كان أصدق وأكثر تواضعاً. لم يضف المتسابقون الآخرون شيئاً جديداً إلى خبرته، سوى أن مهاراتهم في تشغيل مفاتيح الأصوات تركت لديه انطباعاً هائلاً.

وبفضل حاسة سمعه التحليلي لم يصعب عليه تفكيك بنية الجملة الموسيقية إلى أصواتها الجزئية - ويفضل أن نقول - إلى كل ملمس على حدة، أبيض أو أسود، عالٍ أو منخفض أو متوسط، ووصل به الأمر إلى حد أن يُحسِّن في رأسه سراً هذا أو ذاك الصوت، مثلما كان يفعل في حياة عمه،ثم جاء دوره.

أوقف نائب الأسقف كتاب الكورال، وضع الإبهامين على جبهة الصفحات وتركه ينفتح، صمت برهة ثم قال بلهجة مسرحية: «على المتقدم للامتحان أن يرتجل على نشيد (تعال أيها الموت، يا شقيق النوم). المطلوب منه: معالجة كورالية بالعزف على الملامس والدواسات معاً، مقدمة وفوغا ثلاثية الأصوات وفق القاعدة القديمة.»

نهض إلياس بسرعة، مثلما فعل سابقوه قبله، إذ ظن أن ذلك من واجب الطلبة. كما ثنى ركبته محيياً ثم مشى، ولكن ليس باتجاه شرفة الأرغن وإنما إلى فريدريش فورشْتِغوت غولَّر الذي كان جالساً في مقدمة الجانب الأيمن متوتراً وهو يبرم شاربيه، «أنا لا أعرف لحن هذا النشيد الكنسي»،همس إلياس في أذنه مضطرباً، وأردف:«لا بد أن يعزفها أحدهم لأسمعها ومن ثم يمكنني الار..الارتجـ..الانتخال.»

نهض غولر من مقعده شاعراً بالخزي، ثنى ركبته محيياً وانسحب باتجاه نائب الأسقف الذي جلس لتوه على كرسي الجوقة المشغول بفن الحفر.

انتشر بين الجمهور نوع من القلق وأخذ كثير من النسوة يهمسن في آذان بعضهن بعضا، تطاولن بأعناقهن ونظرن بفضول نحو الرجل الحافي القدمين الواقف هناك. تبادل غولر الحديث مع نائب الأسقف الذي توجه إلى المنصة وأعلن أنه لا بد من قطع مسار الحفلة للحظات قليلة، وبرر ذلك بكلمات غولر المستخفة بأن المتقدم للامتحان المدعو

آلدر آتٍ من بقعة منسية من هذا البلد، وأنه إنسان بسيط، لم يسبق له أن رأى أرغن فلدبرغ أو عزف عليه، لذلك لا بد له من تجريبه، وهو باختصار عبقرية فطرية غريبة عجيبة، وهذا هو سبب دعوته، وفي هذا ما يبرر إجراءنا... إلخ.

على أثر ذلك غادر بعض الرجال الكاتدرائية ليمضوا الوقت بالتدخين، في حين أخرج آخرون - ولا سيما الضيوف القادمون من ليختننشتاين - زواداتهم من اللحم المقدد والخبز والكرفَس من جيوبهم وحشوا بها أشداقهم بنهم. أما سيدات الطبقة الراقية فقد كن يلقمن ثغورهن بملل بحبات الفريز/الفراولة الحلوة الريّانة.

في أثناء ذلك صعد غولر مع إلياس إلى شرفة الأرغن وشرح له هناك بسرعة مبالغ فيها وظائف مفاتيح الصوت، فتح كتاب الكورال على النشيد المعني بالارتجال وعزف لحنه بأضعف صوت ممكن. وعندما ساد الصمت في الكاتدرائية مجدداً كان إلياس ما يزال ممعناً التفكير في كلمات النشيد، فقد أسرته الكلمات واللحن منذ اللحظة الأولى:

تعال أيها الموت، يا شقيق النوم،

تعال وخذني من هنا،

حرِّك مجداف قاربي الصغير،

أوصلني إلى مرفأ آمن!

قدْ يهابك من يشاء،

لكنك بالأحرى ستسعدني،
فعن طريقك سألتقي هناك
بيسوع الأجمل.

قبل أن يبدأ هذا الإنسان عزف موسيقاه بأسلوب لا علاقة له بالبشر، فلنلقِ نظرة على بيتر الجالس تحت قوس شرفة الأرغن في المكان الأشد خنقاً في الكنيسة، ويداه متشنجتان في حضنه، وهو بالكاد يجرؤ على التنفس ولا يلتفت إلى يمينه ولا إلى يساره. إنه يبدو فجأة رجلاً متألق الجمال. أم أن ظلال نور الشموع المتراقصة تخدعنا؟

ظهرت على وجهي الشابين عند منافيخ الأرغن علامات إشفاق على مظهر إلياس الخارجي، وعندها هدرت سلسلة أصوات عالية جداً وهائلة من أسفل لوحة الملامس إلى أعلاها، لدرجة ظن الشابان معها أن الأرغن سيتداعى منهاراً. انقطعت السلسلة، أخذ إلياس نفساً عميقاً وأطلق سلسلة مماثلة، ولكن أكثر علواً بالتزاوج مع خطِ جهيرٍ بالدوّاسات مزمجرٍ سقوطاً. وعندما تنفس للمرة الثالثة جعل آلة الأرغن تفور ثانية مع تخفيف خط الجهير إلى نصف قيمته، بحركات سريعة على الدواسات تكاد تكون مستحيلة.

وختم السلسلة بانسجام يتمزق ألماً للإيقاعين الأولين من الكورال، ثم خنق العازف الموسيقى بصورة غير مبررة نهائياً، وكأن يديه ستسقطان فجأة عن لوحة الملامس. تنشق إلياس الوقفة المشحونة بتوتر بالغ، ضغط الملامس مولداً سبعة أصوات وعزف الكورال حتى

الإيقاع الثالث، قطع، تنفس، ولَّد انسجاماً بين تنافرات مركبة حتى الإيقاع الرابع، قطع، تنفس، ربط اللحن الرئيسي المتعدد الأصوات مع انسجامية الكورال، قطع، تنفس، قطع، تنفس، وكل ذلك في مدة تجاوزت الخمس دقائق.

أراد بذلك أن يصور كيف على الإنسان أن يجابه الموت، يواجه المصير، بل الرب نفسه، الموت بصفته صمتاً طاغياً مباغتاً، كانقطاع لا يحتمل. الإنسان المذلول وهو يرفع عقيرته بصلاة لا جدوى منها، يمزق قميصه، يشد شعره، يلعن كالمجنون، لكنه يُرمى أرضاً ثانية وثالثة. فلا جدوى من أي احتجاج.

بذل الشابان عند منافيخ الأرغن جهداً جباراً للحفاظ على تدفق الهواء إلى المنافيخ بصورة متوازنة وقد سال العرق على وجهيهما الورديين كالسرطان المطبوخ، ونحن نعتقد أنهما قد تعرقا خوفاً، وفي صحن الكنيسة حيث ساد صمت رهيب فجأة جرى أمر غير عادي.

ففم الشبوط كان مفتوحاً عن آخره، والأساتذة الأربعة بوجوههم الطبشورية لم يصدقوا آذانهم، والتفت كثير من الحضور بأفواههم التي ما زالت محشوة بالخبز نحو الشرفة محدقين بواجهة صفارات الأرغن المضاءة وقد نسوا البلع نهائياً.

بعد هذه البداية الجنونية، بعد هذه الدفقات من يأس لا يصدق، بدا وكأن الموسيقى قد تلاشت، رغم عودة الغضب إلى التوهج

ثانية هنا وهناك ورغم اندلاع نيران عجيبة من انسجامات صوتية لم يسمعها أحد قط سابقاً. ترك إلياس مفاتيح الصوت ترتد الواحد تلو الآخر في تركيب جعل الأصوات تزداد نعومة تدريجياً، وأخيراً هوت الموسيقى إلى (مول) حالك مشؤوم، يصعب تعرفه لطول ما حوَّم العازف حوله. وقد فكر إلياس أن يعبّر بذلك عن الاستسلام الكامل للكائن البشري: إنه ملقىً أرضاً وقد غادرته الآمال كلها، والأرض من حوله متجمدة.

شيئاً فشيئاً أخذ المستمعون المذعورون يستوعبون رسالة عازف الأرغن. لا، إن هذا الجالس في الأعلى لا يعزف فقط، إنه يخطب واعظاً. وما يعظ به كان الحقيقة الباردة الجلية. وبدا للحظات معدودة أن الفلاح الإشبرغي قد نجح في تذويب أرواح هؤلاء البشر المتباينين في روح واحدة. فقد هيمن في الكاتدرائية جو مخيف، وكأن الطفل والشيخ قد حدسا في الوقت نفسه بأن الموت ماثل بين هذه الجدران، وأن النوم صنوه سيغشاهما.، وفجأة كان في وجوه هؤلاء البشر شيء حقيقي جلي. فقد ذابت الأقنعة وغطت كل وجه سكينة خاشعة، وكان يمكن للإنسان أن يقرأ من ملامح الوجوه الطريقة التي يحاول بها كل منهم مواجهة صوت الموت. ويا لها من مسرحية، موضوعها العجز!

كان قد مضى أكثر من نصف ساعة على عزفه، ولم تتلامح النهاية بعد، ولكن من خضم الخواء الواسع المظلم تحركت تدريجياً بعض

أصوات الاستعطاف.

تلت الأنغامَ أنغامٌ أخرى، عابقة وناعمة كالحشائش تحركها نسمات ربيعية. وتبعت هذه الأنغامَ أنغامٌ جديدة أخرى، كانت أنغام إلزبت. وتلت أنغامَ إلزبت أنغامُ الكورال.

لكن الكورال كان الموت. وهكذا نشأت رقصة، حركة صعود وهبوط عابر لأفكار موسيقية متجددة باستمرار. انتقلت الموسيقى إلى إيقاع لا متماثل، عادت وانتقلت ثانية. ومن سهولة توالد الأصوات الجديدة باستمرار كان بإمكان المرء التكهن بأن إلياس لم يعد يحكي عن هذا العالم. لقد نهض الإنسان من الخواء، ولم يعد ثقل الأرض يجره إلى الأسفل.

وعلى الرغم من أن غولر لم يشرح له مفاتيح الأصوات إلا بسرعة وسطحية، تمكن إلياس من مزجها بأسلوب فائق المهارة. ومثلما يندهش الرسام من الغنى الهائل لتدرجات ألوانه، هكذا كانت دهشة إلياس من إمكانات هذا الأرغن. كان إلى حين جالساً إلى الآلة متشنجاً وعيناه ملتصقتين بالملامس اليدوية وبالدواسات. أما الآن فقد حلت السكينة في عينيه واسترخت أعضاؤه ولان ظهره. وخيِّل إليه وكأن الأرغن صار يعزف فجأة من نفسه. لقد تعلم السيطرة على حيَله وصار بإمكانه الآن أن يتوسع بارتياح، أغمض جفنيه ورفع رأسه وعاد في مخيلته إلى إشبرغ فيما كان الأرغن ينشر الصور البازغة فوق رؤوس المستمعين بأصوات حلمية منتشية بهيجة.

صارت الطبيعة موسيقى. تلك الأيام الرهيبة من نوڤمبر، حين كان ضباب وادي الراين يترجرج صعوداً وهبوطاً في حقول داره، في موطنه. وكيف تجمد الضباب في الغابات مخلفاً خيوطاً جليدية مدلاة من الأغصان ومغلفاً لحاء أشجار التنوب بطبقة من الجليد البالغ النعومة، وكيف تواجه القمر والشمس في الأفق - القمر كرغيف قربان مكسور والشمس مثل وجنة الأم.. تحول ضوء الحريق الأول إلى موسيقى. ألوان نوافذ كنيسة إشبرغ عندما أخذت تضيء في الطرف الشرقي من مكان الجوقة. أجساد الصارخين رعباً التي انضغطت وتداخلت ببعضها. دار نولف آلدر المشتعلة.

الفتاة في الحجرة التي غشاها الدخان، كيف كانت مستلقية تحت شبك السرير بعينين متيقظتين وثغرها الصغير يعض على الدمية القماشية، حيوانات الغابة في ثلوج يناير. وكيف كان يناديها بأصوات وصفرات لا يمكن سماعها. وكيف لم يظهر أي منها في أفق الأغصان الجرداء الكثيفة. ضحكة موت رومان لامبارتر الملقب مايشْتنتايلز.. تحول الحدث الليلي العابر إلى موسيقى، حين استلقى مرة في الأعشاب السوداء لحقل جبلي ما زال طرياً.

كيف باعد ذراعيه وساقيه وتشبث بأصابعه في العشب وكأنه يتمسك بهذه الدنيا الواسعة الكروية الجميلة. وتذكر الكلمات التي غنّاها في تلك الليلة: «من يحب لا ينام! من يحب لا ينام!»...

وتحولت إلزبت إلى موسيقى. إلزبت! لون ورائحة شعرها الأصفر

كأوراق الشجر، عرجها الذي يكاد لا يُلحظ، ضحكة صوتها العميق، عيناها المستديرتان اليقظتان، أنفها الصغير، ثوبها الأزرق ذو المربعات الكبيرة. كيف كانت تخطو بين الأعشاب بحذر كيلا تدوس أزهار المرغريت الصغيرة. وكيف كانت تربِّت بيديها الصغيرتين على خطم البقرة وتحادثها وتلقي خفية قشور التفاح للخنزيرات.

وبينما كان يترجم هذه الأفكار إلى أنغام متناهية الرهافة أحس فجأة بخفق قلب إلزبت، واضطرب وكاد إيقاعه أن يضيع، لكنه بقي وامتزج بخفق قلبه. وما حدث هو أن إلياس قد عاد يحب.

وبعد أن حكى كل ما يُحكى من حياته ترك الموسيقى تغيب مع تآلف سباعي الأصوات ناعم وأراد أن ينتقل الآن إلى الفوغا، إلى تمجيد السماء، إلى حلم عالم محب.

كان قد سيطر على الناس فجعلهم كالمنومين. جلسوا على مقاعدهم بلا حراك، حتى أجفانهم توقفت عن الحركة، وتباطأ تنفسهم، وصار تردد ضربات قلوبهم كتردد ضربات قلب واحد، فيما بعد لم يستطع أحد أن يحدد المدة الحقيقية لعزف إلياس آلدر، وحتى بيتر لم يعرف، فأجفانه توقفت أيضاً عن الحركة. ووراء جبهته اللئيمة ساد سلام.

وولادة هذه الحالة الغريبة من التنويم، لا يمكن تفسيرها إلا بماهية موسيقى إلياس. لا شك في وجود موسيقيين كبار قبله، كان بإمكانهم التعبير عن الحالات الروحية للعواطف بأسلوب موسيقي أصيل.

غير أنهم لم يتعدوا ملامسة هذه العواطف، وعاشق الموسيقى كان يتفاعل معها ويصعِّد حالته بإرادته، ولا يزال يفعل ذلك حتى اليوم.

ولكن في لغة الموسيقى ثمة ظاهرة لم تولَ من البحث إلا القليل حتى الآن. إذ تسود في تراكيب انسجامات الأنغام اللامتناهية حالة يؤدي سماعها إلى تحرير شيء ما في ذات المستمع لا يمتُّ إلى الموسيقى بصلة إطلاقاً. وقد اكتشف إلياس منذ صباه بعض هذه الانسجامات والمتتاليات النغمية وتمكن من تجريب تأثيرها على نفسه وعلى الآخرين.

لنتذكر صباح ذلك الفصح عندما نجح في شحن شخصيات فلاحي إشبرغ للحظات بالسماحة والكرم اللذين تجليا في تسابقهم على إبداء المجاملات تجاه بعضهم بعضاً. فعندما كان يعزف إذن، كان قادراً على هز الإنسان من أعماق روحه. ولم يكن بحاجة لتحقيق ذلك إلا إلى وضع الانسجامات التي توصل إليها في سياقات عضوية موسيقياً ذات روابط أوسع، فلا يعود المستمع قادراً على تجنب تأثيرها.

فكانت الدموع تسيل من عينيه لا شعورياً، ويعاني من خوف قاتل لا شعورياً، ويحس لا شعورياً بأفراح الطفولة، بل وبمشاعر إيروسية أحياناً. وتحقيق ذلك عن طريق الموسيقى كان بفضل يوهانس إلياس آلدر. لا شك في أن موسيقاه كانت تستقي من التراث الكلاسيكي في ابتداع الانسجامات، فهو لم يسمع سواها قط، لم يسمع سوى كورالات عمه الوعرة. ولكن بمرور السنين، تحت وطأة تمزق روحه

المتفاقم توصل إلى مثل هذه اللغة النغمية الهائلة والتي لا مثيل لها قبله ولا بعده. وإنه لمن الحتميات المؤسفة في تاريخ الموسيقى الغربية أن هذا الإنسان لم يدوِّن مؤلفاته الموسيقية.

عندما افتتح موضوع الفوغا بجوقة أصوات منخفضة كاملة بالملامس صاح ثالث الأساتذة الأربعة ذوي الوجوه الطبشورية فجأة: «هذا مستحيل! هذا لا يصدق!!»، وما عاد بالإمكان إعادته إلى الجلوس على مقعده إلا بقوة عنيفة. فقد كانت ثيمة الفوغا تمتاز بخلق فني هائل وبطول استثنائي، بحيث خيل للمستمعين أن أموراً خارقة للطبيعة تجري على شرفة الأرغن. تشكلت الثيمة من الأصوات الأساسية للكورال موضوع الارتجال، غير أنها تميزت بخصوصية صوتية مرصعة بعناصر حلمية، بحيث صاحت شابة جالسة في الجانب الأيسر، وبحق: «إني أرى الجنة!» وامتدت الثيمة وطالت متنقلة من متتالية نغمية إلى أخرى بارتفاع متدرج وأكثر رقة إلى أن حطَّت أخيراً في اللحن الرئيسي حيث سيكرر الصوت الثاني اللعبة نفسها من بدايتها.

إن ما وصل إلى أذنيه من أساليب الفوغا من العازفين الذين سبقوه وظفه الآن بمنتهى السهولة في صياغته الخاصة. لقد تعلم أن الثيمة تعاود الظهور بصورة دورية، وذلك وفق علاقة محددة لعدد من الملامس بالمقطع السابق. وقابل الجدية الكنسية الصارمة لسابقيه بانسيابية مسترخية. أراد أن يرسم بأنغامه تمجيداً للسماء،

سلماً ملائكياً يرتفع باستمرار إلى مرتبة فردوسية، يخفت فيها النور الأرضي ويزداد بريق الكمال وتلألؤه ألقاً. كانت فوغا إلياس آلدر تشبه بحراً تتراقص أمواجه بسرعة وتكبر وتتكامل إلى أن تصب أخيراً في لا نهائية المحيط.

ما كان غولّر يسمح لنفسه بالسقوط في حالة ذهول، مهما كلف الأمر، ولذلك كان بين الحين والآخر يقرص ذراعه، وقد عدَّ حتى الآن تنويعة العزف الثامنة للثيمة في نسيج حبكة طباقية مؤلفة في مجموعها من سبعة أصوات يتحرك كل منها بحرية. فلعن غولَّر معلمه العجوز، المغني الشهير راينْبرغَر، لأنه علمه في الماضي أن الفوغا لا يجوز أن تتضمن أكثر من خمسة أصوات، وإلا فإنها تنحدر إلى توافق أصوات يفتقد إلى شفافية كل خط على حدة. وزمجر غولر بينه وبين نفسه: «كم كنتَ أحمقَ يا أستاذ راينبرغر!» ونتف شعرة من شاربه المبروم.

عندما بلغت الموسيقى درجة لا تُدرك من التعقيد، وانقلبت إضافة إلى ذلك إلى أقوى درجات السرعة، بدت نهاية الفوغا قريبة. إلا أن الياس لم يكن قادراً على الاختتام.

وبما أن الحركة الفائقة السرعة والعالية تفقد مع الوقت تأثيرها البالغ، حاول زيادة الإحساس بالصوت العالي المتلألئ، وذلك بدفع الحركة باضطراد إلى حالة نغمية أعلى، مبتدعاً توافقات تبدو حتى إن عُزفت خافتة، مثل عزف سريع قوي وغير قابل للتفسير. وعندما بلغ

أقصى درجات الاستحالة قطعَ حبكةِ النسيج كله دفعة واحدة مثلما فعل في بداية عزفه، فتولدت وقفة صمت صادمة، كفجوة هائلة بلا قرار سيبتلع سوادها كل شيء.

لم يكن صوت التوافق النغمي المقطوع قد تلاشى بعد، عند سطع الكورال الكامل (تعال أيها الموت، يا شقيق النوم).

وبما أن الياس بأصابعه وقدميه لم يعد قادراً على حَبْك الصوت الثامن في النسيج بدأ يغني بنفسه، وقلد بصدره المنتفخ صوت أنبوب أرغن بارتفاع ثمانية أقدام، حبكَ اللحن بقيم نوتات طويلة في نسيج الأصوات، بينما قامت قدماه بعزف الكورالَ وفق الأسلوب الكنسي مع تقصير قيم النوتات، وعزفت يداه ثيمة الفوغا بفنية لا توصف وهي تقود الأصوات نحو الختام وتعكسها في الوقت نفسه.

فعن طريقك سألتقي هناك

بيسوع الأجمل.

وأحس إلياس بغبطة داخلية، وتجلت غبطته في (دْورْ) منسابٍ بلا نهاية، ختم به هذا الارتجال اللا معقول، بل المجنون.

ثم حل صمت، لم يُسمع في أثنائه سوى اللهاث الثقيل الصادر عن الشابين عند منافيخ الأرغن، فقد ساقهما عزف إلياس إلى حافة الإنهاك.

وعلق أحدهما لاحقاً بقوله: «إن الهواء الذي استنفده هذا، لا

يستهلكه غولّر، ولا على مدار سنة كاملة.»

وحتى إلياس جلس على كرسي الأرغن بلا حراك. ثم مسح بكم قميصه العرق عن وجهه، أرجع خصلات شعره الخفيف إلى الوراء ونظر باتجاه زاوية القَبا حيث تنتصب تماثيل مجموعة باكيات المسيح. والآن فقط صار من الممكن رؤية مدى استهلاك هذا الارتجال الذي تجاوز الساعتين لبنيته الجسدية. وجهه الناحل أصلاً بات رمادياً، كما غار خداه وبرزت عظام الفكين وجفت شفتاه. لقد نقص وزنه.

وفجأة مزقت الصمت الشبحي في الكاتدرائية صيحة رجل: «براڤو آلدر!!» وكررها الصوت ثانية بعد قليل: «براڤو آلدر، براڤو!!»

تصاعدت الصيحة من الثلث الخلفي من صحن الكنيسة، من الاتجاه الذي كان يجلس فيه بيتر. وعلى كل حال كان للصيحة تأثير محرر لدرجة أنها ولَّدت فجأة صخباً حقيقياً. فقد آفاق الناس من غشيتهم وبدؤوا يصرخون ويهللون ويكررون الصيحة. ونهضت الصفوف بصورة متتالية والتفتت الرؤوس نحو الشرفة وهللت للمعجزة، للرجل غير المرئي. وقُذفت القبعات في الهواء، والسلال والوشاحات، ونعتقد أننا رأينا حتى حزمة أقمطة ترتفع في الهواء.

سادت البهجة الآن حشد المستمعين الذين أخذوا يصيحون بحناجر متيقظة «براڤو آلدر!! براڤو آلدر!!».

انتفض نائب الأسقف من مقعد الجوقة المزدان بالحَفر، تعثر في

مشيته نحو المنصة وقد صُمّت أذناه، رفع ذراعيه فوق الناس المهللين وحاول إجبارهم على الصمت.

صاح من دون أن يسمعه أحد: «أيها الجمهور الفاضل! أناديكم باسم الرب! فهذا مكان مقدس!»

لكن الصخب ازداد وتعالى، ونهض الجميع عن مقاعدهم، فقد أخذتهم الحماسة ولم يعودوا قادرين على الحفاظ على هدوئهم. أعطى نائب الأسقف أوامر يائسة بفتح بوابات الكاتدرائية على مصاريعها تحسباً لوقوع تدافع، ولكن لم يرغب أحد في مغادرة الكاتدرائية قبل أن يرى الرجل المعجزة بأم عينيه.

«براڤو آلدر!! براڤو آلدر!!» هتف الحشد الآن وقد التفت بكليته نحو شرفة الأرغن.

وأخيراً اقترب العازف من درابزين الشرفة، والأنوار التي كانت تضيئ الدرابزين من الأسفل جعلت وجه العازف يبدو أكثر شبحية. تخلل الهتافات صيحات «آه!» و«أوه!» وسُمع عويل أطفال ونساء. ولكن سرعان ما اندلعت التهاليل من جديد، وأضاء وجوه الناس صوت (الدْور) المنساب المغتبط الذي اختتم به إلياس ارتجاله. تمسك إلياس بحافة الدرابزين، من دون أن يلاحظ أحد أنه كان يبكي من السعادة والإنهاك. أم أنه كان يبكي على القرار الحاسم اللا معقول الذي اتخذه في أثناء عزفه على الأرغن؟

نزل من الشرفة إلى الحشد الذي شقّ له ممراً احتفالياً. دفعت امرأة

من الطبقة الراقية بحفنة من الفريز/الفراولة في شق قميصه الكتاني، وفي جيبي سترته خشخشت قطع النقود المعدنية، كما دُست فيها نقود ورقية. وعندما ثنى ركبته محيياً كسابقيه أمام مجموعة الأساتذة ذوي الوجوه الطبشورية أخذ الصخب يخفت تدريجياً.

أراد نائب الأسقف أن يوقف كتاب الكورال على كعبه مجدداً وأن يحضّر الاحتفال للمشارك الأخير في الامتحان، فصاح المستمعون وكأنهم فم واحد:

«هذا هو الفائز!!! القيثارة لآلدر!!!»

وهتفوا باسم موسيقينا إلى أن غادر نائب الأسقف المنصة يائساً وانسحب إلى الموهِف للتداول مع غولر والأساتذة الأربعة. ولم تطل مدة التداول. وعلى الرغم من محاولة غولر إقناع السادة بأن آلدر قد أطال في ارتجاله جداً، وأن ما عزفه لم يكن معالجة كورالية ولا مقدمة ولا حتى فوغا وفق القاعدة القديمة باسم القديسة سيسيليا، وإنما سمفونية ضخمة من دون تحديد واضح لتسلسل الأنواع... وعلى الرغم من إلحاح غولر الشديد على غرابة هذه الموسيقى بصورة عامة، لم يُجْده الأمر شيئاً: فقد أضاءت وجوه الأساتذة الطبشورية بحماسة منقطعة النظير.

وهكذا أنهي حفل أرغن فلدبرغ قبل أوانه. كان إلياس ذاهلاً عما حوله عندما كبس نائب الأسقف القيثارة الذهبية على شعره المدهن وامتدحه بصفته موسيقياً محترماً وعبقرية فطرية. صاح الجمهور

وهتف، فنبه نائب الأسقف الحضور إلى ضرورة التحلي بالرزانة، ووزع أخيراً، وقد نفد صبره، بركاته باللاتينية على الحشد. ومن ثم انفضّ الجميع.

وغولر غادر أيضاً، وعلى نحو من العجلة، بحيث لم يبق وقت لإرشاد الشابين الإشبرغيين إلى مكان مبيت، حيث يمكنهما قضاء الليلة بسعر مناسب. لقد أمل غولر بأن المتروكين وحدهما سيغادران في الليلة نفسهما إلى داريهما. وتحققت أمنيته.

صار ظهور إلياس البديع حديث المدينة في فلدبرغ طوال أيام. وفي قاعات المعهد الموسيقي الرطبة حميت النفوس، إلى حد أن توقفت الدروس عامة في البداية، وكان الحديث لا ينقطع عن ابن الفلاح العبقري. وفي تلك الأيام عانى غولر من طنين مؤلم في أذنيه، ما أدى إلى توقف دروس الارتجال طوال أسبوع.

وفي فِرْدِنْبرغ، وهي قرية صغيرة في ليخْتنشتاين أعلن ثلاثة شباب متحمسين عن تأسيس «جمعية إلياس آلدر» التي سيكون هدفها إقامة تمثال معدني للموسيقي.

غير أن جوهر الإنسان ليس ثابتاً، فما أسهل ما ينسى ما أقسم ليلاً على تنفيذه وقبضة يده مرفوعة. وفعل الزمن فعله، فسرعان ما غابت آخر الأنغام المتلألئة عن بُعد من حفلة الأرغن، وكذلك لم يتحقق تشييد التمثال المعدني أبداً.

ثمة أمر لا بد من ذكره، وهو أن وظيفة عازف الأرغن الثاني قد

مُنحت أخيراً بيتر پاول بَتلوغ، إذ تمكن غولر من التأثير في عقول الأساتذة بنجاح، إذ قال لهم إن عازف الأرغن الذي لا يعرف قراءة النوتة الموسيقية، لن يتمكن مطلقاً من عزف الموسيقى الكنائسية التقليدية. وإضافة إلى ذلك فإنه سيشكل عبئاً مالياً على صندوق الكاتدرائية، إذ لا بد من تأمين مسكن لائق لهذا الفلاح المعتز بنفسه كسائر الفلاحين، والذي سيطلب نتيجة لذلك ضعف الراتب المعتاد، إن لم يطلب ثلاثة أضعافه.

ولكن ثمة رجلاً واحداً لم يهدأ له بال حيال الأمر. كان واحداً من مجموعة الوجوه الطبشورية الأربعة، وبالتحديد ذلك الذي صاح مع بداية الفوغا: «هذا مستحيل!! هذا لا يصدق!!». بعد مرور نحو أربعة أيام على اختفاء إلياس آلدر تلقت زفين رسالة صغيرة، احتوت، إضافة إلى ورقة نقدية كبيرة، ملاحظة بضرورة مثول الموسيقار إلياس آلدر من دون تأخير في مكتب إدارة الكاتدرائية. فهناك مواطن رفيع المقام قد خصص له مبلغاً كبيراً يؤهله بارتياح لدراسة الفنون الحرة.

ولم يكن هذا المواطن الرفيع المقام طبعاً سوى كاتب الرسالة نفسه. لكن الرسالة وصلت متأخرة جداً، ففي حينه كان إلياس آلدر قد مات. حتى زفين لم تكن على علم بذلك، إذ كانت تظن أن ابنها ما زال في فلدبرغ. لم يدر أحد بالأمر سوى بيتر.

عندما وطأ الصديقان طريق العودة، لم يعد بيتر هو نفسه، صار يعانق إلياس المندفع على الطريق بلا مبالاة، ويعاود عناقه ويصيح

فرحاً ويتراقص عدة خطوات إلى الأمام، يقف في وسط الطريق فارداً ذراعيه، يضم إلياس بين ذراعيه، يقبل جبهته، وبدا كأنه لا يريد التوقف عن الضجيج والكلام: فقال مهتاجاً ومبالغاً في مجاملته بأن ما حققه إلياس هناك لم يعرف أولئك المدنيون مثله قط. وقال پيتر بتأثر ظاهر إن يوهانس إلياس آلدر كان سيد تلك الأمسية وانحنى أمام صديقه احتراماً.

وأي مستقبل مجيد سيزهو أمامه الآن، فعزف الأرغن سيجلب له ثروة. تدفقت هذه الكلمات من فم پيتر وهو يخرج النقود الورقية والمعدنية من جيبي إلياس ويتركها تخشخش بين يديه، ثم أردف بأنه سيبيع داره وينتقل معه إلى فلدبرغ، ومن هناك سينطلقان في رحلات طويلة في عربات فاخرة مغلفة بقماش الدامسكو، سيجولان عبر البلد، ومن يدري، قد يصلان حتى إلى إنْسبروك. وبمرور الزمن سيكون إلياس بعزفه على الأرغن قد جمع ثروة طائلة...

لم يستطع پيتر أن يهدأ، ولم يتنبّه نهائياً إلى أن ذهن صديقه مشغول بأمور أخرى، فحتى طراوة الليل اللطيفة لم تستطع ترطيب قلب هذا الحالم. ولكن بما أن إلياس لم يَحِرْ جواباً على أي سؤال، صمت پيتر أخيراً. ومشيا ثلاث ساعات من دون أن يتبادلا أية كلمة.

عند انبلاج الفجر بلغا غوتسبرغ، وعندما أراد پيتر التوجه إلى مفرق إشبرغ فتح إلياس شفتيه فجأة. قال بصوت رقيق إنه يريد

المشي نحو إشبرغ في سرير نهر الإمَّر، فهو درب آلام قديم مشاه كثير من الإشبرغيين عندما دمرت النيران حياتهم. لم يستوعب پيتر هذه الرغبة الغريبة واعترض بأنه متعب من مشقات النهار والليل. لكن إلياس بقي مصراً على موقفه وقال بلهجة غامضة إن عليهما مواجهة مشقات أكبر في أمور كثيرة قادمة.

وهكذا تسلقا بصعوبة نحو إشبرغ ملتفين حول الشلالات التفافات واسعة إلى أن وصلا أخيراً إلى الديار، وبدقة أكبر: إلى الصخرة التي جلختها المياه.

جلس إلياس هناك صامتاً، شبك ذراعيه وتكلم بصوت هادئ: «يا صديقي، أنا لم أشِ بك عندما أشعلتَ النار في القرية. ولهذا عليك أن تقسم لي الآن على أنك لن تشي بي. اقسم بأن كل ما سيحدث الآن وفيما بعد سيبقى مكتوماً في قلبك حتى قيام الساعة!»

نظر پيتر إلى صديقه الجالس بعينين مرهقتين ولكن حائرتين. ومع ذلك رفع أصابعه وأقسم على الكتمان الأبدي. أمره إلياس أن يعود إلى داره وأن ينام هناك حتى الشبع ومن دون أدنى حرج، ثم عليه أن يشيع في القرية أنهم قد استبقوه في فلدبرغ وأنه لن يستطيع العودة قريباً إلى إشبرغ. وعليه أن يعود نحو المساء حاملاً معه حبالاً كتانية وزوادة طعام تكفي لأسبوع. ثم قال إلياس بلهجة تكاد تكون مهدِّدة بأنه لا يجوز لأحد على الإطلاق أن يعرف بأنه

قد عاد إلى الديار.

«وإذا سألت عنك إلزبت؟» قال بيتر بصوت دافئ. صمت إلياس ونظر إليه بعينين خاويتين إلى درجة أن اقشعر ساعدا بيتر.

انطلق بيتر ونفَّذ ما كلفه به إلياس.

تعال أيها الموت، يا شقيق النوم

ما كاد پيتر يضطجع حتى سمع صوت قبقاب لوكاس آلدر يدب على الدرج. فقد قام في أثناء غيابه بالاعتناء بالدواب، فحلب البقرات ثم سرحها في المرعى.

نهض پيتر من فراشه، توجه نحو لوكاس وأخبره بما جرى في فلدبرغ، وكان يضيف مكرراً بين الجملة والأخرى أن السادة الأساتذة أرادوا إبقاء إلياس عندهم لمدة طويلة، بغرض اختبار عبقريته الفطرية الفريدة في نوعها. قابل لوكاس حديث پيتر بصمت غبي، لكنه سأله عما إذا كان عليه أن يحلب البقرات بدلاً عنه، إذ بدا له پيتر مرهقاً جداً من السهر. بيد أن پيتر أخرج من جيبه خمسة قروش ومد ساعده المشوه للوكاس مصافحاً وتركه يذهب إلى داره. وقبل الظهر ذهب پيتر إلى زفين وكذب عليها بالقصة نفسها، وصادف أن مر من هناك ثرثار آل لامبارتر، فتأكد پيتر أن الجميع سيعرفون قريباً سبب غياب إلياس. وفعلاً دار الثرثار على كعبه متوجهاً صعوداً إلى مدرسة القرية وخوّل نفسه إعطاء إجازة للأطفال المجتمعين هناك بانتظار إلياس.

لم يتمكن پيتر من النوم على الرغم من استلقائه في مضجعه مجدداً عند الظهر، فقد كانت الحرارة خانقة، فتأهب لحزم حبال الكتان وزوادة الطعام. ثم استلقى بعد الظهر ثانية، ولكن هذه المرة بين

جدران قبوه، حيث نام بصورة مضطربة وهو يتقلَّب من جنب إلى آخر، إذ داهمته الكوابيس.

عندما غابت الشمس خلف جبال وادي الراين تنكب حقيبة الظهر وسار بشكل ملتو طويل هبوطاً إلى سرير الإمَّر، من دون أن يحدس بأنه سيكون شاهداً على عملية انتحار طويلة مؤلمة لا تصدق.

كان إلياس جالساً في البقعة، حيث بدأ كل شيء وحيث سينتهي الآن كل شيء. وكان قد حلق شعر رأسه الطويل كله، والنصل الحجري الحاد كورقة الشجر ملقى إلى جانبه، وقد وضع خصلات الشعر في فمه. لم يفهم بيتر ما الذي يعلنه إلياس بذلك. كان إلياس يحدق بثبات في ماء الإمَّر المنساب من دون أن يكون قد نام لحظة واحدة. اقترب بيتر منه، قبّله على جبهته وأحاط براحتي يديه رأس إلياس الحار كالجمر، وأدرك أنه قد جن.

«إلياس» همس بيتر «لماذا تسبب لنفسك مثل هذه الآلام؟ لقد أصبحت رجلاً مشهوراً.» وأضاف بمكر خفيف أنه قد لاحظ في كاتدرائية فلدبرغ مجموعة صغيرة من الشابات الجميلات اللواتي كن يراقبن عازف الأرغن بعيون مدلهة حباً. أراد بذلك أن يمنحه بعض الأمل. لكن فكرة أن يأخذ إلياس لنفسه امرأة ويتخلى عنه، آلمته جداً لدرجة أن تناسى الفكرة.

أخرج إلياس خصلات الشعر من فمه وسأله بعينين غائرتين: «هل شبعت نوماً بارتياح؟»

«لم أستطع النوم» أجاب بيتر «رأيت كابوساً مرعباً.» وترك رأس صديقه.

«دعنا نذهب قبل أن يحل الظلام، لنجمع الداتورة وفطر المجانين وكرز الجنون!» قال إلياس وأردف «سأحتاج إلى هذه الأشياء عندما يهاجمني التعب.»

كان بيتر يعرف التأثير المنبه لهذه المواد، لكن ما لم يفهمه بعد، هو ما الذي ينوي عمله إلياس فعلياً. فسأله بابتسامة مصطنعة: «أتريد أن تبقى جالساً هنا بانتظار يوم الدينونة؟» فوافقه إلياس على سؤاله بمنتهى الجدية. فقال بيتر غاضباً: «لكنك تحتاج إلى النوم. رأسك محموم. كن حصيفاً ودعنا نذهب أخيراً إلى بيوتنا!»

عند سماعه هذه الكلمات نهض إلياس عن الصخرة، باعد ما بين أطرافه وقفز فجأة في ماء الإمر الجبلي البارد. غطس إلى القعر ثم ظهر مجدداً على السطح. هز أعضاء جسمه ثم أخذ يدير رأسه وذراعيه في دوائر مجنونة، وصاح باتجاه بيتر: «يغطس المرء منهكاً وإذا بالنعاس يغادر الأعضاء من نفسه!»

وعندما رفع نفسه إلى خارج البركة لاحظ بيتر أنه يبذل جهداً كبيراً لتنسيق حركاته، ولم يدهشه ذلك، فصديقه قد أمضى يوماً وليلة ويوماً آخر من دون نوم. لكن الأمور ستغدو أكثر شبحية بكثير.

بعد أن قوّى إلياس نفسه بخبز وعصيدة جريش مجففة وبيض نيّئ انطلقا بحثاً عن أوراق الداتورة وفطر المجانين وكرز الجنون. وكانا

على وشك أن يُكتشفا، فقد كان رجل من آل لامبارتر يضاجع أخته في الغابة، لكن صرخة الفتاة طلباً للنجدة نبهتهما مبكراً.

عاد إلى الصخرة التي جلختها المياه مع حلول الظلام، وكانا قد وجدا ما يحتاجه إلياس الذي فاتح بيتر خلال هذه الجولة بما يدور في ذهنه الآن، وقد عكس هذا التفكير جنون عقله بصورة مضحكة مشوهة.

سأله إلياس إنْ كان لا يزال يتذكر الواعظ الجوال ذا الغرة الحمراء. فأجاب بيتر بأنه يتذكره حتماً. وإن كانت الكلمات التي صاح بها عندما تهاوى مغشياً عليه لا تزال في ذاكرته؟ تابع إلياس سؤاله، فصمت بيتر. عندها ازداد إلياس تيقظاً وصارت حركاته عصبية، وقال إنه قد اكتشف في أثناء عزف الأرغن في فلدبرغ أنه أحب إلزبت بنصف قلب فقط.

ولهذا السبب رفض الرب أن يمنحه إياها، لأن العاطفة كانت فاترة ولم تتجاوز مداها فحسب. وبالتالي فإن ما كان يسمى حبه لم يكن سوى مراكمة أكاذيب وأنصاف عواطف قلبية.

فكيف يستطيع إنسان نقي القلب أن يزعم إنه يحب امرأته طوال حياته، في حين أنه لا يحبها إلا في النهار، وربما لمدة فكرة عابرة فحسب؟ قال إلياس ذلك بشفتين مرتجفتين وتابع بأن هذا لا يبرهن على الحقيقة، فأثناء النوم – وعلى بيتر أن يدرك ذلك – الإنسان لا يحب، لأنه في حالة موت، وليس عبثاً تسمية النوم والموت بالشقيقين.

ولهذا فإن النوم وقت مهدور، وبناء على ذلك فهو خطيئة. إن الوقت الذي يقضيه الإنسان في النوم سيضاف بعد الموت إلى الوقت الذي سيقضيه في نار جهنم. ولهذا فقد قرر أن يعيش حياته من جديد صاحياً. وحياة الصحو الجديدة هذه ستكسبه حب إلزبت ويقين الغبطة الأبدية في الجنة.

أحس پيتر بأنه لم يعد هناك ما يمكن قوله. فرد إلياس سترته على طرف الصخرة وجلس فوقها، ثم بلل بلعابه ورقة من أوراق الداتورة وجعل منها لفافة صغيرة. ضحك أثناء ذلك وقال إنه يبدو لنفسه مثل فرس أبيه المخلَّعة التي لم تصح إلا بعد أن حشيت هذه الأوراق في مؤخرتها. حاول پيتر ثانية جاهداً ليثني صديقه عن خطته المجنونة، ولكن عبثاً. ومع ذلك فقد ضحك ضحكة مصطنعة. أمره إلياس بخشونة بأن يذهب الآن وأن ينام حتى الشبع، إذ عليه خلال ليلتين أو ثلاث أن يكون صاحياً لكي يحرسه. ثم تناول حبة كرز من العنقود وعضها وابتلع نصفها.

سرعان ما ظهرت الأعراض، فبعد ذهاب پيتر بنصف ساعة بلغ إلياس حالة عالية من النشوة، فأخذ يغني ونهض ليرقص على ألحانه. ثم تعرض فجأة لرجفات تشنجية وانفجر من ثم في بكاء مستمر وطويل. وبعد أن هدأ بعد منتصف الليل كان منهكاً حتى الموت. شعر برأسه ثقيلاً، وكذلك صدره، وعندما انتبه إلى أنه قد غفا للحظات وبّخ نفسه بكلمات قاسية، ثم قفز إلى الجدول وتمرغ

في الماء مثل وعل بالغ الثقل، فهكذا كان يشعر بنفسه، إذ خُيِّل إليه أنه ازداد وزناً.

مع بداية الصباح ولعب أولى شعاعات الشمس الحادة على أوراق أشجار الغابة المخلّطة سيطر على عقله شعور بأنه ملاحق، وتراءت له الأوراق المتحركة ككائنات حية ذات فراء وأسنان مدببة حادة في أفواهها، وأن السماء قد امتلأت بهذه المخلوقات المهدِّدة التي كانت تتقافز هنا وهناك، تثب بصورة خطيرة باتجاه رأسه من دون أن تسقط عليه. وفي صباح الليلة الثانية التي أمضاها متيقظاً بدا أن طاقة سمعه قد ازدادت، في حين تراجعت قدرته على الرؤية.

قبل الظهر نزل بيتر مجدداً إلى الصخرة التي جلختها المياه، لكنه لم يجد إلياس جالساً هناك، ولم يجد على الصخرة سوى السترة والحبال الكتانية، فصاح باسمه وانتظر أكثر من ساعة، ولكن من دون جدوى. فصعد ثانية ظاناً أن إلياس قد تخلى عن خطته. ومساء عندما تسلل إلى داره ورمى بحصة على نافذة حجرته ولم يتحرك أي شيء خلف النافذة غلبه الحزن. وتوجه من فوره نزولاً نحو الإمر، لكنه لم يعثر على إلياس.

غاب عن الأنظار طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال. وفي صبيحة اليوم الرابع فكر بيتر بأن يحنث بقسمه، وأن يجمع حفنة من الرجال ليبدأ معهم عند الظهر البحث عن المختفي. إلا أن الأمر لم يبلغ هذا الحد، فعندما أطل مجدداً على الصخرة، رأى إلياس جالساً هناك. فراقبه من

مسافة مأمونة وشاهد أنه لم يعد قادراً على البقاء جالساً ورأى أيضاً أنه لم يغمض عينيه حتى الآن.

«أين كنت؟» سأله بيتر بصوت عالٍ. وبدا أن إلياس لم يسمع السؤال. فسأله بصوت أعلى ورأى كيف تغيرت ملامح وجهه بألم. وبعد تخمين مُضنٍ توصل إلى أن صديقه قد تسلق أعلى جبل، جبل الكرة، وتاه هناك، ولم يجد طريق العودة إلا الآن.

صحيح أن إلياس في وضعه الحالي كان لا يزال قادراً على الكلام بوضوح، بيد أن التأثير المهيّج لفطر المجانين مترافقاً مع أوراق الداتورة المنبهة جعل الكلام عذاباً. كانت شفتا إلياس متورمتين ومتصلبتين. وإن أراد التعبير عن شيء ما كان بحاجة إلى عدة محاولات. وهو لم يعد قادراً على الاستمرار في تعذيب نفسه بهذا العناد، لذلك لا بد لبيتر من أن يقيده بالحبال الكتانية إلى جذع شجرة الدردار اليافعة تلك، إذ كيف يمكن له أن يقف أمام ناظري إلزبت وأن يقول لها إنه يحبها طوال حياته، إن لم يبق صاحياً؟ أمسك بيتر بالجسد الناحل وربطه بذراعين قويتين إلى جذع الشجرة. كان إلياس ظمآناً وبحاجة لشرب كثير من الماء. ألقمه بيتر الجرعات بحذر ورقة، لكنه خلال دقائق قليلة تقيأ كل ما شربه.

وبعد الظهر عندما امتد القيظ حتى إلى برود الغابة كان تأثير المواد المنبهة قد تراجع وبدا وكأن إلياس قد استعاد قواه. وعلى كل حال صار بمقدوره الكلام بشكل أوضح، حتى أنه ضحك وقال بأن النوم

يسلب الإنسان أجمل أوقات حياته، وبأنه ينتابه إحساس بأن الزمن أطول مما يعتقد الإنسان بصورة عامة، فما بدا له سابقاً كلحظة، يمتد الآن على مدى قبل الظهر. وسأل بيتر بمنتهى الجد، كم يتصور طول لحظة من الأبدية. لم يجب بيتر بل وضع له سترته المبللة فوق رأسه وصدره بغية الترطيب. فقال إلياس من وراء السترة إنه يعتقد بأن لحظة من الأبدية تساوي سبع حتى تسع فترات من فترات قبل الظهر في دنيانا الأرضية، وربما أكثر، أو أقل، لكنها تساوي ثلاثاً منها بالتأكيد.

ومنذ ذلك الحين بقي بيتر إلى جانب المقيد إلى الشجرة. صحيح أنه كان يذهب مساء إلى داره ليحلب البقرات، لكنه كان يعود من فوره نازلاً إلى الصخرة مجدداً.

لا بد من قرصه في خديه وساقيه، وحتى صفعه إن دعت الضرورة، قال إلياس وقد سال رياله، وأضاف أنه يريد كرز الجنون، وأنه بحاجة إلى ماء، وإلى أوراق الداتورة في إسته. وأن على بيتر فك قيده لأنه لم يعد قادراً على الوقوف.

نفّذ بيتر بصبر ما طلبه منه إلياس، مشى معه بضع خطوات وألقمه نصف كرزة في فمه بين الأسنان ثم قيد الجسد المتداعي ثانية. كلفه إلياس بأن يلف حبلاً كتانياً حول جبينه وأن يرمي نهاية الحبل حول غصن ثم يشده أخيراً إلى أصابع قدميه، فبذلك يكونان قد جهزا نفسيهما لليلة القادمة. فإن انحنى رأسه فسيلاحظ بيتر ذلك فوراً،

فيستيقظ ويجبره على اليقظة ولو اضطر إلى ضربه، فالإنسان خلال النوم لا يحب.

وهكذا انقضت الليلة السادسة في الغابة، وبقي إلياس متيقظاً ولم ينم، ولكن ببذل جهد لا يوصف، إذ كان على بيتر دائماً أن يفك قيده عن الجذع ويمشي معه بضع خطوات ويغطّسه في الماء البارد. وما يكاد بيتر ينام حتى يصيح المجنون بأنه لم يعد قادراً على الصمود وأنه يخشى أن يغلبه النعاس.

في صبيحة اليوم السابع من صحوه، تركه بيتر مدة ثلاثة أرباع الساعة، ليرعى شؤون داره. وعندما عاد وجد إلياس مستغرقاً في النوم، ورأى أنه لم يعد قادراً على التحكم بخروج فضلات جسمه. كان البول يقطر من قصبة ساقه، كما اكتشف بقعاً صفراء بحجم الجوزة منتشرة على جسم شهيد الحب. وعندها ضاق قلب بيتر إلى درجة أن صفع النائم حتى أيقظه، وصرخ في وجهه أنه لم يعد قادراً على احتمال المزيد مما يرى أمام عينيه. فإن لم يتوقف إلياس عن تعذيب نفسه فوراً فإنه سيحضر أخته، سيقودها إلى هذا المكان، ويعرِّضها إلى هذا المشهد المروع. وسيخبرها بسبب تعريض إلياس نفسه إلى هذه الآلام. وعندها زعق الذاهل وتلجلج بكلام لا يكاد يفهم، بأن على بيتر أن يتمسك بقسمه، مثلما تمسك هو به حينذاك.

كانت هذه آخر محاولاته للكلام، فمنذئذ لم يعد قادراً على تحريك أطرافه، ناهيك عن فكيه ولسانه. ونتيجة لغضبة المغشي عليه ساطه

بيتر مرة وأخرى حتى أيقظه، سند الجسم المتهالك موتاً، غطسه في الماء وألقمه قسراً قطعاً صغيرة من كرز الجنون. ولما لم يعد بوسعه فتح جفنيه عن عينيه الملتهبتين المتقيحتين، تناول بيتر كريات شمعية، شكَّلها كأقراص ووضعها بين أهدابه، بحيث يمنع سقوط الجفنين.

نحو الساعة الخامسة بعد الظهر جرت أمور لم يجد لها بيتر أي تفسير، إذ حدثت جلبة في منطقة وجودهما وعلى نحو مفاجئ، وتناهت من جميع أطراف الدغل أصوات طقطقة وخشخشة. لم يسبق بيتر قط أن شاهد حيواناً برياً يجرؤ على الاقتراب من الإنسان إلى حد إمكان الإمساك به. فالجدي، أكثر حيوانات الجبل نفوراً من البشر اقترب من دون وجل وشرب من ماء الإمَّر، ولم يبد عليه التحفز للهروب عندما نهض بيتر على الصخرة واقفاً. وعلى مسافة أبعد، نزولاً، عند حافة الكهف كانت ثلاثة غزلان تأكل الأوراق عن أغصان الشجر. ومن عمق المغارة المظلم طار خفاش متراقصاً، وبعد ذلك بقليل تسلقت الصخرة التي جلختها المياه بعض الزواحف من نوع السلمندر. وفي الوقت نفسه تناهى إلى سمع بيتر الآن نباح كلاب إشبرغ. ما كان بوسعه أن يحدس، ناهيك عن أن يسمع، أن الموشك على الموت ما زال في واقع الأمر يتحدث. غير أن صوته صدر على ترددات سمع الحيوانات. كان يغني بطبقة ما فوق صوت الخفافيش، ويصفر على نحو غير مسموع بترددات الكلاب والثعالب. كان لا بد من توصيل رسالته الأخيرة إلى الحيوانات البرية في الغابة.

وفي اليوم السابع حدث أن تضاعف سمعه طوال لحظات كثيرة، فلم يسمع أصوات جسده فحسب، بل سمع، والأدق أن نقول رأى ماهيتها، فرأى ما تحت الأصوات وما فوقها، ما تحت النبرات وما فوقها، بل سمع أوهى اهتزازات نبض قلبه المضطرب. ولم يُقدَّر له أن يسمع أكثر من ذلك، فقد كان الرب قد انتهى منه.

وفي صباح اليوم التالي تسارعت خفقات قلبه بصورة تمنعه من النوم، حتى لو أراد ذلك. وبيتر المنهك من السهر عبر ليال متعددة أحس في صدره بتصاعد ثم هبوط واضح في ضربات قلبه. وعندما عاد من حلب الأبقار صباحاً كان جسد إلياس معلقاً في الحبال الكتانية خامداً. وعندما فك الحبال تداعى الجسد. أنصت بيتر إلى نبض قلبه، فسمعه ضعيفاً ونائياً.

مع قرع نواقيس الملائكة الداعية إلى صلاة قبل الظهر، في التاسع من سبتمبر في عام 1825 فارق الحياة يوهانس إلياس آلدر الابن غير الشرعي للخوري إلياس بِنْتَسر وأغاتهِ آلدر، الملقبة زفين. وكان سبب الوفاة شلل تنفسي ناجم عن تناول كمية زائدة من كرز الجنون.

سنرفع أعيننا عن هذه الأوراق لنلقي نظرة من مكتبنا المنخفض – والصغير كما في بيت الدمى – على المنحدرات المغطاة الآن بثلوج رمادية شاحبة، ويتناهى إلى سمعنا صياح طفل فرح وتهليل مجلجل لأم شابة. ونرى المجموعة الممتلئة حيوية تصعد حاملة زلاقات الثلج ونحس بفرح هؤلاء الأطفال وبقدرتهم على التزلج بسهولة على

الثلوج الجديدة المتراكمة. ثم نعود إلى طاولتنا حيث ما زال حر أواخر الصيف يعبق في الجو.

لا، لن نحزن على هذا الإنسان، بل نحزن على عبقريته وعلى استحالة حبه. كم من الناس الرائعين – ها هي الفكرة تعاودنا مجدداً – يجب على العالم أن يخسر، فقط لأنه لم يُقدَّر لهم أن يعيشوا حياتهم بتوازن ما بين السعادة والتعاسة.

سنغلق صفحات كتابنا الصغير على يوهانس إلياس آلدر. وما سيلي ليس كبير الأهمية، لكنه إنهاء حكاية عالم لم يعد له أهمية الآن.

جلس بيتر بجانب الجثمان وأغلق بيد ذراعه المشوهة فم إلياس آلدر وأغمض عينيه. وعن بعد سمعت نواقيس الملائكة، ومع تلاشي قرعاتها الأخيرة لم يعد بيتر قادراً على ضبط نفسه، فانفلت في بكاء مؤلم، ثم أخذ يغازل الجثمان مثلما كان يفعل دائماً في أحلام يقظته. سرعان ما ظهرت زرقة الموت على شفتي إلياس وبرد صدره. نهض بيتر وقرر دفن الجثمان قرب بركة الأيائل، إذ تذكر الكلمات التي قالها إلياس مرة لإلزبت عن أن جميع الإشبرغيين حال موتهم لا بد أن يهبطوا إلى هذا المكان، لأن البوابة إلى العالم الآخر توجد فوقه. فحمل بيتر الجثمان وأخفاه في الدغل بصورة مأمونة، ثم تسلل إلى داره وعاد عقب الظهر مباشرة حاملاً معه معولاً ومجرفة، ووجد عناءً في طرد الثعالب والنموس التي اشتمت رائحة الجيفة.

حمل بيتر الميت على كتفه وسار بصعوبة نحو منطقة بركة الأيائل، سجّاه على الطحالب في البقعة الجرداء وبدأ بالحفر. نقب حفرة بعمق يزيد عن المترين، لعلمه بأن الثعالب ستنبش الأرض بحثاً عن الجيفة. ثم فعل ما لم يفعله طوال حياته. توجه إلى الحقول وجمع أزهار أواخر الصيف. واضطر عند عودته لطرد الثعالب مجدداً بالعصا. صنع من الزهور إكليلاً توّج به رأس إلياس الأبيض الحليق، همس باكياً بصلاة الميت، رفع الجثمان عن الطحالب وتركه ينزلق في الحفرة. وحسب

تقليد قديم، جمع بيده حفنة تراب ونثره فوق رأس الميت المتكور على نفسه.

«عارياً نزلت من رحم أمي» همس پيتر «وعارياً سأغادر. الرب أعطى والرب أخذ.» ومع كلمات «تمجد اسم الرب» بدأ يعول ثانية. لا حزناً، بل من الغضب.

جلس طويلاً عند القبر المفتوح، ثم ردم الحفرة، وبصورة لن يعرف معها لاحقاً أين كانت بالضبط. غير أنه كان قادراً على تحديد المكان، فعلى مسافة أربع عشرة خطوة انتصبت شجرة شربين، وعلى لحائها حفر پيتر حرف (E) بشكل رشيق، وواظب طوال حياته وبعناية فائقة على تهذيب حرف (E) المحفور.

بعد أن دفن صديقه الوحيد، حبيبه السري، عاد إلى داره ونام طوال ليلة ويوم من دون أن يستيقظ حتى مرة واحدة. ومن ثم عندما ساق البقرات لحلبها لاحظ أن ضروعها قد بدأت تقطر، فقد كانت ممتلئة إلى حد الانفجار. رأى عيونها التي كادت تجن من الآلام وأحس فجأة بنوع من الشفقة على هذه المخلوقات العزلاء. لم يعد پيتر مَن كانه.

أما حياته المطبوعة بوحدة لا نهاية لها – وهو الذي طرد والديه من الدار – فقد تعرضت لانعطافة جديدة غير متوقعة. وما حدث هو أن شخصيته القلقة الخبيثة قد تغيرت إلى حد أنه لم يبدأ الناس فحسب بالثقة به تدريجياً، بل حتى الدواب أيضاً، وهذا أبلغ أهمية.

وكمن تعرض فجأة للتجربة الدمشقية، هكذا ابتعد پيتر عن تعذيب الدواب، ويحكي ثرثار آل لامبارتر أنه رأى بأم عينيه أن الدواب في حظيرة پيتر لم تعد تستلقي على الألواح الخشبية العارية وإنما على أوراق أشجار طرية ومفروشة حديثاً. وبمضي السنين وصل پيتر إلى مكانة كبيرة في القرية، إلى حد أن سُمي مشرفاً على المنطقة قبل بضعة أشهر من اندلاع الحريق الثاني. لكن ثمة ما لم يفهمه أحد: لماذا لم يرغب پيتر في الزواج؟

من العبث البحث عن سبب تحول شخصية پيتر بهذه الصورة. ومن السهل القبول بفكرة أنه بعد أن شهد عذاب صديقه الميت، قد استوعب بمراجعته مسيرة حياته، أن إلحاق الأذى بالآخرين عمداً، لا يضيف شيئاً في عملية إدراك هذه الحياة الدنيا العسيرة على الفهم. لقد طهرته حياة يوهانس إلياس آلدر العاثرة. ونحن نؤمن بذلك بجدية طفولية، فالشر يستمر في صراعه مع الخير إلى أن ينهزم فيه.

كان پيتر في الثامنة والثلاثين من عمره - بعد ست عشرة سنة على موت إلياس آلدر - عندما توفي بـ (نار القديس أنطونيوس) وهو مرض غامض تسبب في وفاة كثير من الإشبرغيين حينذاك. فقد انتقلت إليه العدوى من الحنطة السوداء المصابة بالفطور، ما أدى إلى أن اسودت أطرافه فجأة، إلى أن ماتت تدريجياً.

لقد رأى پيتر بأم عينيه الدمار والخراب الذي سببه الحريق الثاني. كان ذلك ذات صباح هائج بالرياح من شهرمارس عندما اندلعت

النيران، ولسبب لم يُعرف، فدُمرت القرية بأسرها تقريباً، ولم يتبق من الكنيسة سوى الجدران الأساسية. ولم يذهب ضحيتها من البشر هذه المرة سوى شخص واحد، أما الدواب فلم تصب بأي أذى، إذ سيقت في الوقت المناسب باتجاه غوتسبرغ. كان ممكناً ألا يموت أحد إطلاقاً لولا سوء الفهم المخيف الذي حصل: إذ ظنت زفين أنه أُخرج من الدار، وكان فريتس في الواقع قد أنقذ المعتوه إلى مكان مأمون، لكنه لم يخرج الأب من الدار. وهكذا كان على زف المشلول أن يحترق. وقال أحد آل لامبارتر أنه قد سمع أثناء ركضه صرخة، بدت له وكأنها ضحكة مريعة. وظن أنها ضحكة جار يائس يرى النيران تحرق داره للمرة الثانية. وهو أيضاً ضحك قبل أن يبكي.

سنعفي القارئ الذي بات صديقاً عزيزاً – يستحيل ألا يصير كذلك وقد تقدم في قراءة كتابنا الصغير إلى هذه النقطة – من تفاصيل امحاء الحياة في قرية إشبرغ. ولكن مع الحريق الثاني بدا أن الناس قد استوعبوا أن الرب لم يرغب في وجودهم هنا قط، فهجروا إشبرغ. ولكن ليس الجميع، بل بقيت عائلتان لامبارتريتان وعائلة آلدرية، وبعناد لا يوصف. وعندما اندلع الحريق الثالث في الخامس من سبتمبر سنة 1892 احترق اثنا عشر رجلاً في أسرّتهم وثمان وأربعون دابة في الحظائر. ولم يبقَ حياً سوى رجل واحد، كان اسمه كوسماس آلدر. كان عجوزاً قصير القامة ذا أنف صغير، محمرٍّ من الكحول.

ماذا يعني الحب يا أمي؟

حدث هذا بعد تسع سنوات على موته، ذات صباح ماطر من شهر مايو، يدفعُ الأطفال إلى التمرد والشغب في حجرتهم نتيجة الشعور بالملل. وعندها قررت لوكاسين أن تقوم بمشوار مع صغارها الستة نزولاً نحو النهر. أرادت أن تريهم مشهد تدفق الإمَّر بلونه البني، كما كان يساورها الفضول لمعرفة أي مسار اتخذه لنفسه بعد العاصفة.

على الرغم من أنه ما زال بالإمكان وصفها بالمرأة الشابة، إلا أن ولاداتها السنوية تقريباً قد استهلكت جمالها، ففسدت أسنانها واخشوشنت يداها وبرزت عظامها من العمل في الدار والحقل والمرعى. كانت مضطرة للتخلي عن حياكة الدامسكو اليدوي، لكن ذلك كان سيان بالنسبة إليها، إذ أنها قد عرفت قدَرها.

وبصوتها العميق الذي كان يحبه أيما حب، أمرت صغارها بأن يمسكوا بأيدي بعضهم، صفاً واحداً، وأن يتبعوها في رتل واحد، مثل صغار الإوز. وهكذا تمشوا على درب ضفة النهر الغني بالمنعطفات صعوداً وهبوطاً. كان كوسماس، بكرها، في آخر الرتل يوجه أوامره إلى إخوته «انتبهوا!» و«توقفوا!» فخوراً بحشد جنوده.

عندما بلغت لوكاسين المكان الذي غالباً ما كانت تجلس فيه معه،

أيام صباها، توقفت فجأة وصاحت بمنتهى الدهشة: «لقد اختفت الصخرة!»

«الصخرة؟» سألتها آنَّا ذات الأربع سنوات باهتمام.

«لقد اختفت!» صاحت لوكاسين وأردفت «العاصفة جرفتها!».

كان المطر قد توقف، وأزاح الأطفال أغطية رؤوسهم إلى الخلف. فقالت لهم لوكاسين أن عليهم أن يلتموا حولها لأنها ستحكي لهم حكاية. نفذ الأطفال أمرها بفرح وقد ظهر الفضول على وجوههم.

«في ذلك المكان» وأشارت لوكاسين إليه «كانت هناك لسنوات طويلة صخرة كبيرة، وكانت تشبه نعل حذاء سيدنا.»

في ذلك الوقت عاش في إشبرغ شاب، قالت متابعة، كان مقدراً عليه حمل صليب ثقيل، فقد ولد بعينين تضيئان بلون أصفر، فعانى من هذا العيب بصورة مريعة. وهي نفسها كانت تعرف هذا الرجل معرفة جيدة، بل إنه قد أنقذ حياتها عندما اندلع الحريق في القرية. وهذا الرجل كان بطبيعته صموتاً. لم يستطع أحد أن يعرف ما يدور في نفسه. وذات صباح أحدٍ جميل صعد الرجل الغامض إلى الأرغن في الكنيسة الصغيرة وعزف بصورة في غاية الجمال، إلى درجة أن أخرج الناس مناديلهم من جيوبهم. وحتى هي انهمرت دموعها لروعة ما عزفه، علماً بأن الرجل لم يتعلم العزف على الأرغن قط. وبعد بضع سنوات اختفى الرجل فجأة من دون أي أثر، ولم يعد،

على الرغم من البحث عنه في كل مكان. وهي تعتقد أنه ما زال على قيد الحياة. ربما كان سبب هجره إشبرغ هو أنه لم يستطع أن يجد حبه هنا.

«وهناك» اختتمت لوكاسين حكايتها «حيث كانت الصخرة التي جلختها المياه، كان مكانه المفضل.»

نظر إليها الأطفال بعيون مستديرة بنية اللون. وكوسماس، كبيرهم، تقدم إلى أمه وسألها بصوت مصطنع يماثل صوت الكبار: «ماذا يعني الحب، يا أمي؟»

«ماذا يعني الحب؟» وضحكت لوكاسين، قبلته على أنفه الصغير الملتمع ورفعت غطاء الرأس فوق رأسه، فقد أخذ المطر يهطل مجدداً.

شقيق النوم:

نشر روايته الأولى «شقيق النوم» في لايبزيغ الألمانية عام ١٩٩٢، فنجحت على الصعيد الألماني والعالمي. وترجمت حتى الآن إلى ٣٠ لغة، واقتبست للسينما عام ١٩٩٥، وحصل الفيلم على عدة جوائز.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA
JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ
9 789948 016007